

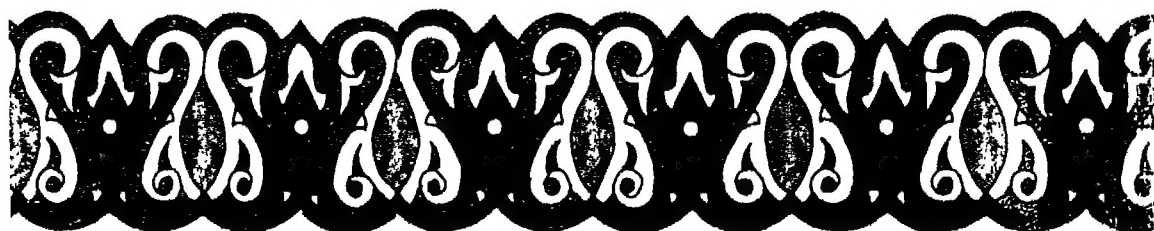
الأستاذ الدكتور منير العجلاني

تاريخ البلاد العربية السعودية

الدولة السعودية الأولى

الجزء الثاني

عبدالإمام عبدالعزيز بن محمد



تاريخ البلاد العربية السعودية

الدولة السعودية الأولى

الجزء الثاني

عبد الله بن عبد العزيز بن محمد

تأليف

الدكتور منير العجلاوي

عضو مجمع العالمني العربي بدمشق

أستاذ تاريخ الحقوق في الجامعة السورية

(سابقاً)

الطبعة الثانية

١٤١٣ هـ ~ ١٩٩٣ م

حقوق الطبع محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

قلنا ، في الجزء الأول من كتابنا ، إن تاريخ نجد الحديث يبدأ بالسنة التي هاجر فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى « الدرعية » .. ففي تلك السنة بدأت (نجد) تكتشف نفسها وتعي حقيقتها وتصنع وحدتها وتبني نهضتها .

أما قبل ذلك ، وحتى القرن الثاني عشر ، فما كانت (نجد) إلا تعبيراً تاريخياً ومصطلحاً « جغرافياً » في الكتب .. وأما في الواقع ، فما كان شيء يذكر بوحدتها أو بوجودها .. وإنما كانت هناك إمارات ومشيخات كثيرة ، كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى ، وكانت الحرب ، بين هذه الدويلات العجيبة ، قائمة موصولة ، كأنها جزء من طبيعتها ، فكانت البلاد تعيش في رعب دائم : بين عدو يأخذها بالقهر ، أو حليف يأخذها بالغدر .. وما كان أبناء البلدة ليتجروا ون على الابتعاد عن أسوار بلدتهم إلا بغمارة .. لأن الطرق كانت مرصودة بقطاع الطرق وطلاب الغرة !..

هكذا كانت نجد : تجديداً وتجسيدا لقصة ملوك الطوائف ، الذين قال فيهم المؤرخ الطبري :

« كل منهم كان ملكه قليلاً ،
انما هي قصور وأبيات ،
وحولها خندق ،
وعدوه قريب منه ،
له من الأرض مثل ذلك ونحوه ،
يغير أحدهم على صاحبه ،
ثم يرجع كالخليفة . »

كانت الدويلات في نجد صغيرة جداً ، ولا نبالغ إذا قلنا إن كل بلدة أو عشيرة كانت دولة .. بل حدثنا ابن بشر أن صاحب بلدة « التويم » قُتِلَ ، (فقسموا البلد أربعاً ، كل واحد شاخ في ريع ، فسمّوا « المربعة » . وإنما ذكرت هذه الحكاية ، ليعرف من وقف عليها وعلى غيرها نعمة الاسلام والجماعة ، فإن هذه القرية ضعيفة الرجال والمال ، وصار فيها أربعة رؤساء ..) .

وقال صاحب « لمع الشهاب » ، يصف نجداً في تلك الأيام :

(ليس هناك رئيس قاهر يردع الظالم وينصر المظلوم ، بل كل من الحكام حاكم بلدة .. والبداءة إذ ذاك قبائل شتى .. وحكومة كل شيخ في قبيلته .. وفيهم مشايخ صغار في نفس القبيلة الواحدة يخالفون رأي المشايخ الكبار ، وكان البدو يتحاكمون في قضاياهم الى العرف لا الى الشرع ، وقد يأخذ العرف منهم الرشوة ، وهي ما يعطى لإبطال الحق ..)

والحكام طاغون ، يصدّون الناس عن أحكام الشرع ..) .

دويلات صغيرة متعادية ، تعيش في « دوامة » الحروب والطغيان والخوف ، مع غلبة البداوة بأعرافها وضلالاتها ، وفوق ذلك كله : جهل بحقيقة الدين لشيوع

الخرافات وانتشار الشوكيات والإعتقاد بالحجار والأشجار ، والنذر للصالحين وللشياطين .. والإستغاثة بالموتى من دون الله سبحانه .. تلك كانت حالة نجد قبيل دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب ، فغير عجيب أن يسمي بعضهم هذه الفترة (بالجاهلية) ... تشبيهاً لها بما كان عليه العرب قبل الإسلام !

بعد الدعوة :

كانت نجد ، في تفرق كلمتها وتهافت معتقداتها ، تحتاج إلى زعيم ملهم يعلمها الدين ويحملها على اتباع أوامره ، ويطوي أعلام التفرقة ويجمع الناس تحت راية الأخوة ، فحققَ الله ذلك لنجد في العام ١١٥٧ للهجرة .

ففي ذلك العام المبارك جاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية ، لينقلها من الظلام إلى النور ، ومن التفرقة إلى الوحدة ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الخرافة إلى الدين ، فأعزّ الله بحركته لا الإسلام وحده ، وإنما أعز العرب أيضاً ، فقد ساهم الشيخ مساهمة عظيمة في تحرير العرب وتوحيدهم وفي إنشاء الدولة العربية الكبرى ، التي بدأت بقرية الدرعية ، ثم انتهت إلى جمع الجزيرة العربية أكثرها ، تحت راية واحدة : راية التوحيد !

ما كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ليستطيع أن يحقق أمله الكبير في تعليم العرب دينهم والنهوض بهم وتوحيدهم ، لولا حماية أمير الدرعية ، محمد بن سعود ، لحركته ، وجهاده الموصول هو وأخوته وأبناءؤه وقومه في سبيل نشر مبادئها ، فهناك دعاة للتوحيد جاؤوا قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، كابن تيمية وغيره ، لم يستطيعوا تغيير الأمور في شعوبهم لفقدان الناصر القوي الأمين ، لذلك عظمت منة محمد بن سعود على الحركة الإصلاحية وبرزت للمؤرخين المنصفين قيمة مساهمته الجليلة في خدمة الإسلام والعرب !

والحق يقال : لولا دعوة محمد بن عبد الوهاب لم تصبح الدرعية قاعدة للدولة السعودية الكبرى !

.. ولولا سيف محمد بن سعود ، لخنق الأعداء دعوة محمد بن عبد الوهاب
في مهدها !

قال أرمسترونغ :

« كان ابن سعود زعيماً قائداً ،

وكان ابن عبد الوهاب هادياً وداعياً إلى الله ،

وبفضل تعاونهما : حطمت الأوثان ، ونفذت أوامر القرآن ، وأكره الناس
على الصلوات الخمس في المساجد ، وعلى صوم رمضان ، ومنع شرب الخمر والدخان
وخضعت القبائل والبلدان واحدة بعد أخرى لدولة التوحيد .

الدرعية قبل الشيخ :

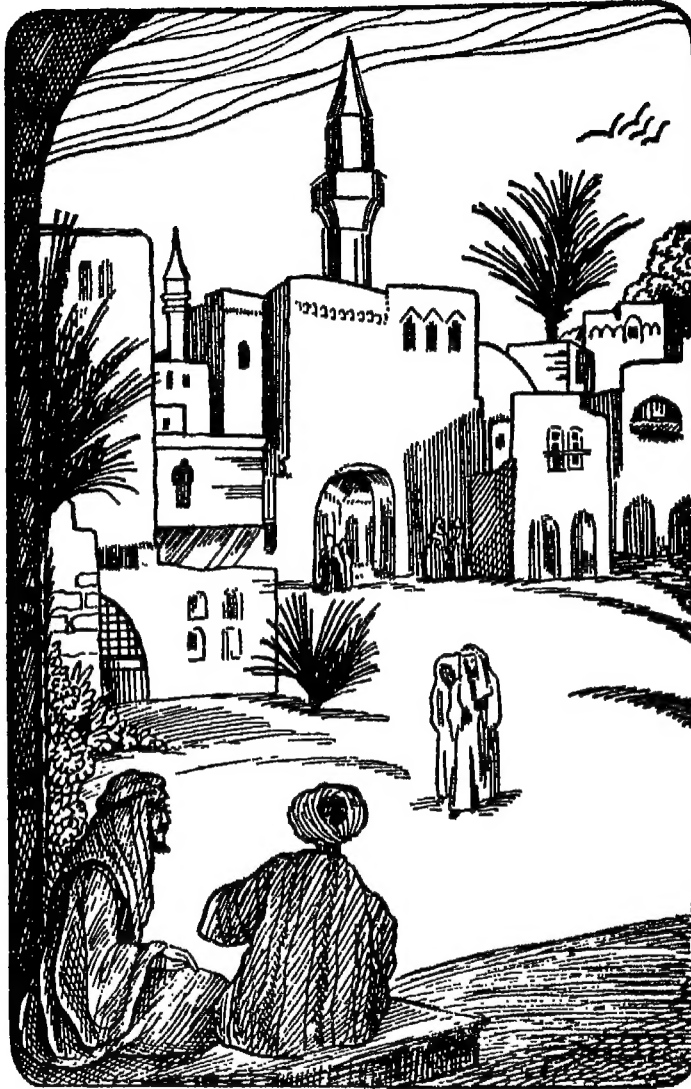
كانت الدرعية ، قبل وصول الشيخ إليها ، بلدة صغيرة ، ويقال إن عدد
بيوتها ما كان يتجاوز السبعين ، وكان صاحبها محمد بن سعود يديرها بأسلوب
« عشائري » ، وكان يأخذ من أهلها « القانون » وهو نوع من الضرائب التعسفية .

كان أهل الدرعية حنابلة ، ولكن اسماً لا حقيقة ، وكان لهم « مطوَّع » ،
ولكنه لا يدعو إلى الدين الصحيح ، وإنما يكتب للناس الحجب والطلاسم ..
ويتقبل منهم النذور لغير الله .. وكان الناس يعتقدون بالأشجار والأحجار ،
ويدعون أوليائهم لجلب الخير ودفع الضرر .. شأنهم في ذلك شأن غيرهم من
أهل نجد !

الدرعية بعد الدعوة :

فلما جاء الشيخ إلى الدرعية ، رحَّب به أميرها محمد بن سعود ، وقال له :
« أبشر ببلاد خير من بلادك ، وأبشر بالعرز والنعمة » (١) .

(١) انظر ابن بشر .



صورة لمدخل بلدة « الدرعية »
كما تخيله أنكيري في كتابه « ابراهيم باشا »

فقال له الشيخ :

« وأنا أبشرك بالعز والتمكين . وهذه كلمة (لا إله إلا الله) من تمسك بها وعمل بها ونصرها ، ملك البلاد والعباد » ^(١) .

ثم شرح له معنى التوحيد ، وذكر له شيوع الشراكيات والخرافات في نجد ، وانتشار الفساد والمظالم ، وضرورة مكافحة ذلك . فقال له الأمير ، في رواية ابن بشر :

« أبشر بالنصرة لما أمرت به ، والجهاد لمن خالف التوحيد » ^(٢) !

ويقول صاحب « اللع » ان الأمير محمد قال للشيخ :

(هذه القرية قريتك ، والمكان أنت واليه ، فلا تحشّ أعداءك ! والله لو انطبقت علينا جميع نجد ما أخرجناك عنا) !

وهكذا كان هذا اللقاء - ثم « العهد » - بين الرجلين نعمة من نعم الله الكبرى ، فقد استطاع الشيخ أن يعلم أهل الدرعية كلهم ، خلال سنة واحدة ، معاني التوحيد ، وأن يجعلهم أنصاراً له ودعاة لفكرته في سائر بلدان نجد !

تغيرت الدرعية ، بعد هجرة الشيخ ، تغيراً كاملاً ، وقد نستطيع تلخيص مظاهر هذا التغير بما يأتي :

أولاً - أبطل الاسلوب « العشائري » الذي كان يحكم به الناس ، وحل محله حكم نظامي ، دستوره الإسلام .

ثانياً - أبطلت « الإخوة » أو « القانون » ، وأصبحت موارد الدولة هي الموارد الشرعية وحدها ، من الزكاة والغنائم ونحو ذلك .

(١) و (٢) انظر ابن بشر .

ثالثاً - لم تعد القوة هي الحكم في الخلافات التي تقوم بين الناس ، فقد أقيم قضاة لفصل الخصومات بالحق ، فتنعم الجمهور بنعمة العدل .

رابعاً - نشطت حركة التعليم نشاطاً عظيماً ، بل أصبحت الدرعية «مدينة جامعية» يتوافد إليها طلاب العلم من كل بقاع نجد وجزيرة العرب .

خامساً - حلّ الجهاد لإعلاء كلمة الدين محل الغارات العشائرية القديمة التي كان يقصد منها مجرد السلب والنهب والعدوان .

سادساً - حمل الناس حملاً على تنفيذ أوامر الدين والانتهاز عن نواهيهِ ، وفي مقدمة ذلك إكراههم على الصلوات الخمس في المساجد .

سابعاً - أصبحت الدرعية مركزاً للدعوة ، ينطلق منه الدعاء وترسل الكتب إلى كل البلدان ، وتأتي إليه الوفود والضيوف جماعات وفرادى ، وقد جاء إلى الدرعية عدد كبير من الموحدين ، ضاقت بهم بلدانهم واضطهدتهم ، فأصبحوا بذلك من جنود الدعوة وتقوى بهم الأمير محمد بن سعود وحارب بهم أعداء الدعوة وتغلب عليهم !

تغير الصورة :

رأينا صورة نجد قبل اتفاق الشيخ والأمير ، وفيها : التفرقة ، والضعف ، والجهل ، والرعب ..

فلما اتفق الرجلان العظيمان على التعاون واشتركا في الدعوة إلى الله تعالى ، وفي حكم الدرعية وما ينضم إليها من البلدان ، أخذت الصورة تتغير ..

ويمكننا القول ان محمد بن سعود شهد ، قبل وفاته عام ١١٧٩ ، نشوء دولة إسلامية عربية حرة ناهضة ، قاعدتها بلدة « الدرعية » .

كانت هذه الدولة في ازدياد ، وكان خصومها في تناقص ..

..وفي عهد محمد بن سعود تمّ توحيد أكثر بلاد العارض، وشقت الدعوة طريقها إلى « الوشم » وإلى سدير وشعيب والمحمل ، وترنحت « الرياض » تحت ضربات الموحدين ..

وكان عبد العزيز بن محمد ، في حياة أبيه ، من أكبر أنصار الشيخ ومن أبرز قادة الجيوش وأبطال المعارك .

وإذا كان محمد بن سعود أسس ، مع الشيخ ، الدولة السعودية الأولى ، وهو شرف له عظيم ، فإن ابنه عبد العزيز أضاف إلى تركة والده أضعاف أضعافها .. واستحق هو أيضاً من التقدير والثناء ما استحقه أبوه ، وربما أكثر ، فقد نذر حياته منذ طفولته حتى موته للجهاد في سبيل الله ثم في خدمة شعبه .

سياسة عبد العزيز الخارجية :

لم يترك عبدالعزيز بعده ذلك «الدوي» الذي خلفه ابنه سعود، الملقب بالكبير، ولكن « الدوي » ليس مقياس العظمة دائماً ..

تحدّى سعود الدولة العثمانية تحدياً صارخاً وحاربها ، وانتصر عليها ، خلال فترة من الزمن ، فكان ذلك وحده كافياً لترديد اسمه في أكثر بلاد الدنيا ..

وأما عبد العزيز فقد حارب ولكنه لم يثر عليه الدولة العثمانية لأنه لم يسرف في معاداتها .

وقد حاول أكبر خصوم عبد العزيز — وهو شريف مكة — أن يثير عليه السلطان العثماني ، فمجز عن ذلك ، لأن عبد العزيز كان حكيماً في سياسته الخارجية ، ولم يكن ابنه سعود معتدلاً مثله فنجحت دسائس الشريف ضده .

وثيقتان خطيرتان :

ظفرنا بوثائق خطيرة تتصل بعهدي سعود الكبير وابنه عبد الله ، وأما عهد عبدالعزيز فما وجدنا عنه في دور « المحفوظات » التركية والفرنسية والانكليزية

إلا شيئاً قليلاً ، ولعل أهم ما وجدناه في دار المحفوظات باستانبول : «عريضتان» رفعهما المفاتي والقضاة وبعض الأعيان في مكة والمدينة إلى السلطان العثماني يستنجدان به للدفاع عن هاتين المدينتين ضد .. الدرعية !.. وكان ذلك في عهد عبد العزيز .

كتبت هاتان «العريضتان» - الرسالتان - في عام ١٢٠٧ للهجرة ، وفيهما كثير من السباب والظعن بالحركة السلفية الإصلاحية وصاحبها العظيم ، ولكن الأمر العجيب - والسار - أيضاً - أن الموقعين على هاتين الرسالتين قد أسرعوا ، بعد دخول الامام سعود مكة - إلى الاعتراف بأن كل ما جاء به الامام محمد بن عبد الوهاب كان مستمداً من القرآن الكريم والسنة النبوية وما كان عليه الخلفاء الراشدون ..

وهكذا أظهرت الأيام أن شريف مكة هو الذي أكره الناس على الكتابة إلى السلطان ، فلما زال حكم الشريف انطلقت ألسنتهم بقول الحق الذي يمتقدونه في قرارة أنفسهم ، وربما فعلت قلة منهم ذلك نفاقاً ، والله وحده يعلم السرائر !

هاتان الوثيقتان لم تنشرا من قبل في أي كتاب أو مجلة ، وربما كانتا تبقيان مطويتين زمناً طويلاً لولا نشرنا لهما ، وقد صورناهما - أنظر صورهما في الصفحات « س » إلى « خ » - ثم أوردنا أكثر نصوصها في الصفحات « ذ » إلى « د.د » ، باستثناء فقرات نابية وسباب بذيئة ، وهاتان الوثيقتان تبرز لنا الأمور الآتية :

أولاً - شدة مخاوف شريف مكة من قوة الدولة السعودية ، وهي المخاوف التي جاءت على ألسنة المفاتي والقضاة والخطباء والمدرسين والأعيان في مكة والمدينة ..

ثانياً - شدة « تبعية » القضاة والمفاتي وغيرهم من الموظفين للسلطة العثمانية ومبالغتهم في التملق والهوان .. وتمدحهم للسلطان العثماني بما لا يليق بعربي ومسلم أن يفعله .. فضلاً عن الكذب الظاهر في قولهم إن وارث الخلفاء الراشدين ومن أبنائهم !..

ثالثاً - استعمال ألفاظ تدل حقاً على « الشرك » الذي أرادوا تنزيه أنفسهم عنه ..

رابعاً - السخف في إيرادهم المآخذ على الموحدين في نجد، تلك المآخذ التي جعلوها وسيلتهم الى مطالبة السلطان العثماني بمحاربتهم .. ومن جملتها : ان الموحدين من أهل نجد لا يكرمون كتاب « دلائل الخيرات » !! - فتأمل ! - خامساً - يعترف الموقعون بسرعة انتشار الدعوة بين عرب الحجاز وبلوغها الى عرب الشام والعراق ..

وهناك أمر آخر يستحق التنويه به والتنبيه اليه وهو : أن الوثيقة الاولى تحدّد ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد : سنة ١١٤٣ هـ . وهو ما أغفل تحديده مؤرخا نجد ابن غنام وابن بشر .

رجال العهد :

لم يكن عبد العزيز وحده صانع كل الأمجاد التي تحققت في عهده ، فقد شاركه في تخطيط سياسته وتحقيق « مشاريعه » رجال عظام ، لا بد لنا من الإشارة الى طائفة منهم .

ألمع الأسماء في عهد عبد العزيز :

١ - الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب: الذي كان يوجه سياسة البلاد حتى فتح الرياض ، ثم ترك أمور السياسة لعبد العزيز وانصرف إلى العلم ، وإن كان عبد العزيز لم يستغنِ قط عن مشورته .

وقد توفي الامام سنة ١٢٠٦ للهجرة ، وعاش عبد العزيز بعده اثني عشر عاماً كان خلالها أبناء الشيخ ، وفي مقدمتهم الشيخ حسين ، ينهضون بما كان ينهض به والدهم العظيم ، وإن كانت زعامتهم الدينية ، طبعاً ، أضعف قليلاً من زعامته .

٢ - عبد الله بن محمد : أخو عبد العزيز :

كان الأمير عبد الله بن محمد بن سعود بطلاً ، شارك في كثير من الحروب والغزوات ، وأبلى فيها بلاءً حسناً ، وكان عبد العزيز يحب أخاه عبد الله حباً كثيراً ، وقد كشف لنا الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف في بعض رسائله عن « حادثة » جلية ، لم يشر إليها المؤرخون ، وهي أن عبد العزيز أراد ، بعد فتح الرياض ، أن يسمي أخاه عبد الله أميراً عليها ، فمنعه الإمام محمد بن عبد الوهاب من ذلك ، مع محبته هو أيضاً لعبد الله . وذلك حرصاً على وحدة الدولة الناشئة وقوتها ، فلو أن البلدان النجدية توزعت بين عدد من أمراء آل مقرن واستقل كل واحد منه بملكته الصغيرة لما قامت الدولة السعودية الكبرى (١) ..

وعبد الله بن محمد بن سعود ، رحمه الله ، هو أبو الإمام تركي وجد الإمام فيصل ، أي أنه الجد الأعلى للملك عبد العزيز ، مؤسس المملكة العربية السعودية .

٣ - سعود بن عبد العزيز :

قائد أكثر الحروب والغزوات في عهد أبيه ، وكانت له مشاركة كبيرة في أمور السياسة والإدارة أيضاً .

٤ - آل الشيخ :

كان الشيخ حسين وإخوانه أبناء الشيخ أعظم الوزراء - أو المستشارين - عند عبد العزيز ، وكان على رأيهم المعول في الأمور الدينية ، وكانت كتبهم ورسائلهم في الأمور الشرعية مرجعاً للقضاة ولسائر الناس ، ولكن عبد العزيز

(١) أنظر رسالة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف إلى إبراهيم بن عبد الله وإخوانه المنشورة في الجزء السابع - كتاب الجهاد - من مجموعة (الدرر السنية في الأجوبة النجدية) صفحة ٢٧١ وهذه قطعة منها : (وكذلك ما قاله إمام هذه الدعوة النجدية الشيخ محمد رحمه الله تعالى لما أراد عبد العزيز أن يجعل أخاه عبد الله أميراً في الرياض بعد فتحها ، أنكر ذلك وأعظمه ، وقال هذا قذح وغيبة لإمام المسلمين وعضده ونصيره ، لأنه رأى ذلك وسيلة إلى الفرقة ، مع أن عبد الله ما يظن به إلا خيراً ، وحسبك به رحمه الله) .

مع تقديره لها ولعلم أصحابها لم يازم الناس بها إلزاماً مطلقاً، فقد جاء في بعض رسائل عبد العزيز ما يسمح بخالفة رسائلهم وآرائهم عند وجود الدليل المخالف، قال :
 « هذا كتاب آل الشيخ ، تشرفون على ما فيه من الأدلة التي لا تنكر في مسألة العلامة التي تجعل في العبي وغيرها من الحرير ، فيكون عندكم معلوماً إن إخوانكم من أهل الدرعية عملوا على ما في الورقة ، فأنتم اعملوا على مثل ما عملوا ، ومن وجد دليلاً يخالف ما نبيها فالحق مقبول متبوع ، والرجوع الى الحق خير من التماذي في الباطل . »

اسلوب الدعوة والدعاة :

وجدنا في كتاب أرسله الشيخ عبد الرحمن بن حسن إلى الإمام فيصل بن تركي فقرة أحببنا إثباتها هنا لما تضمنته من الإشارات اللطيفة إلى الاسلوب الذي استنته الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، واتبعه من جاء بعده ، في الدعوة إلى التوحيد ونشر الدين والعلم بين الناس وإعزاز كلمة رجال الدين وتقديمهم ، قال :

(.. دائماً في كل وقت ، يبعثون الدعوة إلى الله إلى كل بلدة ، يحدّدون لهم دينهم ويسألونهم عن ثلاثة الأصول والقواعد وغير ذلك من كتب الأصول .

أعرف منهم نحو العشرة ، منهم : عبد الله بن فاضل ، وعبد الرحمن بن ذهلان ، وراشد بن درعان ، وعثمان بن عبد الله بن عبيكان ، وحمد بن قاسم ، وأحمد الوهبي ، وسليمان بن ماجد ، ومحمد بن سلطان وأولاده ، وحسن بن عيدان ، ومحمد بن سويلم ، وعبد العزيز بن سويلم ، وعثمان العود ، وعبد الرحمن بن نامي ، وعبد الرحمن بن خريف ، وأمثال هؤلاء من لهم فقه في التوحيد ورغبة فيه .

وكل واحد من هؤلاء يروح لجهة ، ومعه اثنان أو ثلاثة ، ويجلس في البلد قدر شهرين ، يسألهم ويعلمهم ، والذي ما يعرف دينه يؤدّب الأدب البليغ ما يعارض ، فإذا أراد السفر استلحق أهل الدين من أهل البلد ، وقال : سلّموا على الكبار ، ويعرف الشيخ وعبد العزيز وإخوانهم بأحوالهم ويقدمونهم في بلدهم

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبهذا صار للدين سلطان وعز ، وهذا يفعلونه دائماً مع الرعايا ، وصار الذي له دين يقوم بالدين ويأمر وينهى ، والذي ما له دين يتزبّن عند أهل الدين .

وأما حالهم في بلد الدرعية ، فبنوا مجمعاً حول مسجد البجيري - محله معروف إلى اليوم - يسع له قدر مائتي رجل ، وجعلوا فيه رفقا للنساء ، فإذا صلتوا الصبح أقبلوا لهذا المجمع ، وفيه معاميل وقهوة وما نابها مقيم به من بيت المال ، تارة يجلس فيه (حسين) ابن الشيخ ، وتارة (عبد الله) وتارة (علي) ، ويقرأون في نسخ التوحيد ، فإذا فرغ هذا الدرس راحوا ، هم وغيرهم ، وجلسوا عند بيت الشيخ ، حتى يحكي عمك وجدك وسعود وعياله ، وآل عبد الله ، ويدخلون عند الشيخ رحمهم الله ، فإذا « تقهّوا » وذكر عمك ، رحمه الله ، للشيخ ما عنده من خبر أو أمر يحتاج له الشيخ ذكره له وأخذ ما عنده من رأي ومن علم ، وأرخصوا للجماعة .. وقرأ ثلاثة : (عبد العزيز) بن الشيخ يقرأ في تفسير ابن كثير ، و (علي) و (عبد الله) يقرأون في البخاري ، وكل من عنده دراية وفهم إذا فاضوا في الباطن صاروا حلقة يتذاكرون درس الشيخ رحمه الله .

والأجنبي الذي ينبغي يركب لديرته يصغي للمذاكرة ، عارف أن أهل ديرته يسألون : أيش أيش درس الشيخ فيه ؟

وقد ذكرت لك قصة ابراهيم بن زيد في تلك المدة ، وموسى بن حجيلان يثشي على المساجد يسألهم : عن ثلاثة الأصول والقواعد .

ونحن ، يا حمولة ، لنا مجلس بين العشاءين في الباطن ، (يجتمعون) فيه أهل البلاد ، ونسأل اثنين ، والذي ما يعرف دينه يضرب ..

فأول مجلس فيه حسين ، ثم علي بن الشيخ . وجلست فيه مدة نحو سنتين أو ثلاث على هذا الترتيب ، ثم حمد بن حسين .

هذا بعض ما حضرناه من سيرتهم ، فلما توفى الله عمك حصل غفلة عن هذا الترتيب ، لما فتح الله الدنيا وكثرها على الناس ووقع الاعراض عن كثير مما ذكرنا ، لا كله بل باقي له بقايا ، وحدث ما حدث من البلاوى بالعدو (١١) .

عظمة عبد العزيز :

وبعد .. لا بد لنا ، قبل اختتام هذه المقدمة ، من كلمات نصف بها ، في كثير من الإيجاز ، بعض مظاهر العظمة الحقيقية — لا التعاضم — في شخصية الإمام عبد العزيز بن محمد ، مبتدئين أولاً بذكر الأسباب التي تحملنا على تسمية عبد العزيز المؤسس الثاني للدولة السعودية الاولى ؛ ثم نصف عبد العزيز — الانسان ، ثم نورد ما قال فيه أول غربي زار الدرعية في عهده ، ثم نعرض للمفاضلة بينه وبين ابنه سعود ...

(١) يجب أن نضيف إلى أسماء الدعاة والعلماء البارزين في عهد عبد العزيز اسم الشيخ عبد العزيز ابن عبد الله الحصين الناصري والشيخ حمد بن ناصر بن معمر ، وهناك آخرون وردت أسمائهم في مواضع متفرقة من هذا الكتاب وربما أفردنا لذكر علماء الحنابلة في ذلك العصر كتاباً خاصاً .

— ١ —

المؤسس الثاني للدولة السعودية الاولى

ورث عبد العزيز عن أبيه 'ملكاً صغيراً قاصراً على عدد قليل من القرى ، أكثرها في العارض ، ولكن الله سبحانه بارك هذا الملك الصغير ونصر راياته ، فلم تمضِ سنوات معدودات حتى ضمَّ عبد العزيز الى سلطانه بلاد نجد والأحساء وجبل شمر وتهامة وسراة عنسير ومرقفعات الحجاز ، وبسط حمايته على القواسم وعمسان وزبارة والبحرين ، كما تفتحت له أبواب الحرمين وُجِبت له الزكاة من بوادي العراق والشام .

وهكذا تضاعف ملكه ألف مرة ، حجماً وقوة وثراء .. وكبرت قرية الدرعية ، قاعدة إمارته ، حتى أصبحت أعظم مدينة في جزيرة العرب .. ولعل أول ما يتذكره أحدنا ، وهو يقارن بين ضعف الدرعية قبل الدعوة وبين قوتها بعد الدعوة ، تلك الكلمات الملهمة التي قالها الشيخ محمد بن عبد الوهاب لمحمد بن سعود في أول لقاء كان بينهما ، فقد وعد ، متى أخلص التوحيد والتزم بأحكام الشرع ، أن يملك هو وأبنائه جزيرة العرب ، ويشاء الله سبحانه أن يتحقق بعض هذا الوعد في عهد محمد ، ثم يتكامل في ولاية عبد العزيز !

كان أمر عبد العزيز ، منذ تولى الحكم ، في ازدياد ، حتى امتدّ ملكه من الخليج العربي إلى البحر الأحمر ، واجتمعت له إلى سعة الرقعة : كثرة العدد وقوة الجيوش وتوافر الأموال والأرزاق ، مع شيوع الأمن وعظم الهيبة !

من هنا.. قال بعض المؤرخين : ان عبد العزيز هو مؤسس الدولة السعودية الاولى ، لأن الفتوحات العظيمة تمت في زمانه ، فأصبحت بلاده « دولة » بعد أن كانت « مشيخة » أو إمارة صغيرة مغمورة !

ولكننا لا نشارك القائلين بهذا الرأي رأيهم ، وإنما نقول بما قالته الكثرة من المؤلفين والمؤرخين وهو : أن محمد بن سعود مضى بشرف تأسيس الدولة السعودية الاولى ، وأن ابنه عبد العزيز إنما أكمل عمله وحقق أمله ، ولكل منهما نصيبه من الفخر وبقاء الذكر .

فإذا قيل لنا : إن معنى الدولة مرتبط بشيء من معاني السعة في الأرض والكثرة في السكان — ولم يكن ذلك متوافراً للدرعية في زمان محمد بن سعود — أجبنا أن كل دولة تكون في أول أمرها صغيرة ثم تكبر ، وما كان التأسيس على كل حال ليعني استكمال البناء .. وإنما هو وضع الأساس ، ومحمد بن سعود هو واضع الأساس .

فإن كان مُلك محمد بن سعود صغيراً في حجمه ، فقد كان كبيراً بزخمه ، موعوداً بالنصر !

وبعد .. إن من حق عبد العزيز علينا أن ندعوه : المؤسس الثاني للدولة السعودية الاولى ، لأنه شارك في بنائها وتركيز دعائها ، فقد آزر أباه في كهولته ، وناب عنه في شيخوخته ، ولما توفي أبوه واستقل بالسلطان ، حمل الراية بقوة وإيمان ، وأخضع البلدان بالحرب والسياسة ، وأقام على الشرع قواعد الحكم

والرئاسة ، وأضاف إلى تركة أبيه المباركة شيئاً كثيراً ، فخرجت البلاد في عهده من نأناة الدولة الصغيرة إلى مجبوحة الدولة الكبيرة .



إن العمل الذي قام به محمد بن سعود وابنه عبد العزيز ، بعد مبايعتهما للشيخ ، كان عملاً جليلاً من الناحيتين الدينية والوطنية ، لأنه أحلّ الدين محلّ الخرافة والجهل ، والوطن محلّ الإقليمية والقبلية . ولكن أبعاد هذا العمل العظيم تبدو لنا بوضوح وقوة متى وضعناه في « إطاره » العالمي ، فقد حقق محمد وعبد العزيز ، من وراء توحيد الشطر الأكبر من جزيرة العرب تحت لواء واحد ، حدثاً عظيماً لفت إليه أنظار العالم : وهو ظهور دولة عربية حرة قوية ، بعد فترة طويلة من غياب العرب عن مسرح السياسة الدولية .

ذلك أن سلاطين آل عثمان كانوا استولوا على بلاد العرب وانتزعوا الخلافة منهم ، ودُعي لهم وخطب بأسمائهم على المنابر العربية ، فبدأ للعالم أن السلاطين العثمانيين هم سادة البلاد العربية وأولياء أمرها ، وأن شخصية العرب قد ضاعت وصفحتهم انطوت ، وأنهم مرحلة تاريخية مضت ولن تعود !..

فلما أشرقت شمس الدولة العربية ، الصاعدة من أفق نجد ، متحدية سلاطين العثمانيين ومنكرة عليهم سلوكهم وحتى إمامتهم للمسلمين ، اعتبر ذلك الحدث العظيم إيذاناً بنهضة عربية تصل ما انقطع من التاريخ العربي ، بل اعتبر فاتحة عصر جديد ، لا في تاريخ نجد وحدها ، ولا في تاريخ الجزيرة العربية وحدها ، وإنما اعتبر ، لخطورة آثاره القريبة والبعيدة ، بدء عهد جديد في تاريخ العرب والاسلام .

— ٢ —

عبد العزيز ... الانسان

لم يكن عبد العزيز عظيماً بشجاعته وفتوحاته فحسب ، وإنما كان عظيماً ، قبل كل شيء ، بهذا الجانب من شخصيته : خلقه الكريم ، يبدو لنا من خلال محبته للعلماء ورعايته لطلبة العلم ، وعطفه على الفقراء ، ومناصرته للضعفاء ، وكرهه للظالمين ، ووقوفه عند الحدود ، وتورعه عن المحارم ، وتواضعه ، وبساطته ، وزهده !

ذكر ابن غنام في مواضع متفرقة من تاريخه أنه كان « من حسن سيرة عبد العزيز وفطنته ، وبديع هديه وسنته ، أنه كان يدعو الى الله تعالى بالتي هي أحسن » ، وأن جماعة من رجاله أسروا محمد بن ديماس وأتوا به اليه في الدرعية ليقتله ، فلم يفعل ، مع ما صدر من قبيح فعله ، فقد كان وقافاً عند الحدود يدرؤها بالشبه ! وغزا ركب لأهل بريدة (ظهرة مع « النفثي ») وأخذوا أموالهم ، فلم تبين لعبد العزيز أن فيها أموالاً لأهل المدينة ، أمر بأدائها الى أصحابها تامة من غير نقص ، لأنها كانت أوقافاً وأحباساً ، فلم يرد أخذها ! .

وما أعظم موقف عبد العزيز الحاكم — الانسان ، حين حملوا اليه عشرين كيساً كبيراً من الدنانير وطرحوها أمامه على الأرض ، فنخسها بسيفه ، وقال هذه الكلمة الرائعة :

« اللهم سلطني عليها ،

ولا تسلطها عليّ ! »

ثم أمر بتفريقها في حوائج الناس !..

كان عبد العزيز ، مع إهماله حظ نفسه من الدنيا ، كبير الحرص على سعادة شعبه ، يتعهدهم بالسهر الدائم ، ويكافح عنهم ، ما استطاع ، الجوع والمرض والخوف والجهل والفساد .

قال ابن بشر ، يصف عبد العزيز :

(كان لا يكثر في لباسه ولا سلاحه ، بحيث أن بني وبني بنيه محلاة سيوفهم بالذهب والفضة ، ولم يكن في سيفه شيء من ذلك إلا قليل .

وكان كثير الرأفة والرحمة بالرعية ، وخصوصاً أهل البلدان ، بإعطائهم الأموال وبث الصدقة لفقرائهم والدعاء لهم والتفحص عن أحوالهم .

وكان كثير العطاء والصدقات للرعية من الوفود والأمراء والقضاة وأهل العلم وطلبته ومعلمة القرآن والمؤذنين وأئمة المساجد .

وكان الصبيان من أهل الدرعية ، إذا خرجوا من عند المعلم ، يصعدون إليه بألواحهم ، ويعرضون عليه خطوطهم ، فمن تحاسن خطه منهم أعطاه عطاء جزيل ، وأعطى الباقيين دونه .

وكان إذا مات الرجل من جميع نواحي نجد يأتي أولاده الى عبد العزيز يستخلفونه ، فيعطيه عطاء جزيل وربما كتب لهم في الديوان .. وكان يسأل عن الضعفاء والأيتام في الدرعية وغيرها ويأمر بإعطائهم .

وكان كثيراً ما يكتب الى النواحي بالحث على تعليم القراءة وتعلم العلم وتعليمه ، ويجعل لهم راتباً في الديوان ، ومن كان منهم ضعيفاً يأمره أن يأتي الى الدرعية ويقوم بجميع أنوابه) .

وذكر ابن غنام أن عبد العزيز أعطى ، غير مرة ، نصيبه ونصيب رجاله من الغنائم الى المهاجرين واللاجئين الى الدرعية ، وأنه كان يأمر كل بلد ، حين يشتد الغلاء ، أن يحصوا من عندهم (من المساكين والضعاف ويقيتوهم من الطعام ما به قوام وكفاف) ، وكان هو ، من ناحيته ، يقوم في ذلك أعظم قيام ، فيفيض (من الإنعام على اولئك الأنام ، خصوصاً أهل الحاجة والأرامل والأيتام) حتى يكشف الله الغمة !

لم نأت بهذه الأمثلة والشواهد لجرد التدليل على أن عبد العزيز كان أميراً — انساناً ، وإنما أردنا أن نخلص من وراء ذلك أيضاً الى القول بأن الحاكم المسلم ، المتأدب بأدب النبوة والخلافة الراشدة ، يرتفع بمستوى الحكم في بلاده الى أسمى درجات العدالة الاجتماعية ، تلك التي يطالب بها بعض الناس في هذه الأيام ، متوهمين أن الدول الحديثة « التقدمية » هي وحدها دول « عدالة اجتماعية » ، لأنها تكافح العوز والجهل والمرض والخوف !

والحق إن تاريخنا يمشي أمامنا ، لا خلفنا ، فأجدادنا سبقونا الى تحقيق المثل العليا التي ما تزال تحمل بها اليوم شعوب كثيرة وتتقلب اليها بأشواقها !

— ٣ —

وثيقة تاريخية نادرة

« رينو » : أول غربي زار الدرعية ووصفها وتحدث عن أميرها
عبد العزيز بن محمد

لم يُعن الغربيون بتاريخ نجد إلا بعد حملة محمد علي التي انتهت بتهديم
« الدرعية » ، ولفتت أنظار العالم مرة أخرى إلى تلك البلدة المجاهدة الشهيدة
التي طلعت منها شمس النهضة العربية الحديثة .

كانت الكتب والمقالات التي تنشر في الغرب عن نجد وبلاد العرب قليلة
ومشحونة بالكذب والافتراء ، وإذا خلت أحياناً من سوء النية لم تخل قط من
الجهل والخطأ . حتى قام مؤرخون ورحالة منصفون ، أمثال بر كهارت ومانجان
وسيتزن ، بنشر بحوث عن نجد وجزيرة العرب تتسم « بالموضوعية » ، ويحتهد
أصحابها في استقصاء الحقائق من مظانها ، غير متأثرين بما يقوله الترك أو يشيعه
أعداء العرب ؛ وبفضل هؤلاء الرحالة المنصفين عرف المثقفون في أوروبا من أمور
الجزيرة العربية وتاريخها وجغرافيتها وسياستها واقتصادها أكثر مما يعرف المثقفون
العرب الذين كانوا يعيشون في ظل الحكم التركي !

— ٢٣ —

يقال ، في الأمثال : « أهل مكة أدري بشعائها » ! ولسنا ننكر أن ما كتبته ابن غنام وابن بشر ، النجديان ، عن تاريخ نجد ، شيء عظيم يعجز عنه المؤرخون الغربيون ، حين يحاولون الكتابة عن نجد .. ولكن المؤرخ الغربي العالم المنصف قد يفطن أحياناً لأمر غابت عن فكر مؤرخي نجد .. وقد يكشف لنا عن آفاق مجهولة ..

نضرب مثلاً لذلك ما نسميه : « الصلات الدولية » ، فإن مؤرخي نجد لا يشيرون قط إلى أي اتصال بين حكام الدرعية وبين رجال الغرب .. والفضل للرحالة الغربيين في الكشف عن هذه الصلات !

لقد ذكر لنا المستشرقون أن سعود الكبير استقبل في الدرعية سياسياً أوروبياً أوفده إليه نابوليون بوناپرت ، إمبراطور فرنسا ، للتعاون معه على حرب الانكليز في الهند !

وكان يظن أن سعود الكبير كان أول حاكم سعودي يستقبل أوروبياً ، ولكن المستشرق « سيتزن » Seetzen نشر عام ١٨٠٥ م . بحثاً في مجلة Montaliche correspondentz — المراسلة الشهرية — التي كان يصدرها البارون فون زاك Von Sack باللغة الألمانية ، أثبت فيه أن الأمير عبد العزيز بن محمد سبق ابنه سعود إلى الاجتماع بسياسي غربي في الدرعية ، وهذا السياسي الغربي هو الضابط البحري البريطاني : « رينو » .

ويقول « رينتس » في دائرة المعارف الإسلامية : إن رينو هولاندي الأصل يتكلم اللغة العربية ، وقد أرسله « صموئيل مانيسكي » مندوب الشركة البريطانية للهند الشرقية في البصرة ، إلى الدرعية ، لمفاوضة عبد العزيز ...

لا نعرف تفاصيل رحلة رينو إلى الدرعية ، ولعل رينو أودع جانباً منها في تقاريره إلى حكومة الهند أو وزارة المستعمرات .. ولكننا ما كنا لنعرف شيئاً

عن هذه الرحلة لولا « الصدفه » التي جمعت بين رينو وبين سيتزن في مدينة حلب ، فقد قصّ رينو على سيتزن شيئاً من أخبار « مغامرته » .. فنشرها سيتزن في مجلة « المراسلة الشهرية » .

كان ذلك منذ مائة وسبعين سنة تقريباً .. ثم شاء القدر أن تقع أعداد من تلك المجلة العتيقة في يد أحد المستشرقين ، فيشير إلى اجتماع رينو بعبد العزيز إشارة خاطفة في دائرة المعارف الإسلامية ، ولما وقفنا نحن على ذلك بحثنا ، في بعض أسفارنا إلى البلدان الغربية ، عن أعداد المجلة المذكورة فوجدناها بعد عناء وصورنا مقال سيتزن ، ولعل كتابنا أول كتاب عربي تظهر فيه صورة « زنكوغرافية » كاملة لحديث رينو ، كما ورد في مقال سيتزن .

وفي اعتقادنا أن قيمة هذا الحديث التاريخية كبيرة جداً ، لأنه حمل إلى الغربيين الذين كانوا يجهلون كل شيء عن نجد ، نبأ عظيماً : هو أن في نجد أميراً متواضعاً ، يعيش عيشة بساطة وتقفش ، ولكنه يملك جيشاً من مائتي ألف مقاتل ، ويسيطر على بلاد واسعة تمتد من الخليج إلى البحر الأحمر ومن عمان إلى الشام ، ولو قيس به كثير من ملوك الغرب لكان مثلهم كمثل الأقزام أمام العملاق !

حديث رينو عن الدرعية وأميرها :

وهذه ترجمة حديث رينو عن الدرعية وأميرها ، كما سجله سيتزن في رسالته الى المجلة ، سنة ١٨٠٥ م .

قال رينو :

(الدرعية مدينة صغيرة ، ولكنها جميلة رائعة ، مبنية على الطراز العربي ، والسكنى فيها صحية جداً .

وتحيط بالمدينة تلال خضر زمردية من كثرة الزرع .

XXII. Dr. Seetzen's Reise-Nachrichten. 241

Sand, der Vater des jetzigen. *Sand al Whahabee* war der erste, der die neue Religion stiftete, und *Abdil Aziz* schmückte sie nur noch mehr aus. *Abdil Aziz* war ungefähr 60 Jahr alt; ein schlanker hagerer Mann, und für einen wilden Araber sehr gebildet. Seine Familie belief sich nach den mir darüber mitgetheilten Nachrichten auf 80 Seelen. Er hatte keinen Hofstaat, und doch gingen alle Geschäfte durch seine Hände. Ein einziger Schreiber, Namens *Mula*, *) war sein Gehülfe. Seine Truppen bestanden damals aus 100,000 Mann, allein da jetzt die *Hofiry*, *Aneve*, *Ibn Kalid*, und noch andere Arabische Stämme unter seiner Botmäßigkeit sind, so glaube ich mich nicht zu irren, wenn ich die Zahl seiner Truppen oder vielmehr seiner Unterthanen, die auf jeden Befehl die Waffen ergreifen müssen, auf 200,000 bestimme.

In *Drahä* gibt es weder Juden noch irgend eine andere Nation als *Whahabee*. Ich hielt mich ungefähr eine Woche zu *Drahä* auf, und kehrte dann nach einem sehr kurzen Aufenthalt zu *Katif*, nach *Graïn* zurück.

*) *Mula* oder *Molla* ist der gewöhnliche Arabische Name aller studirenden Personen.

XXIII.

بقية حديث رينو المنشور في الصفحة المقابلة

240 *Monatl. Corresp.* 1805. SEPTEMBER.

men, da eine Menge Einwohner, zu der Zeit, als ich mich daselbst befand, die Stadt aus Furcht vor den *Whahabee* verlassen hatten, die es auch späterhin eroberten. Früher stand *Afscha* unter der Botmäßigkeit der *Ibn-Kalid*. Die Stadt selbst ist nicht beträchtlicher denn *Katif*, und ihre ganzen Manufactur-Arbeiten bestehen ebenfalls nur in einer gröbern Art von Camleten. Oft leidet *Afscha* an trinkbarem Wasser Mangel, da kein Fluß in der Nähe ist, und die Einwohner dieses Bedürfnis bloß aus einigen Brunnern, die ein sehr sumpfiges Wasser geben, erholen müssen.

Von *Afscha* bis *Drahia* sind noch acht Tagereisen. Der ganze Weg ist eine sandige Einöde, die nur zuweilen mit Gebüsch bewachsen ist. *Drahia* ist eine kleine aber im Arabischen Style schön gebaute Stadt, deren Lage den Aufenthalt daselbst sehr gesünd macht. Um die Stadt herum liegen einige gut angebaute Hügel, und die ganze Gegend wird durch einen kleinen Fluß bewässert. Man findet hier einige Früchte, als Weintrauben, Feigen u. s. w., die aber, wie man mir sagte, von den Einwohnern sämtlich schon unreif verzehrt werden. Die in diesen Gegenden haufenden *Whahabee* sind sehr wilde, aber auch auf der andern Seite sehr gastfreundliche Menschen. Man findet hier eine ungeheure Menge Schafe, die größtentheils schwarz sind, eine sehr lange Wolle und lange Ohren haben, und ein vortreffliches Fleisch liefern. Die dasigen Pferde sind ziemlich wohlfeil und die schönsten in Arabien.

In der Zeit als ich mich zu *Drahia* aufhielt, war der Name des dasigen Scheiks *Abdil Aziz Ibn Sand*

صورة زنكوغرافية لحديث (رينو) منقولة عن
مجلة فون زالك الصادرة عام ١٨٠٥ م

وتروى المنطقة كلها من عين صغيرة .
ويجسد الانسان في الدرعية أنواعاً مختلفة من الفاكهة ، أكثرها الأعناب
والتمر ، وربما أكلوا شيئاً منها قبل نضجها .
والوهابيون الذين يقطنون هذا الاقليم قوم كرماء مضيافون ، وإن كان في
طبائعهم شيء من الجفاء .
والغنم هنا كثير ، وهو أسود الشعر ، طويله ، وآذانه كبيرة ، ولحمه أجود
أصناف اللحم .
والخيل كذلك كثيرة ، وأسعارها ليست غالية ، وعندهم من الجياد الأصيلة
العربية أحسن سلالاتها .
لا يوجد في الدرعية يهود ، بل .. لا يوجد فيها إلا مسلمون وهابيون ^(١) .
قضيت في الدرعة اسبوعاً ..
وكان أميرها يومئذ : الشيخ عبد العزيز بن محمد بن سعود ، وكان في نحو
الستين من العمر ، رشيقي القوام ، نحيلاً ، وعلى حظ كبير من الثقافة والعلم .
وقيل لي إن عدد أفراد أسرته ثمانون .
لم يكن عنده « قصر » بمعنى القصور الملكية المترفة في الغرب ، ولا ديوان ،
وكان يقوم بأعماله بنفسه ، يساعده كاتب واحد .

(١) من الغريب أن هوغارث D. G. Hogarth يقول في كتابه المشهور (The pene-
tration of Arabia) : أن سيتزن نقل عام ١٨٠٥ رسالة من رينو الذي زار الدرعية
يقول فيها إنه وجد هناك « بعض اليهود » .

وهذا خطأ فاحش تورط فيه هوغارث ، فرينو نفى وجود يهود في الدرعية .. وأكثر من
ذلك .. قال انه لا يوجد فيها إلا وهابيون !.

أما عدد جنوده فمائة ألف ، ولكنه يستطيع ، متى أراد ، أن يسوق الى
ساحة القتال ضعفي هذا العدد) .

مؤرخون رووا عن العارفين :

لم يقدر لغيري آخر — غير رينو — أن يجتمع بعبد العزيز ، ولذلك لا نملك
شهادات أو « مشاهدات » غربية أخرى عن مؤسس الدولة السعودية الثاني ..
وربما عوّضنا عن هذا النقص أن بعض المؤرخين الغربيين اتصلوا برجال من نجد
عاشوا مع عبدالعزيز وعرفوا أخلاقه وأسلوبه في الحكم ، وسألوه عن فروق لهم
طائفة من أخباره . وقد اقتبسنا في كتابنا ما استجدناه من ذلك ، وحسبنا في
هذه المقدمة ، أن نذكر شيئاً مما كتبه بركارت و كورانسيز عن عبد العزيز ،
لنعطي القاريء فكرة عن أسلوب الغربيين في الكتابة عن هذا الزعيم ، فإنهم
لا يكتفون بسرد وقائمه وخلع الألقاب عليه ، وإنما يجتهدون في تبين التغييرات
التي أحدثها في حياة قومه .

قال بركارت :

كانت نجد موزعة بين عدد كبير من الأقاليم والمدن والقرى ، وكانت هذه
المناطق مستقلة ، متعادية ، يحارب بعضها بعضاً .

وكانت شريعة الأقوى هي الشريعة المتبعة في الأرياف وضمن أسوار المدن ،
حيث يضطر الرجل الضعيف إلى التخلي عن ملكه وحقه للرجل القوي المتغلب .

وكانت الفوضى مهيمنة على مضارب البدو ، وكانت معاركهم التي لا تنتهي
وغزواتهم التي لا يقصد منها إلا السلب والنهب ، تفرق بلاد نجد في طوفان
من الدم .

هذا هو الوضع الذي واجهه عبد العزيز .

وقد استطاع عبد العزيز، بعد كفاح طويل وشاق ، أن ينشر الدعوة في نجد وأن يتسلم السلطة العليا ويمارسها على نحو ما كان يمارسها خلفاء محمد ﷺ ، وبذلك تحول من شيخ عشيرة إلى رئيس دولة !

لم يحاول عبد العزيز إخضاع مواطنيه في كل أمورهم إلى سلطته وسلبهم كل حرية ، كما يفعل الحكام المستبدون ، فقد ترك العرب ينعمون بحريتهم في عشايرهم وبلدانهم ، ولكنه حملهم على العيش بسلام ، وعلى احترام حق الملك ، والخضوع لأوامر الشرع ونواهيهِ ، وبهذه الوسيلة تيسر له الاستيلاء على الشطر الأكبر من جزيرة العرب ، لأن أسلوب حكمه كان أسلوباً حراً سمحاً ، مبنياً على أساس « جمهورية بدوية » كانت ، هو ، رئيساً لرؤسائها ، أي شيخاً لجميع شيوخ العشائر فيها ، يدير سياستهم العليا ، في الحرب والسلام ، ويلزمهم باتباع أحكام الشرع وينزل العقوبة بمن يُخل بها ، ولكنه يدع للشيوخ حرية التصرف في كل ما عدا ذلك من أمورهم !

كان العربي لا يعرف قاعدة لسلوكه إلا شهوته ورغبته ، أما الآن... فينبغي له أن يخضع لأحكام الشرع ويدفع الزكاة إلى الإمام ويشترك في الجهاد (أو الغزو) ضد الملاحدة والمشركين ، كلما دعي إلى ذلك .

ولم يعد العربي قادراً على الإحتكام إلى السيف لحل خلافاته مع الآخرين ، فقد أُقيم قضاء لفصل الخصومات ، ويجب عليه أن يعرض أمره عليهم ويُسلّم بقضائهم .

وقال كورانسيز :

(كان عبد العزيز يعيش عيشة تقشف ، مثل أكثر رعاياه ، ولعل ذلك من أعظم أسباب توفيقه . كان نزيهاً ، فلم يتخذ الدعوة وسيلة لجمع المال ، ولكنه جمع المال ليعخدم الدعوة !

كان شجاعاً ، ولكن في غير تهور .

كان رحيماً ، ولكنه كان يعاقب على الإخلال بالأمن والفوضى عقوبة شديدة) .

— ٤ —

المفاضلة بين عبد العزيز وسعود

لقبوا سعود بن عبد العزيز بسعود الكبير ، وفاضت له في البلاد العربية والأجنبية شهرة واسعة لم يظفر بمثليها أبوه ، ونحن لا ننكر على سعود بلاغته وعلمه وشجاعته وفضائله الكثيرة ، ولكننا نفضل عليه أباه عبد العزيز ، فقد كان عبد العزيز أحكم منه وأحلم ، وأبعد عن شهوات الملك ، ولم تكن فيه «حدة المزاج» التي ظهرت آثارها في بعض أعمال سعود، وربما كانت من أسباب ضياع الدولة السعودية الأولى ، بعد أن بلغت الذروة في القوة والسعة !

كان عبد العزيز شجاعاً حازماً ، ولكنه لم يكن متهوراً ولا مغامراً ، وكان يميل إلى السلم والموادعة ما وجد اليها سبيلاً ، ولذلك قال مندوب الإمام عبد الله ابن سعود محمد علي ، حين اجتمعا به في مصر : إن عبد الله لا يشبه أباه سعود (لأن في سعود شيئاً من العناد وحدة المزاج) ولكنه يشبه جده عبد العزيز في لين عريكته ، كما يشبهه في مسالته للدولة ، فقد كان عبد العزيز — كما قالوا — (مسالماً للدولة ، حتى أن يوسف باشا حين كان بالمدينة ، كان بينه وبينه غاية الصداقة ، ولم يقع بينهما منازعة ولا مخالفة في شيء ، ولم يحصل التفافم والخلاف إلا في أيام سعود) .

هذا من ناحية الحدة والاستفزاز ...

وأما من ناحية الخلافة والملك ، فقد أوضح الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن

الشيخ محمد بن عبد الوهاب الفرق بين عبد العزيز وبين ابنه سعود ، في رسالة بعث بها الى الإمام عبد الله بن فيصل ، قال فيها :

(تفهّم أن أول ما قام به جدك محمد ، وجدك عبد الله بن محمد ، وعمك عبد العزيز : أنها خلافة نبوة ، يطلبون الحق ويعملون به ويقومون ويفضون له ويرضون ويجاهدون ، وكفاهم الله أعداءهم على قوتهم ، إذا مشى العدو كسره الله قبل أن يصل ، لأنها خلافة نبوة !

وما قاموا على الناس إلا بالقرآن والعمل به ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ .

وأخذ عمك « عبد العزيز بن محمد » في الاسلام حتى جاوز الثمانين من العمر ، والاسلام في عز وظهور ، وأهله يزيدون ، وحصل لهم مضمون قوله : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، وصار أهل الأمصار يخافونهم .

وأراد الله إمارة سعود بعد أبيه ، يرحم الله الجميع ، وأراد الله أن يغيّر طريقة والده الذي قبله ، وبغاهها ملكاً ، وبدأ ينقص أمر الدين والدنيا تطفئاً .



وبعد .. إن عبد العزيز ، الذي قال فيه الجنرال فيغان إنه (كان يجمع ، في أحسن مزاج ، الشجاعة والحكمة ، وهما صفتان عظيمتان لا بد لكل فاتح كبير من التحلي بهما) كان حقاً فاتحاً عظيماً ، ولكنه كان كذلك قائداً حليماً وملكاً رحيماً وإنساناً كريماً ، وسيرته من أنبل السير وأجدرها بأن يتدارسها الناس .

ولاية عبد العزيز

كان عبد العزيز من أصحاب السابقة في نصرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولعله كان أصغر أنصاره سنًا ، فقد كان الشيخ مقيمًا في العينة ، والدعوة في نائيتها ، حين أرسل اليه عبد العزيز - ولعله كان يومئذ فقي دون العشرين - يطلب منه تفسيراً لسورة الفاتحة ... فكذب الشيخ ، لأجله ، ذلك التفسير الرائع الذي أثبتته ابن غنام في تاريخه !

ولما هاجر الشيخ الى الدرعية ، لازمه عبد العزيز ، وواظب على حضور دروسه ، وكان معزاً بزعامة ، واعياً لدعوته ، حريصاً على مرضاته ، سريعاً في تحقيق رغباته ، فأحبه الشيخ حباً كبيراً ، وكان يثني عليه في مجالسه العامة والخاصة ثناءً كثيراً .

وفي عام ١١٧٩ هـ . توفي محمد بن سعود ، أمير الدرعية ومؤسس الدولة السعودية الاولى ، وكان ابنه البكر عبد العزيز في السادسة والأربعين من العمر ، ولم يكن غريباً عن السياسة ، لأن أباه كان يشاركه في إدارة البلاد ، وربما أطلق يده فيها ، تخفيفاً عن نفسه لكبر سنه ، وتمهيداً لخلافته ؛ وقد أصاب عبد العزيز من وراء ذلك شهرة واسعة ، لما كان الناس يرون من شجاعته وسياسته وحلمه وكرمه ، وصلاحه وتقواه ، وصدقه في الجهاد لإعلاء كلمة لا إله إلا الله .

وبالجملة ، لم يكن في آل مقرن ، عند وفاة محمد بن سعود ، من يسامي عبد العزيز في قوة الشخصية وعلو الصيت والخطوة عند الشيخ ، فكان اختياره للإمارة ، بعد أبيه ، أمراً مسلماً به ، لا ينازعه فيه أحد !

هل بويح لعبد العزيز بولاية العهد ؟

أسلوب ولاية العهد في الإسلام معروف ، وهو أن يختار الإمام القوائم ولياً لعهد ، ويظهره ، ويأخذ له البيعة من الناس خلفاً له بعد وفاته .
فهل اختار محمد بن سعود ولده عبد العزيز ولياً لعهد وطلب له البيعة من الجمهور ؟

أكبر الظن أن هذه البيعة لم تقع في حياة محمد بن سعود ، ونحن لا نجد في ابن غنام أية إشارة إليها ، وأما ابن بشر فيذكر في أخبار سنة ١١٧٩ هـ . ما يأتي :

(.. وفيها توفي محمد بن سعود .. وكان ولي العهد بعده ابنه عبد العزيز فكان إمام المسلمين ..) .

ويقول « بلغرف Palgrave » : إن محمد بن سعود أوصى ، قبيل موته ، أن يكون عبد العزيز خلفاً له ، فتسميته ولياً للعهد جاءت من هناك ، وإن لم تؤخذ له البيعة في حياة أبيه !

وهذه الرواية التي نقلها بلغرف عن التجديين ، خلال زيارته للدرعية والرياض ، قد تكون تفسيراً حسناً مرضياً لقول ابن بشر .

ولعل من الخير أن نورد في هذا المعرض رأياً للمستشرق بركات فقد نفى ، بأسلوب الحكيم ، ولاية العهد عن عبد العزيز ، قال : لم يفكر الشيخ ، أول الأمر ، في تسليم زمام الزعامة والحكم إلى بيت مخصوص ، ولكنه رغب في ذلك بعد اتساع رقعة البلاد وتكاثر المنضوين تحت راية الدعوة ، فأمر الناس ، عام ١١٨٢ هـ . أن يبايعوا سعود بن عبد العزيز بولاية العهد ، نظراً منه إلى صالح المسلمين وخوفاً عليهم من التفرقة .

هل كان عبد العزيز اماماً ؟

شيء آخر في كلام ابن بشر يبدو قابلاً للجدل ، هو قوله أن عبد العزيز أصبح عند وفاة أبيه إماماً للمسلمين .

ذلك أن خصائص الإمامة - ونعني بها الإمامة الخاصة لا الإمامة الكبرى أو الخلافة - كانت موزعة بين عبد العزيز والشيخ محمد بن عبد الوهاب بل كانت زعامة الشيخ أجلى وأظهر ، حتى قال الرحالة نيبوهر في كتابه « صفة جزيرة العرب » : إن رئيس البلاد النجدية هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو الذي يجي الزكاة .

ولا نبعد .. فابن بشر نفسه يقول إن الأمر كان بيد الشيخ حتى فتح الرياض (فلما فتح الله الرياض واتسعت ناحية الإسلام وأمنت السبل وانقاد كل صعب من باد وحاضر ، جعل الشيخ الأمر بيد عبد العزيز ، وفوض أمر المسلمين وبيت المال إليه ، وانسلخ منها ، ولزم العبادة وتعليم العلم ، ولكن ما يقطع عبد العزيز أمراً دونه ولا ينفذه إلا بإذنه) .

قد يقال إن الأصل في رؤساء هذه الدعوة السلفية أن يكونوا أئمة لا ملوكاً ، وإن ألقاب الأمانة والملك والسلطنة دخيلة عليهم ، وكل هذا حق ، ولكنه إنما تقرر أو تؤكد بعد وفاة الشيخ .

ويبدو أن فريقاً من أعداء الدعوة لم يرضهم أن يتسمى رؤساؤها باسم الامامة ، لأنها في قريش ، ويجب أن يسلم بها المسلمون في كل أقطارهم ، وقد ردّ عليهم الشيخ رداً مفحماً ، وكذلك فعل الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين بعده ، فبينما أن الامامة جائزة في قطر مخصوص ، وأن السلاطين الترك هم الذين أزالوا الخلافة عن قريش وانتحلوها لأنفسهم ، والعرب أولى بها من الترك .

ومهما يكن الأمر فإن آل سعود لم يقولوا إنهم يتولون الامامة على كل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، فتسميتهم بالامامة - كما يقول عبد الله أبا بطين - هو كتسمي « كل من صار والياً في صنعاء .. إماماً » .

ويذهب العالم المذكور إلى القول بأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ما ادعى إمامة الأمة ، وإنما هو عالم دعا إلى الهدى وقاتل عليه ولم يلقب في حياته بالامام ولا عبد العزيز .. ما كان أحد في حياته منها يدعى إماماً ، وإنما حدث تسمية

من تولى « إماماً » ، بعد موتها (١١) .
 ويبدو لنا أن كلام الشيخ عبد الله يحتمل « المناقشة » .. فابن غنم ألف
 كتابه قبل وفاة عبد العزيز ، ومع ذلك لقبه بالامام ، سواء عند مبايعته عام
 ١١٧٩ هـ . أم خلال حياته وولايته ، فقال ، مثلاً ، في أخبار سنة ١٢٠٤ :
 (وفي اثناء تلك الليالي والأيام ، أمر عبد العزيز الامام ، أهل الايمان والاسلام
 أن يجردوا مواضي العزمية) الخ ..

فهل كان يعني بكلمة الامامة مجرد الزعامة (٢) ؟
 الحق .. إن قصة اللقب تتضاءل وتزول أمام الأعمال العظيمة التي أنجزها عبد
 العزيز .. فيها ، لا باللقب ، كتب له بقاء الذكر وجلس في مكان الصدارة بين
 الرجال الذين صنعوا التاريخ العربي ، بل النهضة العربية ، بعد رقاد طويل !

(١) أنظر كتاب « الدرر السلية » في الأجوبة النجدية « جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ،
 الجزء السابع ، صفحة ٢٤١ .
 (٢) وهذا نص كلام الشيخ عبد الله أبا بطين ، كما ورد في مجموعة (الدرر السلية في الأجوبة
 النجدية) :
 (وسئل الشيخ عبد الله أبا بطين : إذا قال بعض الجهال إن من شروط الإمام أن يكون
 قرشياً - ولم يقل عارضياً - يشير الى أنه قد ادعاها من ليس من أهلها ، يعني محمد بن عبد الوهاب
 رحمه الله تعالى ، ومن قام معه وبعده ، بما دعا إليه ..
 فأجاب :

إذا قال بعض الجهال ذلك ، فقل له : ولم يقل .. تركياً ..
 فإذا زال هذا الأمر عن قريش ، فلو رجع إلى الاختيار لكان العرب أولى به من الترك ،
 لأنهم أفضل من الترك ..
 وهذا الذي يعظمه الناس تركي ، لا قرشي ، وهم أخذوها بغياً عن قريش ..
 ومحمد بن عبد الوهاب ، رحمه الله ما ادعى إمامة الأمة ، وإنما هو عالم دعا إلى الهدى وقاتل
 عليه ، ولم يلقب في حياته بالإمام .
 ولا عبد العزيز بن محمد بن سعود ، ما كان أحد منهم في حياته يسمى إماماً ..
 وإنما حدث تسمية من تولى إماماً ، بعد موتها ..
 وأيضاً فالانقلاب أمرها سهل ، وكذا .. كل من صار والياً في صنعاء يسمى إماماً ، وصاحب
 مسقط يلقب كذلك .

عروب عبد العزيز

تقديم

كانت حياة عبد العزيز سلسلة موصولة من الحروب والغزوات، قادها بنفسه شاباً وكهلاً ، وعقد لواءها لابنه سعود ، لما كبر ووهن عظمه .
حارب عبد العزيز شيخ الرياض ابن دواس وشيخ الحرج ابن زامل ، وغيرهما من شيوخ البلدان النجدية ، ثم حارب رئيس نجران ، ووالي العراق ، وأمير الأحساء ، وشريف مكة ، وكثيراً غير هؤلاء من زعماء الأقاليم والعشائر ، وكان في أكثر حروبه مدافعاً لا مهاجماً ، وقد أنقذه الله غير مرة من أعدائه الأقوياء وكتب له النصر المؤزر عليهم ، ومن أعجب الأمور أن أعداءه ، في كثيرتهم ، كانوا يموتون .. إما بمرض مفاجيء ، أو بحربة يرميهم بها أحد الصعاليك المغمورين ، فتقع الفوضى في جيوشهم وتراجع وتمزق ، ويكفي الله المؤمنين القتال ...!

اسلوب البحث :

يتبع مؤرخا نجد ابن غنام وابن بشر في كتابة التاريخ اسلوب « الحوليات » ، أي أنها يقصّان أخبار المعارك والحوادث والوفيات سنةً بعد سنة وحسب ترتيبها الزمني .. وقد اخترنا ، نحن ، طريقة الوحدة الموضوعية ، أي استقصاء أخبار كل « موضوع » ، فنتكلم مثلاً عن حروب عبد العزيز مع دهام بن دواس ، حتى نأتي على آخرها ، وإن تباعدت السنوات التي وقعت فيها أحداثها .
وقد وضعنا جدولاً بأهم الأحداث التي وقعت خلال ولاية عبد العزيز مرتبة على اسلوب الحوليات ، وأثبتناه في آخر الكتاب ، ليرجع اليه من يشاء .

معارك الرياض

رأينا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن الحرب بين دهم بن دواس صاحب الرياض وبين الدرعية ، انتهت إلى سلم وصفاء عام ١١٧٧ هـ . ، وكان ثمن هذا الصلح مبلغاً كبيراً من المال حمله ابن دواس إلى محمد بن سعود .

وفي عام ١١٧٨ هـ . التمس ابن دواس تجديد الصلح ، فاستجاب له محمد بن سعود ، ولم يطلب منه شيئاً ، فتمّ تثبيت الصلح « بجائناً » — كما يقول ابن غنام — وكان ذلك إشارة إلى لون من الثقة بشرف ابن دواس وعهده !

وفي ربيع الأول من عام ١١٧٩ هـ . مرض محمد بن سعود مرض الموت ، فتحرّكت غريزة الشر والغدر في نفس ابن دواس ، فقام مع رئيس الدلم ، زيد بن زامل ، بالعدوان على « الصبيخات »^(١) في منفوحة ، وأخذوا سوانيتها ، ولكن أهل منفوحة نهضوا لقتالهم وسقط عشرة قتلى من الفريقين .

وهكذا نقض ابن دواس عهده ، وجاهر بالعداوة ، وسعّر نيران الحرب .. وسيكون ذلك سبب هلاكه وضياع ملكه إلى الأبد^(٢) !

(١) - جاء في هامش ابن بشر - طبعة وزارة المعارف - أن الصبيخات تعرف اليوم بالصبيخة ، وهي نخيل منفوحة .

(٢) انظر ابن غنام . أما ابن بشر فيذكر وفاة محمد بن سعود ثم يتكلم عن نقض دهم للصلح ثم غزوه للصبيخات ، مما يؤمّن أن ذلك كان بعد وفاة محمد بن سعود .. والحقيقة أنه حدث في حياته !

سنة ١١٧٩ هـ .

المعركة الاولى :

كان أول عمل حربي قام به عبد العزيز ، بعد وفاة أبيه وتوليته الإمارة :
النار لأهل منفوحة من دهام وجماعته ، فسار الى الرياض واستولى على بروج
« حصان » ، فخرج ابن دواس ومقاتلته من البسلدة منهزمين قارّين . . ولكن
عبد العزيز لم يطمئن الى هذا النصر السهل ، فأمر رجاله بالنزول من الأبراج
وحذّرهم مكر ابن دواس .

وكان سندر عبد العزيز في موضعه ، فابن دواس لم ينهزم ، وإنما أراد تأخير
القتال حتى تصل اليه نجدة من عشائر « سبيع » ، النازلة على مقربة من الرياض
— وكان قد تواطأ معها واستدعاها — فجاءت بعدد وعدة ، وجرى بينها وبين
مقاتلة عبد العزيز شيء من قتال ، وأدرك عبد العزيز أنه لا يستطيع قهر خصومه
وحلفائهم لكثرتهم وحسن استعدادهم ، فأثر الانسحاب والرجوع الى الدرعية^(١).

النار من سبيع :

في ذلك الوقت كان الأمير عبد الله بن محمد ، أخو عبد العزيز ، والجد الأعلى
للملك عبد العزيز ، نازلاً في « حريلا » ، مع جماعة من الفرسان ، فلما بلغه ما
فعلته سبيع ، أسرع الى فرقة من سبيع ، تدعى آل شلية ، كانوا يرعون في
« العرمة » ، وفاجأهم وهم في خيامهم ، وأخذ كل ما كان معهم من إبل وخيل
ومتاع ، وبذلك أدبهم وانتقم من عشيرتهم شيئاً من انتقام^(٢).

وقعة العدو :

في نفس هذا العام — ١١٧٩ — جرت وقعة عرفت باسم « العدو » ، وذلك

(١) انظر الهامش رقم (٢) في الصفحة السابقة .

(٢) ابن غنام وابن بشر .

أن ستين رجلاً من الموحدين عدوا على الرياض ، ولكن رجلاً خرج من الدرعية وأخبر عنهم أمير الرياض ، فاستعدّ لهم وقتل منهم ثمانية وأسر خمسة ، وهرب الآخرون إلى الدرعية .

غزوة ثالثة :

وفي تلك السنة أيضاً غزا عبد العزيز الرياض مرة ثالثة ، وقتل ستة من رجال ابن دواس ، ثم عاد إلى الدرعية .

الدفاع عن منفوحة :

وحاول ابن دواس في هذه السنة غزو منفوحة ، ولكنه لم يكذب ينزل في نخلها حتى أسرع الموحدون إلى تجدة أهالي منفوحة ، فلما علم بجيئهم تفادى القتال معهم وانسحب ...

سنة ١١٨٠ هـ .

وقعة البنية :

غزا عبد العزيز الرياض في شوال من سنة ١١٨٠ هـ . ونزل « البنية » وقاتل أهلها ، فقتل منهم أربعة وقتلوا من رجاله واحداً فقط . وكان عبد العزيز ، قبل ذلك ، قد صادف في طريق عودته من غارة قام بها على ثرمدا غزواً لابن رواس ، فقتل رجلاً منهم ^(١) .

سنة ١١٨١ هـ .

وقعتا المشيقيق والجوز :

وفي عام ١١٨١ هـ . غزا عبد العزيز الرياض أيضاً ، ونزل « المشيقيق » ،

(١) أنظر ابن غنم وابن بشر .

وقتل من أهلها ستة رجال ، وُقْتِلَ من الموحدين اثنان ^(١) .
ثم عاد مرة أخرى إلى غزو الرياض ، وجرت بينه وبين أهلها معركة دُعيت
باسم المكان الذي جرت فيه : « المجوز » ولم يكن فيها التحام ، وإنما جرى
إطلاق النار من بعيد .. وكان قتلى الموحدين فيها عشرة .. وقتلى أهل الرياض
خمسة ^(٢) .

وينفرد ابن بشر بذكر وقعة ثالثة حدثت في هذا العام ، يسميها وقعة « باب
الشميرى » ، قتل فيها من الفريقين بضعة رجال ..

قصر الغدوانة :

يقول ابن غنم ، في أخبار هذه السنة « ١١٨١ هـ . إن عبد العزيز (أقام
بقصر الغدوانة أياماً يغير على الرياض ويرجع مكانه) .
وهنا ينبغي لنا أن نقف قليلاً ، فما هو قصر الغدوانة ؟ وما هي خطورته ؟
إنه قصر (أو حصن) كان عبد العزيز قد أمر ببنائه على مقربة من الرياض
وشحنه بالمقاتلين والأسلحة والمؤن لأغراض حربية و « نفسانية » ، وقد ثبت
أن هذا الأسلوب الجديد عظيم النفع في الحرب ، فقد استطاع عبد العزيز أن
يضيّق الخناق على خصمه وأن يضعف روحه ويرصد تحركاته ويتخطف أفراد
وجاعاته ، وكان هذا القصر منطلقاً لغزوات متتابعة متلاحقة ، فما يكاد أهل
الرياض ينتفسون الصعداء من غزوة دفعوها بشق الأنفس حتى يفاجأوا بغزوة
ثانية فتألمة تنهكهم ، وتجعلهم يعيشون دائماً في هذا النوع من الحروب الذي
يسمونه بلغة العصر : حرب « الاستنزاف » .

(١) قال ابن غنم في وصف موقعة المشيقيق : (وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين إلى الرياض
فنزّل بالمشيقيق ، وأقبل فزع أهل البلد إليهم وصدقوا الحملة عليهم ، ولكن الله من على المسلمين
بالثبات ، ولم يكن لهم إلى الفرار التفات ، فقتل من أهل الرياض ستة من الأشرار ، وقتل من المسلمين
ناصر بن عبد الله ومحمد بن حسن الهلالي ، ورجع المسلمون إلى بلادهم) .
(٢) ابن غنم .

إن نجاح قصر الغدوانة جعل عبد العزيز يبني قصرأ مثله قرب السلمية، أطلق عليه اسم قصر « البدع » وكان له دور ملحوظ في الانتصار على أهل الخرج .

توقف المعارك بين الدرعية والرياض أربع سنوات :

كانت سنة (١١٨١) ، كما يقول ابن بشر : (أول القحط المعروف باسم « سوقة » ، غارت فيها الآبار وغلبت الأسعار ومات كثير من الناس جوعاً ومرضاً وجلا أكثر الناس في هذه السنة والتي تليها إلى الزبير والبصرة والكويت وغيرها ثم رجع الخصب) .

فهل كانت هذه المجاعة سبباً في توقف المعارك بين الدرعية والرياض ؟ الواقع هو أن المعارك بينهما توقفت حتى عام ١١٨٥ هـ . أي نحو أربع سنوات ، باستثناء محاولة أشار إليها ابن غنام ، في أخبار سنة ١١٨٣ بقوله : « سار عبد العزيز يريد الرياض فصادف خيلاً لابن دواس عادية على الدرعية — بعد أن أخذت إبلاً كثيرة لسبيع — فقاتلها فتراجعت منهزمة ، ولم يكمل عبد العزيز مسيره إلى الرياض » .

وأكبر الظن أن سبب انصراف عبد العزيز ، خلال هذه المدة ، عن قتال ابن دواس هو اشتغاله بأمور حربية وسياسية في مجالات أخرى من شأنها أن توفر له عناصر القوة وتكفل له التغلب الحاسم على خصمه القوي ابن دواس ، ولقد حقق الله له رجاءه ، فرأينا الوشم والقصيم وثرمداء والعودة والحائر تقبل على عبد العزيز مبايعة ومعاهدة على السمع والطاعة ، وبذلك زاد أنصار عبد العزيز وتعاضمت قوته ، وفي نفس الوقت تحسنت العلاقات بين مكة والدرعية ، فزاد ذلك الدرعية بهاءً وسمعة ، وجعل لها في عيون خصومها مزيداً من الهيبة !

سنة ١١٨٥ هـ .

استئناف القتال بين الدرعية والرياض — مقتل ولدي دهام :

في عام ١١٨٥ هـ . استؤنف القتال بين الدرعية والرياض بقوة وزخم ، وذلك

بعد أن أصبح عبد العزيز ، بما انضم إليه من بلدان نجد ، أكثر رجالاً وموارد من ابن دواس .

سار عبد العزيز إلى الرياض ونزل منها على « معكال » ، فخرج إليه أهلها يقاتلونه ، فقتل منهم ستة ورجع عنهم ، ثم بدا له أن يعيد الكرة عليهم ، قبل أن تجف دماء قتلاهم ، فسار بالموحدين إلى الرياض ، فلما وصلوا إلى « عرقة » وجدوا دهام بن دواس عادياً عليها ، فأرادوا قتاله فهرب منهم ، ولكنهم تلبعوه وقتلوا من رجاله نحو عشرين قتيلاً ، وأمسكوا بولديه دواس وسعدون ، فقتلها عبد العزيز ^(١) .

ويقول مانجان : إن فرس دواس عثرت وسقط صاحبها عنها - ووقع في قبضة الموحدين - ولكن فرسه تابعت جريها إلى الرياض ، فلما رآها سعدون عرف أن أخاه قُتل ، فركبها عائداً إلى مكان المعركة ، فأمسكوا به وأخذوه إلى عبد العزيز فقتله ، ويقال : إن عبد العزيز هو الذي قتل دواس أيضاً ، وبذلك ثار لمقتل أخويه (فيصل) و (سعود) اللذين سقطا شهيدين بأيدي رجال ابن دواس وأولاده ، عام ١١٦٠ هـ . في معركة الدرعية .

كان لمصرع دواس وسعدون في نفس أبيهما أثر هائل ، ولعله السر في تخاذله وضعفه وهربه من الحرب ، بعد ذلك !

ويصف ابن غنام حزن دهام على ولديه ، فيقول : « رجع دهام .. مرتدياً من الذل والخزي أضفى لباساً متجعراً من الهم أضفى كاساً ، فلم تعد له بعد هذه عين قريرة ، ولا حالة من المعاش سريرة ، بل كلما غفقت العيون ، أبدى من الأسف المكنون ، ما لا يعرف ولا يقاس ، لا سيما على مفارقة سعدون ودواس ،

(١) يقول ابن بشر في وصف هذه الحادثة أن عبد العزيز لما بلغ عرقة « البلدة المعروفة أسفل الدرعية » ، وافق ابن دواس عادياً عليها بخيل وجيش ، فلما رأوا جيش عبد العزيز انهزموا فحث السير في أثرهم ، فعثرت فرس دواس بن دهام ، في (صفاء الظهرة) التي بين عرقة والفوارة ، فأمسكه المسلمون ، وقتله عبد العزيز ، ثم قتل أخاه سعدون بن دهام ، وقتل معها في تلك الهزيمة نحو عشرين رجلاً » .

فنودي عليه بلسان الحال من بعيد : ذلك بما قدّمت يداك ، وإن الله ليس
بظلام للعبيد ا .

غزوات اخرى :

لم يكد عبد العزيز يرجع من غزو الرياض حتى عاد إلى غزوها مرة اخرى
بعد عشرة أيام ، وقتل من رجالها أربعة .

وفي عام ١١٨٦ هـ . غزيت الرياض مرتين : غزاها عبد العزيز مرة وابنه
سمود مرة ، وكان حصاد الغزوتين نحو عشرة قتلى من أهل الرياض والاستيلاء
على عدد من أغنام البلد (١) .

(١) يقول ابن غنام ان قصد « سمود » من غزوة الرياض كان الاستيلاء على شي من إبل دواس
وقد وصل سمود إلى الرياض بعد المجهود فكان كمينه .. فلما خرجت السوائم للرعاية أغساد
عليها المسلمون ، فالتجأت إلى البلد .. و (خرج الفرع .. فتقابل كل من الفريقين واقتتل)
وصدّتهم فرسان المسلمين ، فانهمزوا مدبرين وقد قتل منهم سبعة « ..
ويلاحظ أن ابن بشر جعل عبد العزيز أمير هذه الغزوة ، خلافاً لما قاله ابن غنام ..

فتح الرياض

في صفر من عام ١١٨٧ هـ . سار عبد العزيز الى الرياض وقاتل أهلها عدة ليال متصلة ، واستولى على كثير من بروجها ، وهدم مرقبها ، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ، فشاع الرعب والفرع بينهم ودب اليأس الى نفوسهم ، ولكن الموحدين لم يدخلوا البلدة ، لأن عددهم لم يكن كبيراً ، فاكتفوا بضربتهم القاصمة وعادوا الى الدرعية للاستجمام والاستعداد للمركة القادمة الحاسمة !

كان دهام بن دواس قد تضعض كثيراً بعد مصرع ولديه ، فلما جاءت هذه الغزوة الشديدة ، عرف أن لها ما بعدها ، وأن وراءها ما هو أشد منها ، لأن أنصار الدعوة يتكاثرون وقوتهم تتعاضد ، فلم يعد يفكر إلا بالهرب من الرياض ، بنفسه وأهله ، إلى أي مكان آخر ، يحميه من غضب عبد العزيز ، وهكذا جمع أعيان الرياض وأخبرهم بما عزم عليه ، فلاموه وحاولوا جهمهم حمله على الرجوع عن عزمه ، مؤكدين ولاءهم له ومعلنين صدقهم في السير وراءه .. ولكنه أصر على رأيه .

وفي منتصف ربيع الثاني من عام ١١٨٧ هـ . خرج عبد العزيز بجيش كثيف من رجال الدرعية وغيرهم الى الرياض ، وكان ينوي ، هذه المرة ، الاستيلاء عليها مهما يكلفه ذلك من التضحيات ، فلما وصل الى قرب (عرقة) ، جاءه

البشير بأن دهمام بن دواس هرب من الرياض الى (الدلم) ، وتبعه كثير من أهلها ، وأن الرياض الآن خالية تماماً من المقاتلين ، ولم يبقَ فيها إلا المستضعفون من الشيوخ والنساء والأطفال !..

قال ابن بشر : (... فحثَّ عبد العزيز السير اليها ، فقدِمها بعد العصر ، فإذا هي خالية من أهلها إلا القليل ، وإذا دهمام قد ألقى الله في قلبه الرعب ، فخرج منها في النهار بجرمه وعباله وأعوانه . وهذا شيء حدث عليه في يومه ذلك ، ولم يكن اعتقده ولا همٌّ به ولا خاف من أهل بلده خيانة ، بل كلهم صادقون معه ، ولا حصل عليه تضيق يُلجئُه الى ذلك ، والحرب بينه وبين المسلمين سجال ، له وعليه ، ولكن الله سبحانه جعلها آية لمن افتكر وعبرة لمن اعتبر .

قيل : إنه قام فزعاً مرعوباً وركب خيله ونجائبه وجعل عليها نساءه وعباله . فلما ظهر من قصره قال :

(يا أهل الرياض ، إن لي هنا عدة سنين أحارب ابن سعود ، والآن سئمت من الحرب ، وتركتها له . فمن أراد أن يتبعني فليفعل ، وإلا فليجلس مكانه في البلد) .

ففرَّ أهل الرياض في ساقته ، الرجال والنساء والأطفال ، لا يلوي أحد على أحد ، هربوا على وجوههم الى البرية في السهباء ، قاصدين (الخرج) ، وذلك في الصيف ، فهلك منهم خلق كثير جوعاً وعطشاً . ويقول ابن غنام : إن أربعمائة من أهل الرياض النازحين هلكوا في الطريق من شدة الحر !

ويقول ابن بشر في وصفه لهلع سكان الرياض وفزعهم : إن الرجل منهم كان يأخذ الغرب ويجعل فيه ماءً يحمله على ظهره والغرب لا يمسك ماءً ، والإبل عنده ولا يركبها ، وتركوها — أي الرياض — خاوية على عرشها والطعام واللحم في قدوره ، والسواني واقفة في المناحي ، وأبواب المنازل لم تغلق ، وفي البلد من الأموال ما لا يحصر .

فلما دخل عبد العزيز الرياض وجدها خالية من أهلها إلا قليلاً ، فساروا في
لأثرهم يقتلون ويغنمون ، ثم إن عبد العزيز جعل في البيوت ضباطاً يحفظون ما
فيها ، وحاز جميع ما في البلد من الأموال والسلاح والأمتاع وغير ذلك ، وملك
بيوتها ونخلها إلا قليلاً .
وكان قد أقام هذا الحرب نحواً من سبع وعشرين سنة .

عدد القتلى :

ذكر ابن غنم — ثم ابن بشر نقلاً عنه — أن القتلى في هذه المدة نحو أربعة
آلاف رجل ، الذين من أهل الرياض ألفان وثلاثمائة ، ومن المسلمين ألف وسبعمائة .
وعندنا أن هذه الأرقام مبالغ فيها ، فقد أحصينا عدد القتلى من رجال دهم
ابن دواس الذين ذكرهم ابن غنم في حوليات المعارك التي وقعت بين الرياض
والدرعية فلم يصل إلى أربعمائة .. وقتلى الدرعية وأنصارها دون ذلك ، ولعل
جملة من قتلوا في المعارك جوعاً وعطشاً نصف العدد الذي قدره ابن غنم
أو أقل ..

مضرب الامثال :

يقول ابن بشر إن هرب ابن دواس من الرياض صار مثلاً يضرب في نجس
وغيرها (فيقال لكل من فعل حماقة تليق نسبته اليه ، كخروج من نخل أو
بيت أو بيعها أو بيع سلعة لغير ضرورة أو خروج من بلد إلى بلد غيرها :) هذا
مثل ظهور دهم بن دواس من الرياض (.

ويقول فيليبي : (لا يزال الناس في نجد يذكرون هروب دهم بالسخرية ..
لكننا لا نملك إلا القول إنه كان رجلاً بطلاً ... حارب بجزم ... ولكنه حارب
في سبيل قضية خاسرة ، وربما كان انهيار دفاعه المفاجيء يعود لفقد ولديه أثناء
هزيمته في السنة السابقة ، فقد كان لهذا الحادث أعقق الأثر في نفس رجل
أنهكته الحروب التي خاضها طول حياته) ..

عظمة هذا النصر :

بعد فتح الرياض أول نصر عظيم وكسب جسم لعبد العزيز ، وقد تم بعد انقضاء السنة السابعة من ولايته ، وبذلك صفا لعبد العزيز ملك المعارض ، لأنه تخلص من خصمه العنيد ، الذي كان يقيم في جواره ويساعد عليه أعداءه ، ولا شك في أن هزيمة ابن دواس أدخلت كذلك الوهن والقنوط على قلوب حلفائه ، لأنهم خسروا محارباً قوياً لا رجاء لهم بعده في الوقوف أمام عبد العزيز . كانت قوة الرياض ضد عبد العزيز والآن أصبحت معه ، وهذا وحده تبدل هائل في ميزان القوى .

والحق إن سقوط الرياض كان كسقوط الثمرة الناضجة على الأرض ، من تلقاء نفسها .. ولكن نضوجها ، وبالتالي سقوطها ، لم يتم إلا بعد ربع قرن أو نحو ذلك ، فقد كان هيناً في نهايته ولكنه كان شديداً في مقدماته . دخل عبد العزيز الرياض دخولاً سليماً هائلاً ، واعتبرها « فيثا » ، فضم الكثير من دورها ونخيلها وأموالها إلى بيت مال المسلمين . ثم نادى بالأمان لأهل الرياض ، وأرسل إلى الهاربين يعدم العفو ويدعوهم إلى العودة ، فظهر كثير من المستخفين وعاد كثير من النازحين . أقام عبد العزيز في الرياض مدة ، رتب خلالها أمورها ، وولّى عليها أميراً — هو عبد الله بن مقرن بن محمد بن مقرن — واختار لها إماماً على الصلاة ، ثم غادرها إلى الدرعية .

تهنئة الشيخ ونصحه :

كان الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب أسرع الناس إلى تهنئة عبد العزيز بهذا النصر العظيم ، فأرسل إليه ، مع رسول من أهل الدرعية ، كتاباً رائعاً يقول فيه : (... أحب لك ما أحب لنفسي ، وقد أراك الله في عدوك ما لم تؤمل ، فالذي أراه لك أن تكثر من قول الحسن البصري ، كان إذا ابتدأ حديثه يقول :

« اللهم لك الحمد بما خلقتنا وهديتنا وفرجتَ عنا ،
 لك الحمد بالإسلام والقرآن ،
 ولك الحمد بالأهل والمال والمعافة ، كبتَ عدونا ، وبسطتَ رزقنا ،
 وأظهرتَ أمننا ، وأحسنَتَ معافاتنا ، ومن كل ما سألناك ربنا
 أعطيتنا ،
 فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً طيباً حتى ترضى ، ولك الحمد إذا
 رضيت » .

قصيدة ابن غنم :

وقد نظم ابن غنم قصيدة في فتح الرياض أجاد فيها ، وهذه طائفة من
 أبياتها :

كشف الحق ظلمة الإغلاس	وحا الدين جملة الارجاس
وطيور الأفراح بالفتح غنت	فوق أفنان غصنه الميَّاس
حين أمَّ الإمام بالفتح ساع	نخبر عن جلا ابن دواس
خلد الله في النعيم إماماً	أظهر الدين بعد طول ارتكاس
ساعدته عصابة الحق حق	لبسوا للحرب أقوى لباس
بدلوا للجهاد فيه نفوساً	روّضوها للموت بعد شماس

في المقامات :

أشار الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب في « مقاماته » الى
 عداوة ابن دواس الشديدة للدعوة في زمن محمد بن سعود ثم في زمن ولده
 عبد العزيز ، قال :

(... فأول من عاداهم أقرب الناس اليهم بلداً وأقواه كثرة ومالاً : بلاد
 دهام بن دواس ، وهو أول من شنَّ الغارة عليهم على غفلة وغرّة وعدم الإحتساب

منهم ، فخرجوا على فشل ، فقتل منهم رجالاً ، منهم فيصل وسعود ابنا محمد ابن سعود .

فسبحان من قوى جأش هذا الرجل على نصرة الدين ، حين قتل ابنه .
ثم سطا عليهم مرة ثانية ، فقتل كثيراً ممن سطا بهم ، فأخذ المسلمون الثأر منهم ، ثم بعد ذلك استمرت الحرب بينهم وبينه أكثر من ثلاثين سنة ، وفي تلك الثلاثين السنة أو أكثر أعانه على حربهم : أهل نجران ، وابن حميد شيخ بني خالد مراراً ، فيأتونهم بأنواع الكيد والكثرة ، فينصرهم الله عليهم .
وفي ذلك أعظم عبرة) .

أحوال الرياض :

جاء فتح الرياض في وقت شديد على أهل الدرعية ، فقد استمر القحط أكثر من سنتين ، وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب يستدين لإطعام طلابه وأنصاره والقيام بمحوائجهم ، فلما فتحت الرياض وفي ديونه كلها .
قال ابن بشر : (كان الشيخ ، رحمه الله ، لما هاجر اليه المهاجرون ، يتحمل الدين الكثير في ذمته لمؤونتهم وما يحتاجون اليه وفي حوائج الناس وجوائز الوفود اليه من البلدان والبوادي ، ذكر لي أنه حين فتح الرياض كان في ذمته أربعون ألف محمية ، فقضاها من غنائمها) .

بيعة الوشم

غزا عبد العزيز عام ١١٨٠ هـ . بلدة « ثرمداء » (١) في الوشم ، وقتل نحواً من عشرين من أهلها ، واستاق كثيراً من أغنامها ، وسقط من رجاله في هذه الغزوة حوالي عشرين رجلاً أيضاً ؛ ولكن عبد العزيز لم يعد الى غزو الوشم بعد ذلك قط ، ففي عام ١١٨١ هـ . كاتب أهل الوشم عبد العزيز وبايعوه على الإسلام والسمع والطاعة ، وكان ذلك بإجماع منهم ، في مختلف البلدان والقرى . ونستطيع القول : إن الوشم كانت أول منطقة في نجد بايعت لعبد العزيز ، وكانت لبيعتها مزيثان جليلتان :

الاولى : (الثبات) ، فلم تعقبها ردة أو نكسة ، كما حدث في مناطق أخرى ، كسدير مثلاً ، التي بايعت مع الوشم ولكنها لم تثبت على بيعتها .
الثانية : (الاجماع) ، فقد كانت البيعة عامة شاملة الإقليم كله ، لم تتخلف عنها قرية صغيرة ولا بلدة كبيرة .

(١) تسمى هذه الغزوة باسم غزوة « الصحن » ، وهو موضع خارج بلدة ثرمداء . وقد جاء في تاريخ نجد ، المحرر ، عن هذه الوقعة ما يأتي : (وفي سنة ١١٨٠ هـ . جرت وقعة الحصن .. وذلك أن المسلمين ساروا الى ثرمداء وأميرهم عبد العزيز ، فكثروا ، حتى خرجت أغنام أهل البلد الى المرعى ، فاستاقوها أمامهم . فخرج اليه من في البلد ، والتحم بينهم القتال ، فافتصر المسلمون وقتلوا من أهل البلد نحو عشرين رجلاً ، منهم : محمد بن عبيد ومحمد راشد ابنا ابراهيم بن سليمان ، وقتل من المسلمين قواز التامي وابن غدير) .
وقد قدر ابن بشر عدد قتلى المسلمين بنحو عشرين .

معارك الخرج

كان ابن دواس ، صاحب الرياض ، من أشد خصوم الدعوة ، بل عده أكثر المؤرخين « العدو الأول » ، ولكن زيد بن زامل ، صاحب الدلم ، لم يكن ليقل عنه صلابة وعناداً ودهاءً ، وقد يفوقه في كل ذلك .

كان ابن زامل رئيساً لبلدة الدلم ، وهي أكبر بلدان الخرج ، ولكن قوته لم تكن بالدلم وحدها ، فقد كانت له كلمة مسموعة في أكثر بلدان الخرج ووراء الخرج ، ومن هناك زعنامته ، وقد صنفه الشيخ عبد الرحمن بن حسن ، في مقاماته ، بين كبار أعداء الدعوة !

استمر ابن زامل في مقاومة الدعوة عشرين سنة ، تأمر عليها مع ابن دواس ومع صاحب نجران ، ومع أمير الأحساء ، وعقد المحالفات ضد الدرعية مع كثير من بلدان نجد ، ومات .. وهو يقاتل رجال الدعوة .

قبل موت محمد بن سعود :

قبيل موت محمد بن سعود عام ١١٧٩ هـ. أسرع ابن دواس إلى غزو « منفوحة » فسار ابن زامل معه معلناً بذلك عداؤه لعبد العزيز وتضامنه مع خصمه العنيد . ويبدو أن هدنة انعقدت بعد ذلك بين عبد العزيز وبين ابن زامل ، التزم بها

عبد العزيز سبع سنوات .. وما ندري إن كان سبب هذه الهدنة زواج عبد العزيز عام ١١٨٠ هـ . من بنت زامل^(١) أم له سبب آخر .
وفي عام ١١٨٧ فتح عبد العزيز الرياض ، وزادت موارده وكثر عدد أنصاره ومقاتليه ، فعزم على جمع بلدات نجد كلها تحت لواء الدعوة ، فأرسل إلى ابن زامل يدعوه إلى «الإسلام» ، وينذره ، إن لم يفعل ، بنبد العهد الذي كان بينها ، فرفض ابن زامل الدخول في الدعوة وشرع يستعد للقتال ويجمع حوله الأحزاب ويكتب إلى رئيس نجران ويغريه بالمال ويستعديه على عبد العزيز ..!

غارة سعود على الدلم :

وفي عام ١١٨٨ هـ . قام سعود بن عبد العزيز بغارته الأولى على الدلم ، بعد نبذ العهد مع صاحبها ، فوصلها ليلاً ، على حين غفلة من أهلها وعباً كميناً وهياً جماعة للغارة ، فلما خرجت أغنام البلد للرعي استاقها كلها وعاد بها إلى الدرعية فتبمه أهل الدلم يقاتلون عن أغنامهم لاستردادها ، فخرج عليهم الكين ، وقتل منهم عشرة رجال واضطروهم إلى الفرار والرجوع إلى بلادهم بعد أن سقط منهم عشرة قتلى ، وأما رجال الكين فقد قتل منهم رجالان فقط .

غارة عبد العزيز على الخرج :

وفي عام ١١٨٩ هـ . أغار عبد العزيز على الخرج ، فلما قارب قرية (الضبيعة) وكان الوقت ليلاً ، نزل وأعد الكين والغزاة ، وانتظر حتى طلع الفجر فشن غارته ، واستاق أغنام البلدة ، وقتل من أهلها اثني عشر رجلاً ، وقطع كثيراً من شجرها وجميع نخل « الشدى » ، ثم رحل عنها وسار إلى « زميقة » فحاصرها وقطع نخيلها وخرب زروعها وأذاق أهلها ألواناً من القتال .

(١) أنظر ابن غنام في أخبار سنة ١١٨٠ حيث يقول (ثم دخل عبد العزيز منفوحة وتزوج بنت زامل) .

وكان عد من استشهد من رجال عبد العزيز في الغارتين ثمانية .
ويقول ابن غنام : إن عبد العزيز لم يفرق الغنائم بين الغزاة ، وإنما استأذنهم
في إعطائها الى « آل عليان » — وهم أنصار الدعوة المؤمنون الذين اضطروا الى
الهرب من بريدة بعد استيلاء عريعر عليها — فوافقوه على ذلك ، تعويضاً لآل
عليان عن خسائرهم وتطييناً لخواطرهم !

عام ١١٨٩ هـ

مع صاحب نجران :

ضاق ابن زامل ذرعاً بغزوات الموحدين لبلدته وما حولها ، واستشعر في
نفسه وفي حلفائه العجز عن ردها ، فزَيّن له وهمه استدعاء صاحب نجران
لمؤازرته ، ألم يأت النجراني ، من قبل ، الى الدرعية ويتهددها ثم يضطرها الى
مصالحته وإرضائه بالمال ، فلماذا لا يعيد القصة نفسها ، فيصل ابن زامل من
ورائها الى إبعاد الخطر عن بلدته وتقوية زعامته وإضعاف عبد العزيز ووقف
مدّه العظيم ؟

ذلك ما كان يحلم به ابن زامل ، وشتان بين الحلم وبين الحقيقة ، فالدرعية اليوم
غير الدرعية أمس ، والنجراني لم يعد غولاً يهابه الناس ، ومهما يكن الأمر ، فقد
مضى ابن زامل الى « حويل الوداعين » صاحب الدواسر ، وإلى غيره من زعماء
الجنوب ، واتفق معهم على استدعاء النجراني . ويقول ابن غنام : إن الصفقة بين
رئيس نجران « حسن بن هبة المكرمي » ، وبين زيد بن زامل قد تمت لقاء
ثلاثين ألف زر « دينار » دفعها ابن زامل ، حين وصلت الى الدلم الرهائن الذين
أرسلهم اليه المكرمي ، ضماناً لقيامه بتعبده !

.. جاء النجراني الى نجد ، عام ١١٨٩ هـ ، فأرسل اليه أمير الأحساء الجديد
« بطين بن عريعر » ، أكثر من ستة آلاف دينار وثلاثمائة حمل بعير من القمح
والأرز والتمر ، وتبارى خصوم الدعوة في تكريمه بالأموال والهدايا الكثيرة ،
وانضم اليه ، طبعاً ، أهل الخرج والدواسر ، وكثير من بلدان الجنوب والبدو .

سار النجرائي بن معه من أهل نجران وأهل يام ، وبين انضم اليه من النجديين ، قاصداً الى حائر سبيع ، كما فعل في قدمته الاولى الى نجد .. وخلال ذلك كان عبد العزيز قد استكمل وسائل الدفاع عن بلدانه ، وأرسل ابنه سعود الى « ضرمى » ليشحنها بالرجال والمعدات ، حتى إذا مر بها النجرائي كانت شوكة في حلقه : إن أراد ابتلاعها خنقته ، وإن لفظها جرحته (١) !

معركة الحائر :

اجتهد النجرائي وحلفاؤه كثيراً في اقتحام بلدة الحائر ، فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً ، فقطعوا نخيل البلدة ليحملوا أهلها على طلب الصلح ، ولكن قطع النخيل زادهم صلابة فاستمروا في مقاومتهم الباسلة من وراء حصونهم وقتلوا من جنود النجرائي نحو أربعين رجلاً ، ولما رأى النجرائي شجاعتهم وصمودهم أدرك أنه لن ينال منهم مأرباً ، فصالحهم وانصرف عنهم ، وقصد « ضرمى » ، لاعتقاده بأن الحائر وحدها ممتنة بحصونها المتينة ، وأن ضرمى وسائر بلدان نجد أسهل منالاً .

(١) يقول فؤاد حمزة في كتابه « في بلاد عسير » : (إن المكارمة ، الذين منهم رئيس نجران حسن بن هبة ، قحطانيون ، وليسوا علويين ، كما يتوهم بعض المؤلفين ، وهم ليسوا نجرانيين ، وإنما هاجروا الى نجران من بلدهم طيبة ، التي تقع على بعد ساعات من صنعاء بجنوب ، ولم تكن للمكارمة سلطة زمنية في أول الأمر ، ولكنهم نجحوا في سياستهم وامتدت سلطاتهم الى بلدان كثيرة وأصبحوا يجمعون بين السلطة الزمنية والسلطة الرسمية ، وهم فرقة من الاسماعيلية الباطنية) .

ويعطينا ابن غنام وصفاً للنجرائي فيه كثير من المبالغة ، ويتهمه بالكفانة والتنجيم .. وما قال عنه : (كان ذلك الرئيس في الشر قرين إبليس ، وقد فتن أولئك الهمج من الناس مما يبدي لهم من حساب الرمل والتخمين والاحساس ، وافتتن أولئك البوادي وساروا له بالأموال الروائح والأغادي ، فلم يشك أحد من تلك الطوائف أن ذلك الرمال لأسرار القريب حافظ عارف ، وعلى ما يحدث من المكوثات محيط واقف ، فكانوا اذا أرادوا القتال حملوه على سريره في الجبال وقصدتهم بذلك الاستنصار .. فبات في أثناء انصرافه وشاهد سزاء سعيه وإسرافه ... وفاجأه وارد الحمام قبل وصوله بلده) .

معركة ضرمى البطولية :

أقام سعود بن عبد العزيز مدة في « ضرمى » ، يسهر على تقوية حصونها وشحنها بالرجال والسلاح والمعدات والمؤن ، فلما اطمأن الى مناعتها عاد الى الدرعية .

ولعل النجراي بلغه انصراف سعود من ضرمى ، لذلك حث خطاه اليها ، وأحاط رجاله وحلفاؤه ببروجها ، وفي اليوم التالي هجموا عليها بقوة هائلة ليقتحموها ، فثبتت لهم ثباتاً عجيباً ، ولما تغلغلوا بين أشجارها ونخيلها رماهم حاة المدينة بالبنادق رمية بارعة ، (فكانت شهب الرصاص كأنها عليهم مرسة او من فوقهم منزلة ، فخرجوا هاربين .. وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً وأوقموا بهم جراحات غزيرة .. فانهمزموا عنهم ورجعوا كلهم خائبين .. ثم بعد تمزق هذه المساكر المشهورة .. وتفرق تلك الأجناد المذعورة ، قصد كل قبيل قبيله ..) .

انسحاب النجراي :

هل خاف النجراي على جنوده من أهل ضرمى أن يفنؤهم ، فهرب طالباً النجاة ، كما قال ابن غنام ؟

أم هناك أسباب أخرى حملت النجراي على الانسحاب ؟

يقول المؤرخ الفرنسي « مانجان » : إن وطأة المرض اشتدت على النجراي خلال الحصار المضروب على ضرمى ، فقرر العودة الى بلاده ، وعاد رجاله معه ، وقد مات في الطريق ، قبل وصوله الى نجران .

أما حلفاء النجراي من النجديين فلم يحاول أحد منهم الإستمرار في القتال

بعد ذهابه ، لأنه هو كان معقد الآمال ، فأسرعوا في العودة الى بلدانهم ، قبل أن يتخطفهم رجال الدعوة !

بيعة ابن زامل :

كان لمرض النجراي^(١) وانسحابه أثر هائل في نفس ابن زامل ، فأسرَّ الى عدد من أعيان قومه برغبته في مصالحة عبد العزيز والدخول في الدعوة والمبايعة ليأمن على نفسه وقومه وبلده ، فوافق إخوانه على فكرته ، فمضى ، ومضوا معه ، الى الدرعية من غير إشعار .. ولا أخذ أمان ولا مفاوضة ولا روية ، فلم يشعر عبد العزيز إلا بقدمه ومفاجأته وهجومه مع أناس من أعيان قومه ، فبايعوا على الإسلام .

وقد طلب منهم عبد العزيز كثيراً من الخيل المطهمة والسلاح ، فأحضروا له كل ما طلب ، فأخذ بعضاً وترك لهم بعضاً تألفاً لقلوبهم .

فوار ابن زامل :

في عام ١١٩٠ هـ . ، بعد أن انضم ابن زامل الى الدعوة وبايع ، جاء اليه أحد سكان الحوطة ، وطلب منه الإحتكام الى الشرع في مشاجرة سابقة كانت بينهما ، فأبى عليه ذلك ، لفطرسه وكبرياء فيه ، فلما ألحَّ عليه في الطلب أخذته حمية الجاهلية فقتله .

ولما حمل الخبر الى عبد العزيز أمر المسلمين بغزو الدلم ، وحين عرف ابن زامل بمسير المسلمين اليه ، فرَّ من البلدة مع بعض خواصه .
.. ودخل الموحدون الدلم ، وأمر عبد العزيز عليها سليمان بن عفيصان .

(١) انظر الهامش في الصفحة ٥٦ .

فتن في الدلم واليامة :

في العام ١١٩٠ هـ. قدم رئيس بلدة اليامة حسن البجادي ، ومعه أعيان قومه على الدرعية وبايعوا على الدين الصحيح والسمع والطاعة للشيخ وعبد العزيز ، وأرسل الشيخ معهم معلماً مرشداً ، ولكنهم ما لبثوا أن نكثوا العهد بعد أيام قلائل وأخذوا يعدون الأسباب للفتك بمن عندهم من أنصار الدعوة ، فهرب المعلم الى اليامة سراً وجاء الى عبد العزيز وأخبره بحقيقة الأمر ، فأمر ابنه سعود أن يسير بجنود الموحدين الى اليامة لإخماد الفتنة قبل استفحالها ، فقصدهم سعود الى الخرج ولما وصل السلمية نزلها ووضع فيها عدداً من الرجال وأرسل مرابطة الى كل من الدلم والضبيعة ونعجان ، وكتب الى الشيخ البجادي يطلب منه إخراج الأشرار الذين يريدون الفتك بالمسلمين من البلدة فوعده الإمتثال بشرط أن يرحل (أي سعود وجيشه) عن السلمية ويرجع الى الدرعية ، فقبل سعود شرطه ورحل .

ولما اطمان البجادي الى ابتعاد سعود عن الديار ، تغلبت عليه فكرة الشر والغدر ، فخرج مع شجعان قومه الى السلمية ، ليقتل من فيها من الموحدين ... ولكنهم كانوا قد علموا بنيته واستعدوا له فدافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال ، وسقط منهم شهيدان ، واضطر البجادي وأعوانه الى التقهقر والإنسحاب مخذولين .

ولم تقف الفتنة عند هذا الحد ... فقد كان مع البجادي نفر من أهل الدلم ، الذين يناصرون ابن زامل ، فكتبوا إليه يطلبون عودته الى بلده وتولي الرئاسة عليها ، وانطلقوا هم وجماعة البجادي يبحثون عن الموحدين للفتك بهم ، واستنجدوا بآل مرة وكانوا نازلين قريباً منهم فأسرعوا في الانضمام إليهم ، وقتلوا عشرة من الموحدين أيضاً ، فاستعد لهم الموحدون ودافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال واضطروا الغزاة الى الإنسحاب .

تجمع أهل الفتنة بعد ذلك في الدلم وأقبل اليهم زيد بن زامل فرأسوه على

البلدة ، وكان أميرها لعبد العزيز — ابن عفيصان — قد هرب منها ، وتعاهدوا على المضي في حرب الموحدين حتى النهاية .

هجرة الموحدين من السلمية :

قدم سعود الى الخرج ، فنزل السلمية ، وأخرج منها المراقبة الذين كانوا فيها ، كما أخرج الموحدين الراغبين في الرحيل عنها ، فخرجوا مع أهلهم وحيوانهم وأثاثهم ، وعاد بهم سعود الى الدرعية حيث نزلوا ضيوفاً مكرمين ، وما ندرى هل فعل ذلك سعود إبقاءً عليهم ، أم لأنه كان عاجزاً يومئذ عن التغلب على أهل الفتنة في الدام ؟

معركة بخيريقي :

مها يكن الأمر ، فإن الإمام عبد العزيز سار بجنوده الى المكان الذي ينزل فيه آل مرة للانتقام منهم ، وقد أخطأه التوفيق هذه المرة لسببين : الأول : ان آل مرة فرح لهم الأعراب المجاورون . الثاني : أن جند عبد العزيز كانوا في عقبة ضيقة ، تدعى (بخيريقي الصفا) ، ولم يكن لهم فيها مجال للمعركة .

وقد قدر عدد القتلى من الموحدين بأربعين ، وقيل ستين ، ومن مشاهيرهم أمير القصيم ، عبد الله بن حسن ، ولم يحدد عبد العزيز مخرجاً إلا الانسحاب والعودة الى الدرعية لإعداد غزوة جديدة ، ولكنه ما كاد يصل الحائر حتى جهز سرية من ثمانين فارساً وأرسلها الى اليمامة ، فعقرت إبلا لأهل اليمامة ثم رجعت .

سنة ١١٩١ هـ . سار سعود بالموحدين إلى غزو الخرج ، فاستعد له أهلها والتقوا به قبل وصوله إلى بلدهم في أرض يقال لها (السهبا) ، فاشتد بينهم القتال وسقط من الفريقين قتلى ، ثم تاركا وعاد كل منهما إلى وطنه .

سنة ١١٩١ هـ - آخر سنة ١١٩١ - كما يقول ابن غنام - سارت فرسان
الموحدين للغارة على الدلم ، فلقبهم أهل الخرج قبل وصولهم ، فجرت بينهم جولة
قتال ، وقع فيها عدد يسير من القتلى .

وفي هذا العام أيضاً - كما يقول ابن بشر - (سار عبد العزيز غازياً إلى
الخرج ونازل أهل بلدة الدلم ، ودخلت العدوات الى لواحى الحلة ، وضيق على
أهلها ، وكان رئيسها زيد بن زامل غائباً عند البجادي في اليمامة ، فعين بلغه
منازلة عبد العزيز لأهل بلدة استنجد واحتفل يجيش ورجال وسار اليهم فلما
وصل اليهم واذا رجال المسلمين داخل البلد ، فجعل مسطاه على مناختهم ومن
فيها ، وكان فيها رجال عبد العزيز والثقيل من رجال القوم والركاب فأوقع بهم
فاقتتلوا قتالاً شديداً ، قتل فيه من المسلمين نحو عشرين رجلاً ، فلما أحس الذين
في البلد بالوقعة خرجوا منها ، فدخل زيد وقومه البلد ، فرحل عبد العزيز ومن
معه ، وقصد بلد نعبان وقطع فيه نخلاً ودمر زرعاً (١) .

سنة ١١٩٥ - في هذه السنة سار سعود إلى الدلم وحاصرها وقطع فيها نخلاً
وقتل رجالاً ، ثم سار إلى السلمية ، وبنى القصر الذي عرف باسم (قصر البدع)
قريباً من السلمية ، وجعل فيه مرابطة ، وسمى عليهم أميراً ابن غشيان .

ويقول ابن غنام إن الإمام عبد العزيز هو الذي أشار ببناء هذا القصر ، ليضيق
حماته على أهل الخرج ويتخطفوهم . . وقد خرج فرسان من أهل القصر يوماً
فأغاروا على جماعة من أهل اليمامة وقتلوا منهم أحد أبناء البجادي رؤساء اليمامة .
وكان رجال قصر البدع (في غالب الليالي والأيام ، يعدون على أهل الخرج
وينالون منهم المرام ، ويقعدون لهم المراسد ، يأخذون كل قادم وقاصد) ،
فلما ضاقت صدور أهل الخرج بهذا القصر وساكنيه ، قرروا التخلص منه بأي ثمن

(١) يقول ابن غنام ان هذه الحادثة وقعت سنة ١١٩٢ .

فنصح لهم أحدهم أن يصنعوا صندوقاً مصفحاً بالرصاص وفي داخله الرجال ويحملوه على عجل ويدفعوه إلى أصل سور البدع ، ثم يفتح ويخرج منه الرجال وينقضون حجارة السور .. ولما فرغوا من بناء الصندوق ووضعوه على عجل اندفع في الطريق ولكنه توقف في منتصفها .. واضطروا أخيراً إلى إحراقه حتى لا يقع غنيمة في أيدي أصحاب القصر .. ثم سار أهل الحريق والحوطة وأهل الخرج حين أقبل الليل نحو القصر وتعاهدوا على الصعود إليه مهما يكلف الأمر ، فقتل منهم خمسة وعشرون وعجزوا وتراجعوا ..

ولجأوا بعد ذلك إلى سعدون بن عريعر ، فأقبل اليهم يحنوده ومدافعه ، وانضم إليه جميع أهل الحريق واليامة والحوطة والخرج ، وأخذ سعدون يرمي القصر بالمدافع ، فلا تعمل فيه شيئاً ، فقرر العودة إلى وطنه ، ولما وصل إلى اليامة وجد أن المدافع التي معه تثقل سيره فتخفف منها .. وتركها في اليامة ، فجاء المسلمون وأخذوها غنيمة هينة ^(١) .

سنة ١١٩٧ هـ

مقتل زيد بن زامل :

أغار زيد بن زامل على سبيع ، وكانوا نازلين قرب الرياض ، واستاق شيئاً من إبلهم وانصرف عائداً إلى بلده ، فبلغ ذلك سليمان بن عفيصان ، وليس معه إلا ثلاثون مطية ، وكان مع ابن زامل ثلاثمائة راكب ، فلما تلاقى الجمعان حدثت بينهما (مناوشة رمي بالبنادق فثارت رمية من عند قوم ابن عفيصان ، فقدرها الله سبحانه في زيد فكانت حتفه ، فسقط من كور مطيته ميتاً .. فأوقع الله الفشل في قومه بعد قتله ، فقتل منهم ابن عفيصان وجبايته نحو عشرة رجال ، وأخذوا ركايبهم ، واستنقذوا إبل سبيع) ^(٢) .

(١) و (٢) ابن بشر .

سنة ١١٩٨ - تولى براك بن زيد بن زامل إمارة الحرج بعد موت أبيه ، فجربَ حظه في المعارك بغزوة قام بها مع أهل اليمامة على أهل منفوحة ، فقتل من جماعته نحو خمسة عشر رجلاً وارتدوا عن منفوحة وانسحبوا .

وفي هذه السنة بعد عودة سعود من غزوته للعيون اقتضى رأيهُ (أن يغير على أهل اليمامة ، فوجدهم قد خرج جميعهم إلى النزهة والتفرج في البرية فأغار المسلمون عليهم فولوا منهزمين ، فقتل منهم في تلك الهزيمة أكثر من ثمانين رجلاً) (١) .

سنة ١١٩٩ - أغار سعود على قافلة حافلة لأهل الحرج والفرع وغيرهم قادمة من الأحساء ، وكان عدد رجالها ثلاثمائة ، فلما وصلوا إلى ماء قرب الحرج ، هاجمهم سعود وقتل منهم كثيراً ، وأخذ كل ما كان معهم من أموال وأمتعة وأقشعة وإبل (٢) .

وفي هذه السنة قتل براك بن زيد بن زامل ، ولجأ قاتلوه ، وهم أبناء عمه ، إلى الدرعية ، وعرضوا طاعتهم ، ولكنهم ما لبثوا أن هربوا إلى الأحساء (٣) .
وفي آخر السنة سار سعود بجيوشه قاصداً الدلم ، فلما وصلها استولى على نخيلها وما فيه من حلال ، ثم محاصر البلدة فلجأ كثير من أهلها إلى قلعتها ، فأمر أن يبنى قصر للمسلمين بين النخل وتلك الحلال ، ولما فرغ من بنائه ، خرج مقاتلة الدلم من قلعتهم وحملوا على رجال سعود حملة واحدة ، فقاتلهم المسلمون ببسالة وقتلوا منهم أكثر من عشرين قتيلاً ، بينهم تركي بن زيد ، الذي خلف أخاه في إمارة الدلم ، وعاد المنهزمون إلى القلعة ، وانتدبوا واحداً منهم ليأخذ لهم الأمان من سعود ، فأعطاهم سعود الأمان ، ودفعوا إليه نقداً ثمن ما في بيوتهم ودورهم من الحيوانات والأمتعة والسلاح والطعام .. وجعل نخيلها في بيت المسال فيئاً ،

(١) و (٢) و (٣) ملخصة عن ابن خثام .

وأجلى عن البلاد كل الذين جدّوا في الفتنة واجتهدوا ، وبأيع سائر الأهالي ،
وسمى سعود عليهم أميراً : سليمان بن عفيصان ^(١) .

يدخلون في دين الله أفواجا :

بعد استسلام الدمام وطاعتها ، أقبل أهل الحوطة وأهل اليمامة والسامية وكافة
أهل الخرج على سعود وبأيعوا ، واشترط عليهم في النكال ما شاء من النقود
فأحضرها اليه ^(٢) .

بعد كل هذه الفتن ، عاشت الخرج في سلام وولاء ، باستثناء محاولة قام بها
آل مجادي في اليمامة سنة ١٢٠١ هـ . فقد أظهروا العداء للدعوة ، ثم تظاهروا
بالتوبة لما افتضح أمرهم ، فطلب منهم سعود الذهاب الى الدرعية لمقابلة الشيخ
وعبد العزيز ، فساروا الى الدرعية .. ولكنهم في منتصف طريقهم اليها هربوا
الى الأحساء ، فأمر عبد العزيز بهدم محلّتهم في اليمامة ، وجعل الرويس أميراً على
البلدة ، وبني فيها حصناً ^(٣) .

(١) و (٢) و (٣) ملخصة عن ابن غنام .

بلاد القصيم

في عام ١١٨٢ هـ. وقف عبدالعزيز حملاته على الرياض، وبدأ يفكر في الاستيلاء على القصيم ليزداد بها قوة ومنعة ، قبل استئنافه القتال مع خصميه العنيدين ابن دواس وابن زامل وغيرهما من أعداء الدعوة ..

غزو عنيزة :

يقول ابن بشر ان حمود الدريبي ، رئيس بلدة بريدة ، طلب عام ١١٨٢ من عبد العزيز أن يبعث جيوشه إلى القصيم لنصرة رجال الدعوة، فأرسل اليهم ابنه سعود بجموع المسلمين فنزلوا باب شارخ من عنيزة ، ونشب القتال بينهم وبين أهل البلد ، فقتل من أهل عنيزة ثمانية رجال ، وقتل من الغزو رجال .

وقدّر ابن غنام غزو المسلمين بمائة راكب فقط، وقال إنهم أظهروا في القتال من الشجاعة والإقدام ما بهر العقول ، وسقط منهم ثلاثة شهداء ، وقتلوا عشرة من خصومهم ، ثم عادوا إلى بلادهم .

وهكذا كانت عنيزة أول بلدة في القصيم غزاها جيش عبد العزيز ، ولكنها كانت كذلك آخر بلدة في القصيم استسلمت إليه !

معركة الهلالية وبيعة القصيم :

في عام ١١٨٣ هـ . سار عبد العزيز إلى حريملا ، وأقام فيها مدة وبعث إلى

بلدان الموحدين أن يخرجوا له (دولا) — أي مقاتلة — فأخرج أهل سدير والمحمل كثيراً من المقاتلين فسار بهم وبين معه إلى الجمعة فأغار عليها وقتل عدداً من أهلها منهم أخو رئيس الجمعة، ثم صرف رجال سدير والمحمل إلى بلدانهم وسار يمشي إلى «الهلالية»، فوصلها ليلاً، فأعدّ غزاته وهياً كمينه، ثم أغار على البلدة صباحاً، فنهض أهلها لمقاومته ولكنهم عجزوا عن ذلك، فاستولى الموحدون على البلدة وأخذوا أموالها وقتلوا عدداً من رجالها، ثم نودي فيها بالأمان، وأقام فيها عبد العزيز أياماً، ليرى أثر المعركة في نفوس سكان القصيم، قال ابن غنم:

(فذلّ أهل القصيم كافة، وغشيتهم أمر عظيم من الخافة، فرغبوا في الدخول في الإسلام، والإنقياد لمنير تلك الأحكام، وأقبلوا على عبد العزيز في تلك الأيام، فأخذ عليهم عقد الإبرام، ووضع عندهم معلمين للتوحيد والشرع والأحكام، وعاد عبد العزيز إلى الدرعية، ليقيم فيها الغنيمة بالسوية).

غزو عريعر للقصيم .. وموته فجأة :

لم يكد عبد العزيز يفرغ من فتح الرياض ويأخذ قسطاً من الراحة حتى فوجيء بزحف خطير يهدد أمن بلاده وسلامتها، وهو زحف عريعر بن دجين، صاحب الأحساء، إلى القصيم في عام ١١٨٨ هـ.

وصل عريعر إلى بريدة، وكانت هدفه الأول، فقد كان ناقماً عليها لانضوائها تحت راية الدعوة، بعد أن كانت خاضعة لنفوذ أمراء الأحساء.

جاءت مع عريعر جموع كبيرة من بني خالد وعنزة، ولكنه لم يشأ أن يبدأ بريدة القتال، وإنما أحب أن يأخذها بالكر والحيلة، فنزل عند أسوارها وأرسل إلى أميرها عبدالله بن حسن يطلب منه الخروج إليه للمفاوضة، فلما خرج إليه غدر به وأسرّه، ودخل البلدة على حين غفلة من أهلها وانتشرت بواديّه بين دورها يحطمون أبوابها وينهبونها، ثم سلّمها إلى أميرها السابق راشد الدريبي،

الذي كان سعود قد عزله ، وبذلك اضطر الموحدون من أهل بريدة الى الهرب منها والجلاء عنها ، وفي مقدمتهم آل عليّان ، فكاتبهم عبد العزيز واستقدمهم الى الدرعية وأسكنهم فيها مكرّمين معزّزين (١) .

يحاربون مع .. ابليس !

خرج عريعر من بريدة يجموعه الوفيرة ونزل أرض الخابية ، على مقربة من النبقية ، وأقام فيها قرابة شهر ، فكاتبه رجال من نجد وطلبوا منه المسير الى بلدانهم ووعدوه النصرة .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن :

(ولما قيل لرجل منهم — أي من أهل نجد الذين ساعدوا عريعر — وهو من أمثل علمائهم وعقلائهم : كيف أشكل عليكم أمر عريعر وفساده وظلمه ، وأنتم تعينونه وتقاتلون معه ؟

قال : لو أن الذي حاربكم إبليس ، لكننا معه) .

موت عريعر فجأة :

يقول ابن بشر : إن وطأة عريعر اشتدت وخافه الناس (واستعد للمسير الى الدرعية وغيرها من البلدان ، فعاجله أمر الله سبحانه في موضعه ذلك في الخابية المذكورة ومات) .

ويقول مانحان : إن عريعر خرج من خيمته يوماً الى البر يتصيد بالصقور ، فرأى أرنباً من بعيد فأصابه ، ولكن أحد رجاله أخذه لنفسه ، فأحضره عريعر اليه وقال له : لماذا أخذته ؟

قال : لأحضره اليك !

قال : أنت كاذب !

واستلّ عريعر سيفه وانهاه على الرجل طعناً وضرباً بالسيف حتى قتله .

(١) انظر ابن غنّام ومانحان وتاريخ الأحساء .

ولكنه مرض من الجهد الذي بذله في قتل الرجل ومات ، فكان ضحية
قسوته وظلمه ا

وهكذا كان موت عريعر نجاةً لنجد من كيده وغدره ، وخيبةً لآمال
الأحزاب التي تعلقت به ، فقد اضطرت جيوشه الى التراجع والعودة الى الأحساء
لا تلوي على شيء^(١) .

استسلام بريدة :

في عام ١١٨٩ هـ . أمر عبد العزيز ابنه سعود بالسير الى بريدة ، فوصلها ليلاً
وباغت أهلها بغارة شديدة ، فتحصنوا في منازلهم ، ولم يستطع سعود اقتحام
البلدة مع طول حصاره لها ، فأمر ببناء حصن قريباً منها ، ووضع فيه مرابطة
من رجاله وأمر عليهم عبد الله بن حسن ، وعاد الى الدرعية .

وقد فعل هذا الحصن فعله .. لأن رجاله كانوا يغيرون كل يوم على بريدة
وينشرون الخوف والرعب بين أهلها ولا يدعون أحداً منهم يخرج لرعي سائمة ..
وهكذا اضطّر أمير بريدة الى الاستسلام ، فأرسل الى عبد الله بن حسن يعرض
عليه الخروج من البلدة بشرط أن يعطيه الأمان على نفسه ، ففعل ودخل عبد الله
بلدة بريدة واستولى على كل ما فيها من أموال ، وقتل خمسين من رجال راشد
الدربي أمير بريدة المنهزم وعاد هو الى إمارة البلد .

مبايعة القصيم :

أظهر أهل القصيم ، بعد استسلام بريدة ، رغبتهم في السلام والولاء ، فجاء
وجوه أهل القصيم إلى عبد الله بن حسن وذهبوا معه إلى الدرعية وهناك بايعوا

(١) خلف عريعر في إمارة بني خالد والأحساء ابنه (بطين) ، وكان له أخوان يتناقسانه ،
وهما : سعدون ودجين ، فحاول بطين استمالة الجنود والعامّة اليه بأموال وزعها عليهم ، ولكن
أخويه قتلاه خنقاً وخلفه دجين ، ولكنه مات بعد قليل ، وقيل : سمه سعدون وجلس مكانه .
(ابن بشر)

لعبد العزيز على الاسلام والسمع والطاعة ، فأقر عبد العزيز كل أمير في مكانه وجعل أميراً عليهم كلهم عبد الله بن حسن .

ثورة ... ومكاتبة سعدون :

استقرت الامور وساد السلام في القصيم سبع سنوات تقريباً، وفي عام ١١٩٦ تواطأت بلدان القصيم — باستثناء بريدة والرس والتنومة — على التمرد ، وكتب زعمائها إلى سعدون بن عريعر أنهم مصممون على قتل رجال الدعوة الموجودين في بلدانهم ، وطلبوا منه الاسراع الى نجدتهم ، ففعل ..

بدأ أهل القصيم تنفيذ خطتهم من اللحظة التي اقترب فيها سعدون من ديارهم ، فقام أهل الخبر بقتل منصور وثنيان أبا الخيل ، وأرسل أهل عنيزة فقيهين من فقهاء الدعوة كانا يعملان الدين عندهم إلى سعدون فقتلها ، وفعلت بقية البلدان المتمردة مثل ذلك .

بطولة بريدة :

جاء سعدون يجموعه من بني خالد والظفير وبوادي عنزة الى القصيم ، ونزلوا عند بريدة وحاصروها ، وكانوا يظنون أنها ستقع في أيديهم بسهولة ويسر ، ولكن أهلها قاوموا الغزاة ببسالة وبطولة ، واستطاعوا إفناء الطليعة التي أرسلها سعدون لدخول البلدة .

قال ابن غنم : (... فاستشاط سعدون لذلك غضباً ، فحشد جموعه وهجم على البلدة ، فقتل من جماعته في أول يوم من أيام الهجوم أناس ، فحاول في اليوم التالي تسوُّر جدار البلدة فقتل جميع الذين صعدوا على السور وبقوا زمناً لا ينقلون ولا يدفنون من شدة القتال ، ثم نصب آلاته ومدافعه لهدم السور وبروج البلدة فلم يستطع أن ينال من ذلك شيئاً ، وكان في أثناء ذلك قد بنى قصراً وضع فيه عدة رجال من ذوي البأس ، فخرج المسلمون الى ذلك القصر ليلاً فهدموه وقتلوا من كان فيه .

اختراع حربي طريف وتراجع سعدون :

انقضت خمسة أشهر وسعدون ومن معه لم يبلغوا من غايتهم شيئاً ، فعزم سعدون على اقتحام البلدة فصنع تروساً من الخشب ، كانوا يسمونها « عجلاً » ترد الرصاص عنم فيها فلا يضره ، ثم حمل على البلدة حملة هائلة ، وصالت تلك الجموع وجات ، وكانوا يساقون بالسيوف من أعقابهم لكيلا ينكصوا ويهربوا ، وهجموا على سور البلدة ومقربها وبروجها يريدون الاستيلاء عليها ، فذهب بين الفريقين قتال شديد وقع فيه كثير من القتلى ، ثم شاء الله ألا يبلغ سعدون وجماعته ما أملوه ، وأن ينكصوا عن البلدة على أعقابهم خائبين .

الرجوع الى الطاعة :

بعد أن انتهت الحرب ، ورجع سعدون وجماعته إلى أوطانهم خائبين ، ضاقت الأرض بمن كان قد ارتد ونقض العهد ، فلم يجدوا مفرأ من الدخول في حوزة الاسلام ، فأقبلوا على حجيلان - أمير بريدة - يعطونه العهد ويقرؤن بالايان ، فقبل منهم ذلك وأعطاهم الأمان ، بعد أن شرط عليهم الغرامة ، فأسرعوا اليه وحداناً ومجتمعين ووفدوا عليه بلداً بلداً ، ولم يتخلف منهم إلا أهل عنيزة (١) .

عنيزة :

في عام ١١٩٨ غزا سعود عنيزة ، ولكنه لم يستطع دخولها ، ويبدو أن عنيزة لم تدخل في طاعة عبد العزيز إلا عام ١٢٠٢ هـ . ففي ذلك العام غزاها سعود ودخلها وأجلى عنها رؤساءها آل رشيد وأمر عليها عبد الله بن يحيى (٢) .

(١) يضيف ابن غنام أن ركبا من أهل بريدة سار في أثر سعدون بعد انسحابه ، فصادفوا جماعة من الرجال فنازلوهم وقتلوه جميعاً وأخذوا ما معهم من الأموال ، وقد كان مع تلك الجماعة مال كثير لأهل المدينة ، فأمر عبد العزيز بأدائه تماماً غير منقوص لأنه كان أوقافاً وأحباساً .
(٢) اسمه في رواية ابن غنام علي بن يحيى ، وفي رواية ابن بشر : عبد الله .

سدير وحرمة ومنيع

شغلت سدير — أو بعض بلدانها — الدرعية وقتاً طويلاً بحروبها ومبايعتها ونكوثها .. ومن الصعب أن يعرف ، على وجه الدقة ، الزمن الذي دخلت فيه تلك المنطقة بكاملها في طاعة عبد العزيز ، فإن المؤرخين النجديين الكبار ابن غنام وابن بشر حين يذكran إن مقاطعة ، كسدير مثلاً ، خضعت وبايعت .. فكلامهما لا يعني قط خضوعها الكامل ، أي بكل بلدانها وقراها .

ومهما يكن الأمر ، فإن أول غزوة غزاها عبد العزيز إلى سدير كانت عام ١١٨١ ، وفي عام ١١٩٤ غزا الزلفي ، وربما كان هذا العام هو العام الذي يصح اعتباره سنة مبايعة سدير ، وإن كانت الأحزاب قد استولت على الروضة عام ١١٩٦ لفترة غير طويلة .

ولما كان اسم « حرمة » يقرن كثيراً باسم سدير في المبايعة والردة والحرب رأينا أن نلخص وقائمه في فصل واحد .

غزوة العودة وجلادجل :

في عام ١١٨١ جهز عبد العزيز غزواً وأمر عليه ابن أخيه هذلول بن فيصل — وأشرك معه في الغزو ابنه سعود ، وتلك كانت أول غزوة يشارك فيها سعود — وأمره بالمسير إلى العودة ، فسار حتى بلغ البلدة ليلاً ، فأعد كميناً وأوصى رجاله بأن يدخلوا البلد ويستولوا على قلعتها متى خرج أهلها إلى القتال واشتبكوا

مع الغزاة ، وقد نهض رجال الكين بعملهم على أكمل وجه ، فاستولوا على القلعة ، وبذلك سهل على جنود الموحدين الاستيلاء على البلدة ، وقد سقط في المعارك عدد غير كبير من القتلى ثم نودي بالأمان .

غزو الزلفي :

في العام ١١٨٢ سار سعود بن عبد العزيز على رأس جيش من رجال الدرعية وأغار على بلدة الزلفي في سدير ، وقتل ثلاثة من رجالها ، ثم عاد إلى الدرعية . وتلك أول غزوة تأمر فيها سعود ، أما غزوة العام السابق فكان فيها تابعاً لابن عمه هذلول .

وقد أطلق ابن بشر على سعود ، في أعقاب هذه الغزوة ، لقباً طريفاً ، هو : « السردال » ، وهي كلمة مستعملة في الجيش التركي بمعنى القائد — ولكنها في التركية تنتهي بحرف الراء لا اللام — سردار — قال : (هذه الغزوة هي أول غزوة لسعود قاد فيها الجيوش إلى القتال ، وصار « سردال » للفرسان والأبطال) . وفي العام ١١٨٨ بعد أن فرغ سعود من قتال الدلم ، توقف قليلاً في الحائر ، وهناك جهز سرية من الموحدين وأمر عليها (عدامة بن سويرى ، وأمره بالمسير إلى الزلفي وغزوها ، فسار إليها ، فإذا بركب من أهل الزلفي خارج من البلد فأغار عليهم وقتلهم ، وكانوا نحو العشرين) (١) .

بيعة المجمع وحرمة :

وفي هذه السنة — ١١٨٨ هـ . — قدم وفد من أهل حرمة والمجمع على الدرعية وبايعوا ، ولكنهم اشترطوا إعفاءهم من الجهاد سنتين فقط .

بيعة أهل الحريق :

ووفد على الدرعية في تلك السنة أيضاً محمد بن رشاد الهزاني ووجوه أهل الحريق وبايعوا .

(١) ابن غنام .

وفد منيخ والزلفي وأخو الشيخ :

وفي سنة ١١٩٠ هـ . قدم وفد من أهل منيخ والزلفي على الدرعية ، وكان معهم الشيخ سليمان بن عبد الوهاب ، أخو الشيخ محمد بن عبد الوهاب — وخصمه سابقاً — فأكرمه عبد العزيز والشيخ ووسعا عليه في النفقة فأقام في الدرعية مع عياله وأظهر من الصدق في خدمة الدعوة ما يحا سيئاته السابقة ^(١) . ويقول ابن بشر إن مجيء سليمان كان بطلب من عبد العزيز والشيخ .
ويقول ابن غنام إن وفد منيخ والزلفي قدموا « لتجديد عهد الإسلام » ، ولكنه لا يقول لنا متى كان نكوثهم بمعهم ..

فتنة في حرمة .. وسدير :

في العام ١١٩١ بلغ عبد العزيز أن جماعة من سدير ومنيخ يستعدون للردة وقتل الموحدين ، فأمر أخاه عبد الله بن محمد ، الجد الأعلى للأمره المالكه السعوديه ، بالسير اليهم ، فأتى (بلاد حرمة في الليل وهم هاجعون ، ففرق عبد الله رجالاً في بروج البلد ومواقفها التي تلي القلعة ، وفي البروج التي تقابل ببيان القلعة ، والجموع في متارسها ، فلما انبلج الصبح ، أمر عبد الله على كل صاحب بندق يثورها ، فثوروا البنادق دفعة واحدة ، فارتجت البلاد بأهلها وأسقط بعض الحوامل ، ففزعوا ، وإذا البلاد قد ضبطت عليهم ، وليس لهم قدرة ولا مخرج ، فأرسلوا الى الأمير عبد الله يستخبرونه الخبر ، فقال : « لا بأس عليكم ولا خوف ، ولكن أميركم عثمان ذكر عنكم أشياء توجب المخالفة وادعى الحذر على نفسه منكم وعدم القدرة على إنفاذ أمر الدين في بلدكم ، ولا يستقر له فيها قرار إلا برهائن رجال من كباركم ، نأخذهم معنا حتى تخضع رقاب السفهاء ويضرب الدين عندكم يحرايه » .

فلما رأى أهل البلد ذلك لم يكن لهم بد من الموافقة ، وطلب أربعة رجال

(١) ابن غنام .

من آل مدلج رؤساء أهل البلد .. وخرج اليه هؤلاء الأربعة ورحل بهم الى الدرعية ، بعد أن بايع له أهل البلد) .

وقد أتاخ الأمير عبد الله بن محمد ، بعد خروجه من حرمة ، في سدير ، وأرسل الى أمير الحوطة وأمير العودة يطلبها اليه وأخذها معه الى الدرعية ، لأنه تحقق موالاتها لأهل حرمة على ما هما به من نقض العهد ، وأما سويد ، صاحب جلاجل ، وكانت له مملأة لهؤلاء ، فتركه عبد الله خوفاً من خلل يقع في سدير .

الفتنة في حرمة والمجعة :

ويقول مؤرخا نجد : إن رؤساء سدير أجمعوا على الغدر بالموحدين ، ودعوة أهل كل بلد الى قتل من عندهم من الموحدين ، وتمهيداً لذلك أرسلوا الى كبار الموحدين المقيمين في المجعة أن يأتوا الى « حرمة » للتعليم - ففيها متعلمون ومستمعة - فجاء الى حرمة كثير منهم ، ثم أرسلوا الى أمير حرمة ، وكان في نخل له ، يعلمونه بقدم تلك الجماعة ، وكانوا ينوون البدء بقتله والتخلص منه ، فأعدوا له ستة رجال يترصدونه ، فلما قدم قتلوه .. ثم حبسوا كبار الموحدين كرهائن ، لقاء رهائنهم الذين ذهبوا مع الأمير عبد الله وحبسوا في الدرعية ، ثم ساروا الى المجعة لقتل من فيها من الموحدين ، وإمساك قلعتها والتحصن فيها ، ولكن الموحدين كانوا قد سبقوهم الى القلعة ودافعوا عنها ولم يكتنهم من اقتحامها ، فرجع أهل حرمة الى بلدهم خائبين .

ويقول ابن بشر : إن أمير المجعة ، حمد بن عثمان ، الممالئ لأصحاب الفتنة ، كان عند باب القلعة ، ومعه عدة رجال من أهل البلد ، فلما رأوا (جمع الرجال قد أقبل ومعهم عدة الحرب وأحسوا فيهم الشر ، أغلقوا دونهم الأبواب ، فجعلوا ينادون لابن عثمان ، وهم خلف الباب ، ليفتح لهم .. فأمسك الله على يده ولسانه) . ولما بلغ عبد العزيز ما حدث في حرمة والمجعة جهز ابنه سعود فسار بأهل العارض الى حرمة ، بينما تبعه مقاتلة من الوشم والمحمل الى منيخ ، وقد حاصر سعود حرمة أياماً ، ثم طلب أهلها منه المصالحة ، فصالحهم ، على أن يطلقوا

الأسرى الذين عندهم ، وبطلق هو أسراهم في الدرعية ، وقد قبيل ذلك لأنه كان يخاف من رئيسي الجمعة وجلاجل نقض العهد .

ويقول ابن بشر : إن سعود عزل - بعد ذلك - رئيسي الجمعة وجلاجل وأخرجها من بلديهما واستعمل عبد الله بن جلاجل أميراً على بلدان سدير ومنيخ .

المعارك مع أهل حرمة وحلفائهم :

في سنة ١١٩٣ هـ . عزم أهل حرمة على رفع لواء العصيان ، ورأوا أنه لا بد لهم من الاستيلاء على « الجمعة » ، لأن فيها عدداً غير قليل من الموحدين وعندهم مرابطة من جند عبد العزيز يتهددون سلامة حرمة وأمنها في كل حين ، ولكنهم أدركوا عجزهم عن القيام بهذا العمل منفردين ، فكتبوا إلى سعدون بن عريعر ، رئيس الأحساء وبني خالد ، يلتمسون منه النصرة ، واستدعوا أهل الزلفي للانضمام اليهم فقبلوا وتواعدوا على يوم معلوم يهجمون به على الجمعة هجمة واحدة على حين غفلة من أهلها ، وقبيل موعد الهجوم بقليل ألبسوا (أناساً منهم ثياب النساء الفواني ، وأمروهم أن يسيروا إلى الجمعة .. ويصعدوا إلى بروج القلعة ، حتى يدهموا المسلمين في البلد ، ثم تكون لهم فيها منعة .. فلما بادروا إلى ذلك .. وصعدوا إلى تلك البروج فأمسكوها .. تنبه أهل الجمعة لكيد المعتدين) .

أقام مقاتلة حرمة وحلفاؤهم من أهل الزلفي ونصيرهم سعدون بمجموعه الكبيرة محاصرين للجمعة أياماً ، وأخذوا يقطعون النخيل ويفسدون الزرع ، وكاد أهل الجمعة يطلبون الصلح لولا أن مدداً جاءهم من الإمام عبد العزيز ، وذلك أنه أرسل إلى حسن بن مشاري بن سعود ، في بلد جلاجل ، أن يجهز سرية لمناصرة الجمعة ، فسارت السرية ليلاً واستطاعت الوصول إلى البلد من غير أن يفتن لها المحاصرون ، وكان أهل الجمعة متحصنين في قلعة البلد ، فالتقوا لرجال السرية الجبال فتعلقوا بها وصعدوا إلى القلعة سالمين .. ولما عرف سعدون وأهل حرمة والزلفي بوصول هذه النجدة الجرئية إلى الجمعة يتسوا من التغلب عليها

(وقد كانت ضاقت صدور البوادي من الحصار ومن حبسهم مواشيهم ، فرحلوا عن الجمعة منصرفين ، ورجع أهل الزلفي الى بلادهم ، فاستقرت الحرب بين أهل الجمعة وأهل حرمة) .

عبد الله ينازل أهل حرمة :

بعد فك الحصار عن الجمعة ، جهز عبد العزيز أخاه عبد الله وأرسله لغزو حرمة ، فوقع بينه وبين أهلها قتال ، سقط فيه عدد من رجال حرمة قتلى ، كما قطع عدداً كبيراً من نخيل البلد ، ثم رجع عبد الله الى الدرعية .

سعود يدمر سور حرمة ويحجر متهميها :

بعد عودة عبد الله ، خرج سعود واستنفر معه أهل البلدان ونزل على بلد حرمة وحاصرها أشد الحصار وقطع شيئاً من نخيلها وما زال يضيق على أهلها ويقاثلهم حتى ملأ الرعب قلوبهم ، فأرسلوا الى سعود يطلبون المصالحة فصالحهم (على ما في بطن الحلة من الأنفس والأموال) ، فلما استقر الصلح كتب إلى أبيه يخبره بذلك ، فكتب اليه عبد العزيز : (ان أهل هذه القرية تكرر منهم نقض العهد ، وهي محذور كلها ، فدمرها واهدمها) .

فأمر سعود بهدم سورها وبعض من بيوتها ، وأمر أيضاً على أناس من أهلها من آثار الشر على المسلمين أن يرتحلوا عنها ، فارتحل أناس كثيرون ونزلوا الجمعة وكثير منهم نزل بلد الزبير .

تلك رواية ابن بشر ، وأما ابن غنام فلا يشير إطلاقاً الى كتاب عبد العزيز ، ويقول ان أهل حرمة صالحوا وعاهدوا واشتروا من سعود (جميع ما في البيوت من الأموال والطعام .. فأمر بهدم جميع القصور وإزالة ما فيها من الدور ، ويجلاء آل مدلج كافة) .

غزو الزلفي عام ١١٩٤ هـ :

غزا سعود بالمسلمين بلدة الزلفي - في سدير - وكانوا قد أئذروا به فاستعدوا

له ، وجرى بينهم قتال سقط فيه بعض الرجال ، ثم رجع سعود يحنده إلى الدرعية .

وفي نفس العام غزا عبد الله بن محمد بلدة الزلفي أيضاً فلم ينل من أهلها منالاً فرجع عنهم .

ويقول ابن بشر ان المسلمين عادوا إلى غزو الزلفي وأشعلوا النار في زروعها ، فبايع أهلها على دين الله ورسوله والسمع والطاعة .

غزوة الأحزاب للروضة .. ثم استيلاء سعود عليها :

يقول ابن بشر في أخبار سنة ١١٩٦ هـ . ان سعدون بعد ارتحاله من بريدة سار ونزل قرب الزلفي (وأقام عليه أياماً واجتمع معه أناس كثير من أهل الحرج وغيرهم ، ثم ارتحل ونزل « مبايض » الماء المعروف فأقام عليه وصار معه أناس كثيرون من جلوية البلدان من أهل حرمة وآل ماضي أهل الروضة وأهل الزلفي وزيد بن زامل بأهل الحرج وأقاموا أياماً على مبايض يدبرون الرأي في أي بلد يسطون فيها من سدير فأجتمع رأيهم على السطوة في بلد « الروضة » .

فلما كان بعد عيد النحر من هذه السنة سار إليها آل ماضي ومن معهم من قبيلتهم وجماعتهم وسار معهم آل مدلج وغيرهم من أهل سدير والزلفي وسار معهم أيضاً زيد بن زامل ومن معه من أهل الدلم وأهل الحرج ، فسار الجميع ليلاً وسطوا فيها قبيل الصبح واستولوا عليها ، وكان في الحصن الذي في وسط البلد جماعة مرابطة من جهة عبد العزيز من أهل العارض وغيرهم .. فأنزلوهم من الحصن بالأمان ، وأخرجوهم من البلد .

ورحل سعدون من مبايض ونزل الروضة وأقام فيها حتى استقر فيها آل ماضي وضبطوها .. ثم رحل منها سعدون وتركها ، وتفرق أهل البلدان الذين سطوا معه فيها ، ومن ساعة رحل سعدون والرعب وقع في قلوب آل ماضي .. ثم صار أهل سدير يواقعونهم بالقتال في كل وقت ، وأقبل امداد من العارض والمحمل وكثرت عليهم الوقائع وضيقوا عليهم) ..

وخلال ذلك كان سعود نازلاً في (ثادق) فرحل منها وجاء إلى الروضة .. فاشتد على أهلها القتال ، واستولى سعود على شطر كبير من النخيل وأخذ يقطع الأشجار وأنزل أهل البروج من بروجهم وبقيت قلعة البلد وحدها فأرسلوا إلى سعود وطلبوا المصالحة وبذلوا له كثيراً من الدراهم نكالاً ، فصالحهم على حقن الدماء وما في بطن الحلة من الأموال ، وأن يرحل عن البلد: آل ماضي واعوانهم فاستولى سعود على البلد وأجلاهم عنها ، ومدة لبشهم فيها وحربهم شهر . وكانت بلدة الداخلة في ذلك الحرب ملجأ لمقاتلة المسلمين^(١) .

بيعة وادي الدواسر :

يقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١١٩٩ هـ . ، أن رئيسي وادي الدواسر ، ربيع وبدن ، ابني زيد ، حضرا إلى الدرعية ومعهما (رجال من رؤساء قومها على الشيخ وعبد العزيز ، وبايعوا على دين الله ورسوله والسمع والطاعة) . ويبدو أن هذه البيعة كانت قاصرة على هذين الزعيمين وفئة صغيرة معها ، أما بيعة وادي الدواسر الاجتماعية فلم تتم إلا عام ١٢٠٢ هـ . (وذلك بعد مجاولات ومقاتلات عديدة) .

هذا كل ما نجده في ابن بشر عن بيعة وادي الدواسر .

أما ابن غنام فيعطينا تفاصيل طريفة عن جهاد الأخوين ربيع وبدن في سبيل نشر الدعوة بين أبناء الوادي . ومن المفارقات اللطيفة أن المؤرخ الفرنسي « مانجان » يورد لنا ، في شيء من الاختصار ، نفس الرواية التي نجدها في ابن

(١) تلك رواية ابن بشر ، ويقول ابن غنام ان سعدون حاصر الداخلة فلما بلغه ظهور سعود حصل له الرعب والارجاف وولى مدبراً .. وإن رجالاً من أهل الإيمان من مدير وغيرهم بإدروا أهل الروضة القتال قبل مجيء سعود اليها وقتلوا من أهلها عدة رجال وحصروا الأهلين .. ولما جاء سعود استولى على جميع الحلل التي كانت في النخل وشرع في قطع النخل والأشجار فطلب الأهلون الصلح وعاهدوا على الإسلام .. وأمر عليهم عبد الله بن عمر .

غنام ، مع أنه لم يأخذها عنه ، وهانحن نورد روايته ثم نتبعها بخلاصة وافية لأقوال ابن غنام .

رواية هانجان :

أخذ الأخوان ربيع وبدن ، بعد عودتهما من الدرعية ، يدعوان أهل وادي الدواسر الى اعتناق المذهب الحنبلي الوهابي ، فامتنع من ذلك وجهاء الوادي ، وجرى قتال بين الفريقين ، فتحصن الأخوان وامن معها في شبه حصن أقاماه في قرية « دام » ولم يستطع خصومهم اقتحامه ، ولذلك عمدوا الى إلقاء حمار ميت في بئر الماء التي يستقي منها رجال الحصن ، فحفر أصحاب الحصن بئراً جديدة ، ثم أرسل ربيع الى خصومه يطلب الهدنة وأهدى الى زعيمهم فرساً ، فانعقدت الهدنة بينهما ، وخلال ذلك طلب ربيع من الأمير عبد العزيز مؤناً وذخائر ، فأرسلها اليه فتقوى بذلك وامتنع ، وعاد القتال بينه وبين خصومه مرة أخرى ، فصنع هؤلاء (مصفحتين) ووضعوا في كل منها ثلاثين رجلاً ، وتقصدوا نحو الحصن ، ولكن إحدى المصفحتين تحطمت وقطارت صفائحها وتكشفت عن الجند الذين فيها .. وبعد حصار طويل ومناوشات كثيرة اقتراح المهاجمون على ربيع الخروج من حصنه بأمان ، فقبل وخرج وذهب الى الدرعية ، فأعطاه عبد العزيز مالاً وسلاحاً وذخيرة ، وأثنى عليه وشجعه ، فعاد الى الوادي وأقام حصناً جديداً ، واستمر يقاتل الأهالي حتى أتعبهم ، فلبجأوا الى رئيس نجران يلتمسون منه العون والنصرة ، فأقبل اليهم وعالج الحصن فلم يستطع اقتحامه .. ولذلك رأى زعماء الدواسر أن أفضل وسيلة لضمان سلامتهم وأمنهم هي الطاعة لعبد العزيز ، فخاطبوا في هذا الأمر « ربيعاً » فأشار عليهم بالذهاب الى الدرعية ، ففعلوا ، وهناك قدموا طاعتهم .. ولكنهم عادوا الى العصيان بعد ستة أشهر ، فسار اليهم أمير الخرج سليمان بن عفيصان ، وهزمهم ، فطلبوا الصلح ، وفرض عليهم عبد العزيز ألفي بندقية وألفي ريال .

خلاصة رواية ابن غنام :

في عام ١٢٠١ هـ . وفدَ ربيع وبدن ، رئيسا المخاريم ، على الدرعية وبايعا ، ثم عادا الى الدواسر يدعوان بدعوة التوحيد ، فنفرت منها الجماهير وناصبتهما العداء ، فبنيا لأنفسهما ولمن تبعهما قصراً منيعاً ، ثم جددا الدعوة وأحرقا شجرة كان يتعبد لها الأهالي ، فغضب الأهالي لمعبودهم وساروا الى القصر وحاصروا الأخوين وجماعة الموحدين ثلاثة أيام فلم ينالوا منهم منالاً ، فعمدوا الى إلقاء حجار ميت في بئر القصر ، ولكن أهل القصر حفروا لأنفسهم بئراً جديدة ، ثم أهدوا الى رئيس العصاة الثلاثة فرساً فارقت عنهم بمن معه ، ثم أرسل ربيع الى عبد العزيز يخبره بما كان ويستنصره ، فأمدّه بمال وسلاح وزاد ، وكتب الى مبارك بن عبد الهادي أن يساعد ربيعاً ، فأسرع اليه ونزل في القصر ، فحاول جماعة « الخطاطبة » أن يبنوا قصراً أمام قصر ربيع ، ولكن جماعة ربيع حالوا دون ذلك ، فعمد الخطاطبة الى صنع « زحافات » من خشب ، في كل منها ثلاثون رجلاً ، وتقدموا نحو القصر فانكشفت إحدى الزحافات وقتل الموحدين تسعة من رجالها ، ثم أتبعوهم بسبعة آخرين ، وأخذوا منهم أسلحة ودروعاً ، ولما رأى أهل الوادي عجزهم عن الموحدين وتكاثر خسائرهم وضحاياهم ، طلبوا من الموحدين الخروج من القصر بأمان ، ففعلوا وذهبوا الى الدرعية ، فأحسن عبد العزيز وفادتهم وأكرمهم ، ثم عادوا الى الدواسر وبنوا قصراً جديداً يقابل قرية « قمر » ، وراحوا يشنون الغارات منه على قرى الوادي ، فأذعن لهم عشائر كثيرة وفي طليعتها (الحنايكة) ، ودخلوا في الدعوة ، ولذلك رأى رؤساء الدواسر المناهضون للدعوة ، وفي مقدمتهم رؤساء الرجبان والوداعين ، أنهم عاجزون عن الاستمرار في الكفاح ، فلجأوا الى رئيس نجران لإنجادهم ، فأقبل الى الوادي وقاتل جماعة الموحدين ، وأكثرهم من الحنايكة ، فأنزلوا به

خسائر فادحة ، واضطر الى التراجع والعودة الى بلاده مهزوماً ذليلاً .. وكان نصر الموحدين عظيماً وكانت آثاره سريعة ، فجاء الرجبان وجميع الوداعين وبايعوا ، وتتابع على ذلك القرى 'مكرهه' ، ولكنهم عادوا الى العصيان والفساد بعد ستة أشهر ، فكتب عبد العزيز الى سليمان بن عفيصان أن يجهز جيشاً لقتالهم ، ففعل ، (وقدم عليهم عجلاً ، ودام فيهم القتل والقتال ، حتى انكأ أهل الضلال ، ونكد عليهم العيش والبال ، وضاق عليهم الحال .. فبعد ذلك رغبوا في الإسلام ودانوا .. فقدموا الى الدرعية .. فعاهدوا عبد العزيز على الإسلام ، وشرط عليهم .. ألفي ريال وألفي أتفق .. أن تسلم في الحال .. فالتزموا بذلك ووفوا به وسلموه) .

الأحساء

(الأحساء .. ملك كثير الخير ، كالْبصرة في كثرة الطعام والأشجار والأنهار ..
وفيه من الأرض شيء يكفي جزيرة العرب قاطبة ، ومن التمر كذلك . ولم ييسط الملك لآل سعود حتى أخذوا الأحساء .
.. وكل طائفة هلكت بالقحط من أطراف مملكة آل سعود يأمرهم بالذهاب إلى الأحساء فتردّ حالهم في أقل الأيام ، وليس ذلك إلا من بركة فيها وحاصل كثير) .

لمع الشهاب

(.. وكانت من العوامل التي أعانت سعود على الاستيلاء على الأحساء وغزو العراق الجنوبي : وجود الحملة الفرنسية في مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) وانشغال الدولة العثمانية بمواجهتها) .

الدكتور رجب حراز (الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب)

الأحساء

لم تكن الأحساء ، حتى القرن الثالث عشر للهجرة ، معدودة من دولة نجد ، ولا خاضعة لأحد من أمراء نجد ، وقد نستطيع القول أن أمراء الأحساء والقطيف هم الذين كانت لهم السيطرة والصولة والجولة في كثير من البلدان النجدية ، وكان أمراء الأحساء ، وخصوصاً آل عريعر ، يقومون بغزوات كثيرة على القصيم وغيرها ويجدون من النجديين أنصاراً يساعدهم على عدوانهم ، بسبب اختلافهم على الزعامات المحلية ، وقد رأينا ، قبل ، كيف ألزم أمير الأحساء واحداً من أمراء نجد ، هو صاحب « العيينة » ، بقتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو نفيه من بلدته ، فنفذ أمره صاغراً .

ولعل الدرعية من بلدان نجد القلائل ، التي رفضت الخضوع الى أمراء الأحساء وقاومتهم وطردتهم عنها . ويذكر لنا ابن بشر في سابقة العام ١١٣٣ هـ . — وهو عام ولادة عبد العزيز بن محمد — أن سعدون بن محمد بن عريعر قضى فصل الصيف في نجد (وحجر الكثير في العارض كل فصل الصيف ، وأظهر المدافع من الأحساء ونزل عقرباً المعروفة . . ثم سار الى الدرعية ، ونهب فيها بيوتاً في الظهيرة وملوى والسريحة ، وقتل أهل الدرعية من قومه قتلى كثيرة) .

التحدي الأول للأحساء :

في عام ١١٧٦ هـ . خرج من أرض نجد رجل تحدى أمير الأحساء في عقر

داره ، ففزا بلدين من بلدانه وقتل عدداً من رجاله وعاد سالماً الى وطنه ، هذا الرجل هو : الأمير عبد العزيز بن محمد ، وكان ذلك في حياة أبيه .
كان هذا التحدي ، في ذلك الوقت ، أمراً عظيماً جداً ، ولكنه لم يكن يعني خطراً جسيماً يهدد سلامة الأحساء ، لأن احتمال خضوع الأحساء يومئذ للدرعية كان يشبه احتمال خضوع الضبيع للغزال .
ولكن عبد العزيز أخذ يزداد كل يوم قوة ، بينما كان صاحب الأحساء يزداد كل يوم ضعفاً ، وفي أحسن حالاته يقف حيث هو .

التحدي الثاني :

وفي العام ١١٩٨ هـ . قام سعود بن عبد العزيز بتحدي الأحساء مرة ثانية ، فأغار على (العيون) من قرى المبرز .

التفكير في الاستيلاء على الأحساء :

بعد غارة العيون ، بدأ عبد العزيز يفكر في الاستيلاء على الأحساء ، وكان ميزان القوى قد تغير كثيراً لمصلحته ، وكان الخلاف قد دب بين زعماء الأحساء فكان ذلك فرصته الذهبية ، فيتخلص نهائياً من خطر أمراء الأحساء على بلاده وينتفع بموارد الأحساء العظيمة .

الدعاء بين بني خالد :

قال صاحب المص : (إعلم أنه لما أراد الله ذهاب دولة الخوالد وضع الشقاق بينهم ، فصار كل من آل حميد يجر شعباً من القبيلة لنفسه ، ليقوى أمره فينال الرئاسة ، ولم يكونوا كذلك من قبل بل كانوا جميعاً . وأول هذا التفرق أن عرعر بن دجين .. لما مات ولي بمهده ابنه بطين بن عرعر ، فاختلف عليه اخوانه ومشائخ قبائل بني خالد ، وقد قتلوه غيلة لأمرهم فقاموا بها عليه ، فتولى بعده أخوه سعدون ، وحكم في بني خالد اثنتي عشرة سنة ، وكانت شوكة آل سعود ،

حينئذ ، قد قويت في جميع بلدان نجد ، من حضر وبدو ، فصارت قوتهم أول
وهن دخل على بني خالد .

ويقول ابن بشر في أخبار سنة ١٢٠٠ هـ : (وفيها دبت بين بني خالد
الفتن واستحكمت في قلوبهم الشحنة والاحن .. فأراقوا بينهم الدماء .. وغدا
بعضهم لبعض سالباً ولهلاكه مريداً وطالباً فأصبحت الأرض من أفعالهم تعج
والخلق تجار إلى الله وتضج ، وتدعو عليهم بالاذلال .

وفيهما جرت وقعة « جضمة » بين بني خالد ، وذلك إن رؤساء المهاشير
وآل صبيح اتفقوا مع عبد المحسن بن سرداح ودويحس بن عريعر على مقاتلة
« سعدون » رئيس بني خالد ، وأرسلوا إلى ثويني واستنجدوه واستنصروه ..
فأقبل اليهم يجموعه وتنازلوا مع سعدون مدة أيام ، وقتل بينهما قتلى كثيرة
وصارت الكرة على سعدون ومن معه فانهزموا ، واستولى دويحس في بني خالد
والأمر والحل والعقد بيد عبد المحسن .

التجاء سعدون الى الدرعية :

هرب سعدون من الأحساء لا يلوي على شيء ، ثم بدا له أن يلجأ إلى حمى
عبد العزيز ، صديق خصمه ثويني ، وفي هذا من الإحراج ما فيه .. وهكذا
سار إلى الدرعية ، ومعه عدد محدود من أنصاره ، فلما وصل إلى ظاهر البلدة ،
أرسل إلى عبد العزيز يطلب منه قبوله ضيفاً ولاجئاً ، فأجابه عبد العزيز أنه
متعاهد مع ثويني ، ولا يحب أن يؤوي اليه خصماً لثويني .. ولكن سعدون
تجاهل هذا الرفض وتابع طريقه إلى الدرعية ، ودخلها ..

ويقول مانحجان أن عبد العزيز حبس سعدون عنده ، ثم استشار الشيخ محمد
ابن عبد الوهاب في أمره ، فقال له الشيخ : لا يجوز لك قتل هذا الرجل ولا
رفض ضيافته ، وقد ينفعك يوماً في الاستيلاء على الأحساء ، لأن له فيها أنصاراً .
ويقول ابن غنام إن عبد العزيز فوجيء بوصول سعدون وجماعته إلى الدرعية
وهو في طريقه إلى صلاة الجمعة ، فحصل له كثير من الكرب ، ثم أسر بذلك

الخبر إلى الشيخ ، فجلا عنه الشبه والأوهام ، وتلا عليه الآية الكريمة : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم ﴾ فسرى عن عبد العزيز وتبين له وجه الحق .

قبل عبد العزيز التجاء سعدون إليه ، وكتب إلى ثويني يخبره بنزول سعدون عليه ، ويقول إن هذا لا يعني نقض العهد القائم بينهما لأنه لن يعين سعدون عليه ولن يدعه يفعل شيئاً يضره ..

لم يرض هذا الكلام ثويني ، وأصرّ على اعتبار ذلك نقضاً للعهد وتحدياً ، أو أنه ادعى ذلك لغاية في نفسه ، وجدّ في التجهز للحرب ^(١) .

التمهيد للاستيلاء على الاحساء :

في سنة ١٢٠٢ هـ . ذهب سعود إلى الدهناء وأقام فيها ، يريد ان يتحسس ويتفحص الأخبار عن بني خالد .

وفي تلك السنة غزا سليمان بن عفيصان بلدة « الجشة » في الاحساء ، وقتل من أهلها رجالاً ، وغزا كذلك « العقير » ، فأخذ ما في الخان من الأموال وأحرق بيوت الجريد .

وفي سنة ١٢٠٣ هـ . سار سعود يجنود كثيرة إلى الاحساء ، وكان بين جنوده

(١) لقد حارب سعدون الدرعية غير مرة ، وفي عام ١١٩٢ هـ . طلب من عبد العزيز المصالحة فأجابها إليها ولكن سعدون ما لبث أن نقض الصلح ، وفي عام ١١٩٤ هـ . هجم سعدون على غزو لأهل سدير والوشم الموحدين وقتلهم وكان بين قتلاهم أميراً الفزو .. ثم أغار على النبطية ومعهم غزو لأهل ضرمى فقتل من الموحدين ثلاثين رجلاً ، وفي العام ١١٩٦ هـ . غزا سعدون بريدة وحاصرها طويلاً وعجز عنها ، كما غزا الروضة .. وهكذا نرى سجل سعدون حافلاً بالعداء للدعوة ، ملطخاً بالدم .. ومع ذلك قبل التجاؤه ..

أما سبب ثورة عبد المحسن على سعدون ، فهو أن سعدون كان يخشى من الشيخ عبد المحسن آل عبيد الله ، خال داحس ومحمد ، أخو سعدون لأبيه ، أن ينازعه الرئاسة أو يدفع إليها أحد أخويه المذكورين ، فصمم على قتله .. وعلم عبد المحسن بذلك فهرب مع داحس ومحمد سراً إلى العراق واستنصرا الشيخ ثويني ..

عدد من عربان بني خالد الذين جلوا الى الدرعية ، فالتقى بمقاتلة لعبد المحسن ودويحس ، وجرت بينهم مناوشة قصيرة ، ثم انصرف سعود راجعاً . ويعلى ابن غنام سبب لإسراعه في العودة بأنه علم أن جماعة من جنوده ، وهم من بني خالد ، أضمرُوا الخيانة . ويقول صاحب اللع أن رجال سعود هم الذين كانوا يقاتلون فكان أكثر القتلى منهم .

عاد سعود من الدرعية الى الاحساء مرة اخرى برجاله المخلصين وحدهم ، فسار الى المبرز ورمى أهلها بالبنادق ثم سار الى قرية « زالفصول » (فأخذها وقتل من أهلها نحو ثلاثمائة) .

تحرير الشريف غالب :

ويقول صاحب «اللّع» : إن الشريف غالب (كتب لعبد المحسن يرغبه في حرب آل سعود ، وقد بذل له شيئاً من المال نقداً ، وأعطاه بيده خمسين عبداً من عبادة السند والاعوان « الأفغان » ، لأنه لا يمكنه توصيله - أي المال - الى عبد المحسن بغير ذلك ، لإحاطة ملك آل سعود بجميع أرض بني خالد براً وبحراً ، وجعل معهم اثنين من خدامه لأجل التوصيل ، وقال : إستعن بهذا على حرب عبد العزيز واغزه من تلك الأطراف التي تليكم ، لئلا تقوى شوكته فيميل عليكم ميلاً واحدة ، وهأنذا أمشي عليه من جهة الحجاز ، فأجابه عبد المحسن لما قال ..) .

ويقال إن عبد العزيز عرض على سعدون أن يجهزه بجيش الى الاحساء ، ولكن سعدون مات قبل ذلك .

سعود يقاتل عبد المحسن ويؤمر زيد بن عريعر :

وفي عام ١٢٠٤ هـ . سار سعود الى الاحساء بجنود كثيرة ، وسار معه عسدد كبير من بوادي الظفير والعارض وجلوية بني خالد ، وكان على رأسهم زيد بن عريعر ، الذي أصبح زعيماً عليهم ومرشح الدرعية لإمارة بني خالد والاحساء ، بعد النصر ..

إلتقت جموع سعود بجموع بني خالد في « غريميل » ، فهزمهم سعود هزيمة منكرة وغنم منهم مالا كثيرا ، وقتل عددا كبيرا جداً ولم ينج منهم إلا القليل ، وهرب بعض رؤسائهم الى قطر والزيارة ، منهم عبد المحسن وعيال عريعر . ويقول ابن غنام إن سعود أراد من زيد بن عريعر ، بعد انقضاء معركة غريميل ، أن يسير معه (إلى الأحساء حتى يقيم فيها علم التوحيد والدين .. فأبى عن ذلك وتعلل ..) فعاد سعود إلى الدرعية .

ويقول ابن بشر : إن بني خالد كانوا يحاربون تحت قيادة عبد المحسن ودويحس ، فهربا الى المنتفق ، فاستعمل سعود (زيد بن عريعر في بني خالد أميراً ، فاجتمعوا عليه) .

مقتل عبد المحسن :

ذكر ابن بشر في أخبار سنة ١٢٠٦ هـ . أن زيد بن عريعر ، بعد توليه الإمارة على الأحساء ، كتب هو وأخوته إلى عبد المحسن بن مرداح ، الذي هرب إلى المنتفق وبذلوا له الصداقة والأمان وأمنوه ووعدوه ، حتى أتى اليهم واجتمع بهم ، فقتلوه في مجلسهم .

مسير سعود الى القطيف :

في سنة ١٢٠٦ هـ . سار سعود إلى القطيف ، فنازل بلدة « سيهات » واقتحم أسوارها ودخلها وقتل من أهلها ألفا وخمسمائة رجل واستولى على جميع ما فيها من الأموال التي لا تعد ولا توصف .

ثم سار إلى « القديح » واستولى على أموالها .

ثم استولى على « العوامية » وغيرها من القرى ، ثم ذهب بعد ذلك إلى الفرضة وحاصرها ، فبذل له أهلها ثلاثة آلاف زر ، فرفع سعود عنهم الحصار ورجع إلى الدرعية .

ويقول ابن بشر إن أهل الفرضة صالحوا سعود على ٥٠٠ أحر ، وإن سعود دخل (عنك) ونهبها وقتل من أهلها ٤٠٠ .

ثورة في الأحساء :

في سنة ١٢٠٧ هـ . ثار بنو خالد على رئيسهم زيد بن عريعر واخوته وجميع آل عريعر ، لأنهم قتلوا عبد المحسن آل سرداج ، وحالفوا الدرعية . وقد نصّب الثائرون براك بن عبد المحسن أميراً على بني خالد ، فلم يمض على ولايته غير قليل حتى أخذ يشن الغارات على جماعات من البدو كسبيع وغيرهم ليظهر قوته ..

عبد العزيز يقاتل بني خالد :

كانت ولاية براك وأعماله الاستفزازية تحدياً ظاهراً للدرعية ، فأمر عبد العزيز ابنه سعود أن يسير إلى قتال بني خالد . ويقول ابن غنام إن سعود ، بعد وصوله إلى الأحساء ، عرف إن بني خالد نازلون على ماء اللصافة ، فسأل رؤساء جنده : هل يتبعهم ، أم ينتهز فرصة غيابهم فيقتحم بلدانهم وأهلهم ومخلاتهم ؟ . فأشاروا بأن يقتحم مخلاتهم ، ولكنه أثر تتبعهم ومبارزتهم ، فسار إلى اللصافة فوجدهم قد غادروها ، فأدرك أنهم سيعودون إليها أو إلى المياه القريبة منها ، فلما عادوا برز اليهم المسلمون فقاتلهم وقتلوا منهم ستائة رجل في حملة واحدة ، ويقدر ابن بشر جملة القتلى من بني خالد بين ألف وألفين ، وقد انهزم براك بن عبد المحسن بقليل من رجاله ولجأوا إلى المنتفق ، واستولى سعود على أموالهم ومتاعهم ومائتين من خيلهم . ويسمي ابن بشر هذه الواقعة باسم وقعة « الشيط » ، وهو موضع في اللصافة . وقد كان لهذه الموقعة أثر بليغ في نفوس سكان الأحساء فمالوا إلى الاستسلام والطاعة للدرعية .

سعود يدعو أهل الأحساء إلى الطاعة :

سار سعود بعد ذلك إلى « الطف » على ماء الردينيات^(١) ونزلها ، وأقام

(١) في ابن بشر الردينية ، ولكن مؤلف تاريخ الأحساء ضبطها هكذا : « الردينيات » .

فيها أياماً ، وكتب إلى أهل الأحساء رسائل يدعوهم فيها إلى الدخول في الإسلام والطاعة والانقياد .

سعود يدخل الأحساء بدعوة من أهلها :

يقول ابن غنام أن رسل أهل الأحساء (قدمت على سعود في منتصف شعبان سنة ١٢٠٧ هـ . ومعهم كتابهم يدعونه فيه للقدوم عليهم ، فسار اليهم في أول رمضان ، فنزل قرب « عين نجم » ، فخرج إليه أهل الأحساء وعاهدوه على الإسلام والطاعة ، فأقالهم من الجهاد أعواماً ، ترغيباً لهم في البقاء على الإسلام وتألفاً لقلوبهم .

ثم أمر بهدم جميع ما في البلاد من أماكن البدع والزنج والأهواء والضلال ، وإزالة القباب التي على القبور .. وأمر كذلك بإقامة شعائر التوحيد وإبطال ما خالف الشرع من الأحكام والمواظبة على إظهار الصلوات في المساجد ومعاقبة كل متخلف عنها ، وأبطل جميع أنواع الربا والعقود الفاسدة والمظالم والمشور والامكاس .

وأمر كذلك بنشر العلم وإحيائه بالمذاكرة ، والتدريس على جميع المذاهب الأربعة ، والتجرد في تفهم التوحيد ، وأقام الأئمة في المساجد والعلماء في المدارس وأقر الاحباس والسبل .

ثم أشار على سعود كثير من أهل البلاد بأن يبني له حصناً .. فوافق بعد تردد ، واجتمع رأي أهل المشورة أن يكون موقعه مكان بيوت آل حميد وما حولها ، فهدمت تلك البيوت وأمر بأن تدفع قيمة كل بيت إلى صاحب البيت حتى لا يضيع ملكه) .

ويذكر ابن بشر أن سعود استعمل على الأحساء أميراً : محمد الحلي ، وجعل على بيت المال حسين بن سبيت ، وأن العلماء الذين أقامهم في الأحساء لتعليم الدين هم : عبدالله بن فاضل و ابراهيم بن حسن بن عيدان ومحمد بن سليمان وحمد بن حسين ابن حمد بن حسين .

أهل الاحساء ينقضون عهدهم :

ارتحل سعود من الاحساء وقصد قرية « نطاع » ، ماء في الطف ، وأقام فيها نحو شهر ، فأتته الأخبار أن أهل الاحساء نقضوا العهد .. وقتلوا المسلمين الذين أقامهم سعود عندهم دعاءً وهداةً ومعلمين ، وكان جملة من قُتل نحو ثلاثين رجلاً (١) .

استشار سعود أهل الرأي في العودة الى الاحساء لمعاقبة الثائرين ، فأشاروا عليه بالعودة الى نجد لاستكمال العدّة والعدد ، فعاد الى الدرعية .

الاستيلاء على شمالي الاحساء وهرب ابن عريعر :

قال ابن غنام : (في سنة ١٢٠٨ هـ . سار سعود بالمسلمين يريد حصار الاحساء وتدميرها ، وعقاب من فيها من الفجار والمرتدين الذين قتلوا دعاء المسلمين ومعلمي التوحيد فيها ، وكان زيد بن عريعر وإخوانه وجماعته نازلين في الكويت حين ثار أهل الاحساء ، فسار يجماعته الى الاحساء وبقي فيها يستعد مع أهلها لقتال أهل الإسلام ، فلما كان آخر المحرم نزل سعود على قرية الشقيف ، من قرى الشمال في الاحساء ، وكان فيها ستائة رجل ، فأحرق بها المسلمون واحتدم القتال بين الفريقين يومين وقُتل من أهل البلدة عدة رجال ، وشرع المسلمون في قطع النخل ، وفي الليلة الثالثة هرب أهل الشقيف الى قرى القرين والمطيرفي والمبرز ، فأرسل سعود جماعة من المسلمين الى قرية الشقيف فوجدوها خالية ، فأخذوا ما وجدوا فيها من الأموال .

ثم اجتمع أهل قرى الشمال في القرين ، فحاصروهم المسلمون وحاصروا كذلك أهل المطيرفي ، فلما طال عليهم الحصار طلبوا (أي أهل قرى الشمال) من سعود المصالحة فصالحهم على نصف الأموال ، ثم أمر أهل القرين بالجللاء عن بلدتهم فارتحلوا .

(١) انظر ابن بشر ، الذي يقول أن أهل الاحساء قتلوا الأمير المحلي وصاحب بيت المال .

فلما تمّ للمسلمين النصر على أهل الشمال ، سار بعض جيش المسلمين إلى المبرز فخرج أهلها إلى لقاءهم ، ومعهم زيد بن عريعر واخوانه وجماعته ، فاقتتلوا ، وقتل من أهل الضلال غدير بن عمر وحمود بن غرمول ، وعاد زيد وجماعته إلى بلدة المبرز .

وبعد أيام أعاد المسلمون الكرة ، ولكن لم يقتل أحد .

فلما عرف المسلمون حال أهل المبرز عمدوا إلى استدراجهم بالحيلة ، وذلك بأن يتراجع المسلمون ويتبعهم أهل البلدة ومن انضم اليهم فيكشفهم المسلمون ويكرونها عليهم ، وقد كان ذلك ، فاجتمع على المسلمين عدد كبير من أهل الأحساء كادت أن تنخلع قلوب المسلمين لمراه لولا أن ثبتهم الله ، فصدقوا الحملة وهزموهم بعد ان قاتلوهم أياماً وقتلوا منهم نحو مائة وعشرين رجلاً ، وانهزم زيد بن عريعر إلى بلدان الشرق ^(١) .

وبعد أيام سار المسلمون إلى بلاد ابن بطل ^(٢) فقاتلوهم أهلها وقتلوا منهم عدة رجال وغنموا ما فيها من الأمتعة والحيوان والطعام .

ثم سارت جموع المسلمين إلى الشرق وقاتلوا أهل الجبيل وقتلوا منهم رجالاً .

بيعة براك وأهل الأحساء :

كان الأعراب وأهل البوادي ممن كان مع سعود في تلك الأثناء يدمرون ويقطعون النخيل ، حتى اشتد الضيق على أهل الأحساء ، فأتى براك بن عبدالمحسن إلى سعود وأنبأه ان أهل الأحساء يريدون الدخول في الدين ويلتزمون بجميع الأحكام ، فطلب منه سعود ان يخرجوا اليه بأنفسهم ، فاستعان براك بكبار أهل التوحيد فقاموا معه وأعانوه ، واستقر الرأي بين براك وأهل الأحساء على ان يذهب اليهم براك — بعد ارتحال سعود إلى نجد — ويبايعوه على الإسلام

(١) ويسمى ابن بشر هذه المعركة : وقعة عيرس .

(٢) البطالية .

ويخرجوا زيد بن عريعر واخوته وينفونهم ، فارتحل سعود حين ألح عليه اخوانه وقالوا له : عسى ان يكون هذا سبباً لهم في الإيمان .

نقض العهد :

فلما ارتحل سعود وزال عن اهل الأحساء الحصار والرعب نكثوا بوعدهم لبراك حين عاهد اليهم يطلب منهم الوفاء بما عاهدوا عليه وثار بينهم الخلاف والشقاق ، فانصرف عنهم براك وخرج الى البادية ، ثم كرّ عليهم بخيله ، وانضم اليه جماعة من اهل الدين من السياب ، واجتمعوا في (الجشة) واجتمع اولاد عريعر واعوانه واهل المبرز واهل الهفوف في بلدة (الجفر) ، وكانوا من الكثرة بحيث لا يضبطهم الحصر ، فاحتدم بينهم القتال ، وقتل منهم عدة رجال ، حتى استطاع براك ان يستولي على الهفوف ، فهرب دويحس وماجد اولاد عريعر ، ودخل براك المبرز في اليوم التالي ، وعاهده اهل الهفوف والمبرز على الإسلام ، فأقام شرائع الدين في الأحساء ، وكتب الى عبد العزيز يعلمه بما تم ، فكتب اليه عبد العزيز ان يبذل في الدين جهده .

زوال ولاية آل حميد :

قال ابن بشر : (. . وتولى براك في الأحساء ودخل اهل الهفوف وجميع اهل الأحساء في طاعته وصار نائباً لعبد العزيز في الأحساء سامعاً مطيعاً وبزوال ولاية زيد عن الأحساء زالت ولاية آل حميد المستقلة لهم في الأحساء والقطيف ونواحيها ، لأن ولاية براك هذه كانت لعبد العزيز بن محمد بن سعود ، فكما اتفق أول ولايتهم لتلك النواحي بلفظ (طغى الماء) اتفق تاريخ زوالهم بلفظ (وغار) فحصل الطباق البديعي (١) .

(١) البيتان اللذان أشار اليهما ابن بشر هما :

(رأيت البدو آل حميد لما	تولوا أحدثوا في الخط ظلهما
أتى تاريخهم لما تولوا	كفأنا الله شرهم « طغى الماء »
البيتان قिला في أول ولايتهم ، وأما البيت الذي قيل في زوال ولايتهم ، فهو :	
(وتاريخ الزوال أتى طباقاً	وغار إذا انتهى الأجل المسمى)

فتنة الاحساء الكبرى :

لم تستقر الامور في الاحساء مدة طويلة ، فقد أخذت عناصر الفساد والفتنة تتجمع وتحاول نقض العهد وخلع الطاعة ومحاربة رجال الدعوة ، ولما بلغ ذلك الإمام عبد العزيز بعث الرسل والكتب الى براك بن عبد المحسن يدعوه الى قمع الفتنة وطرد رؤسائها وإجلائهم عن البلاد والسهرة على إقامة شعائر الدين، ولكن براك أجاب أنه عاجز عن طرد المفسدين لقوتهم وأنه يخشى ان يشوروا عليه فتكون الفتنة بهم أعظم .

ويبدو أن أول من حرّض على التمرد رجل يدعى (صالح النجار) استطاع ان يستميل اليه جماعة كآبن عفالق والجيبلي وابن حمد وغيرهم ، وكان يدبر المؤامرات ليلاً ويتظاهر في النهار بأنه من جماعة المسلمين .

ويقول ابن بشر: إن هؤلاء الجماعة — مع رجال من رؤساء الاحساء، وبراك نفسه كان ممالئاً لهم — (أجمعوا على نقض عهد المسلمين ومحاربتهم ، وتبين أمرهم وأظهروه ، ثم أرادوا من السياسة موافقتهم فأبوا عليهم وقتلهم وامتنعوا ، ثم إن السياسة أرسلوا الى عبد العزيز يستنجدونه ويستحثونه ، فبعث اليهم ابن عفيصان في جيش طليعة امام ابنه سعود ، فلما أتاهاهم البشير قويت قلوبهم وثبتوا). ويقول ابن غنام أن رئيس السياسة سيف آل سعود دعا اليه رجال عشيرته الذين كانوا ممالئين لأصحاب الفتنة وحذرهم مغبة أعمالهم ، فارعوا وعادوا الى حظيرة الحق فأصبحت السياسة صفاً واحداً، أما زعيم الفتنة صالح النجار فاجتمع عنده السفهاء والأراذل من الرفعة والنعاثل وغيرهم من سفلة القبائل ، وأجمعوا رأيهم على ان يقتل كل فريق منهم المسلمين الموحدين الذين يقيمون بينهم ، وبدأ صالح النجار فقتل عبد الله بن حسن من الموحدين وجرح ابن كثير ، ثم نهض مع جماعته الى السياسة ، فعجزوا عنهم ، فأرسلوا الى

البلدان الشرقية يطلبون المدد ، وكان أهل المبرز مع السياسب وكان معهم كذلك فريق من العتبان رئيسهم مهوس بن شقير ، فقام صالح وجماعته بمحاربتهم ، ولكنه أدرك أن التغلب عليهم مستحيل وأن هزيمته آتية لا ريب فيها ، فأرسل إلى رئيس العتبان يطلب منه الأمان ، ففعل .

ثم وصل ابن عفيصان ، ومعه جنوده الشجعان على مائتي مطية ، فقتلوا من المتآمرين ستين رجلاً ، أكثرهم من أهل الجبيل ، وهرب رؤساؤهم الحملي والحبابي وابن عفالق إلى قصر علي بن حمد .

وسار ابن عفيصان إلى قرية « العمران » وحاصرها ، وفي خلال ذلك طلب رؤساء المتآمرين منه الأمان على أن يحلوا عن البلاد ، فأجابهم إلى طلبهم ، وذهبوا إلى العقير ثم الزبارة .

ويقول ابن بشر : (تزين ابن عفالق والحبابي على ابن حمد فحاصروهم ابن عفيصان ومن معه مدة أيام وضيق عليهم ، فطلب ابن عفالق والحملي والحبابي الأمان وأن يسيروا إلى عبد العزيز ، فأذن لهم وساروا إليه في الدرعية) .

سعود في الاحساء :

كانت فتنة الاحساء في شهر رمضان من سنة (١٢١٠ هـ) ، وفي شهر ذي القعدة من هذه السنة خرج سعود من الدرعية ، وعرج على (شقرا) حيث توافد إليه كثير من المقاتلة ، ثم سار إلى الاحساء فنزل قريباً من مزارعها المعروفة باسم (الرقيقة)^(١) وقضى هناك ليلته (وأمر مناديه ينادي في المسلمين أن يوقد كل رجل ناراً وأن يثوروا بالبندق عند طلوع الشمس ، فلما أصبح الصباح رحل سعود بعد صلاة الصبح ، فلما استووا على ركائبهم ثوروا ببنادقهم دفعة واحدة ، فأظلمت السماء وأرجفت الأرض وثار عيج الدخان في الجو وأسقط كثير من النساء

(١) في تاريخ الاحساء : الرقيقة تقع في الجهة الجنوبية من الهفوف .. تحول إليها كثير من سكان الهفوف وبنوا فيها البيوت الجميلة .. هواؤها جيد وماؤها عذب فرات .

الحوامل في الاحساء . ثم نزل سعود في الرقيقة المذكورة ، فسلم له ، وظهر عليه جميع أهل الاحساء على إحسانه وإساءته ، وأمرهم بالخروج اليه فخرجوا فأقام في ذلك المنزل مدة أشهر يقتل من أراد قتله ويحلي من أراد جلاءه ويحبس من أراد حبسه ، ويأخذ من الأموال ، ويهدم من المحال ، ويبنّي ثغوراً ويهدم دوراً ، وضرب عليهم الوفا من الدراهم وقبضها منهم ، وذلك لما تكرّر منهم من نقض العهد ومنابدّة المسلمين وجرتهم الأعداء عليهم ، وأكثر سعود فيهم القتل ، فكان مع ناجم بن دهنيم عدة من الرجال يتخطفون في الأسواق أهل الفسوق ونقض العهد ، وكان أكثر القتل في ذلك اليوم من المسلمين في الاحساء بالثلثنية والسوادية المجتمعة على الفسوق ، الذين فعلهم في الاحساء بأهوائهم كلما أرادوه فعلوه ، ولا يتجاسر أحد يأمرهم أو ينهائهم لكثرة تعديهم ، فهذا مقتول في البلد ، وهذا يخرجونه الى الخيام يضرب عنقه عند خيمة سعود ، حتى أفنّاهم إلا قليلاً . وحاز سعود من الأموال في تلك الغزوة ما لا يُعدّ ولا يُحصى .

فلما أراد سعود الرحيل من الاحساء ، أمسك عدة رجال من رؤساء أهله ، منهم علي بن حمد وآل عمران وبريكان ومحمد حسن العدساني ، القضاة ، ورجال كثير غيرهم ، وظهر بهم الى الدرعية وأسكنهم فيها . واستعمل في الاحساء (ناجم المذكور ، وهو رجل من عامتهم) .

قصة القطيف :

لا يذكر ابن بشر شيئاً عن معارك القطيف ولا ندرى سر هذا الإهمال . ويقول صاحب اللمع أن سعود ، بعد أن أتم إخضاع الاحساء ، باستثناء القسم الشرقي منها والقطيف ، رجع الى الاحساء مرة ثانية ، وقاتل صاحب بلاد الشرق (علي بن حمد) ، واقتحم عدداً من قراه ، فدخل على قلعة صغيرة وتحصن فيها مع أبناء عمومته ومائة مقاتل ، فحاصروهم سعود ورماهم بالمدافع وهدم طرفاً من بنيان القلعة ، ولما رأى علي الخطر المحدق به ، طلب الأمان ، فأمنوه .

وأرسل عبد العزيز بعد ذلك جيشاً الى القطيف ، بقيادة ابن عفيصان ، وعدده ثمانية آلاف مقاتل ، وكان على القطيف عبد الله بن سليمان الخالدي ، وعنده جيش كبير في القلعة ، فاستشار كبير الرعايا ، أحمد بن غانم القطيفي ، في الخطة الصالحة الواجب سلوكها أمام الموحدين ، بعد هلاك بني خالد ، وأوضح له أن مقاتلته قلائل ، وأنه يخشى أن يخرج من القلعة فلا تضبط ، ويخشى كذلك أن يبقى فيها فيحصرها الموحدون وليس عنده مدد ، وكل محصور مأسور .

فأجابه ابن غانم : (اخرج وقاتله ولا تخشَ على القلعة) .

فخرج عبد الله بن سليمان وحارب حرباً شديدة في مكان يقال له « الجارودية » ، يبعد عن القطيف ثلاث ساعات ، وقاوم اثني عشر يوماً ، ثم انهزم وهرب الى الصحراء ثم الى تاروت ، حيث تحصن في قلعتها مع نفر من رجاله .

ولما بلغ خبر ابن سليمان الى أحمد بن غانم ، حصن نفسه وجماعته في القلعة ، فجاء ابن عفيصان وطلب من أحمد تسليم القلعة ، فرفض بذلك ، ولكنه خاف من جنود المهاشير الذين كانوا معه في القلعة ، فاقتحم ابن عفيصان القلعة عنوة واستولى على القطيف وقتل كثيراً من أهلها ، وأما أحمد بن غانم وآل غانم الذين يبلغ عددهم ٤٠٠ فلم يسهم أحد بسوء .

ثم أرسل ابن عفيصان فرقة من رجاله الى تاروت فعجزوا عنها ، فكتب الى عبد العزيز ، فأجابه : سأرسل اليك مدداً قوياً من صالح الدوسري ، ففوض اليه البلد واخرج بنفسك الى عدو الله ورسوله ولا تقبل منه صرفاً ولا عدلاً .

وقد استطاع ابن عفيصان الاستيلاء على تاروت وكتب الى عبد العزيز بالفتح ، فكتب اليه عبد العزيز : أقبل الى الدرعية واجعل على القطيف أحمد بن غانم .

الحملات العراقية ضد نجد

سنة ١٢٠١ هـ .

ثويني يغزو القصيم :

في أول سنة ١٢٠١ هـ . سار ثويني برجال المنتفق ، ومن تبعهم من أهل الزبير وبوادي شمر وطى وغيرهم ، وقصد القصيم ، وكان عدد مقاتلته كبيراً جداً ، وكانت أسلحتهم ومؤنهم موفورة . ويقول ابن غنام : إن جيوش ثويني ما كان (يحصي عدتها إلا عالم الأسرار .. حافة بتلك المدافع والقنابل الكبار ، التي لا يقوم عندها حصن ولا جدار ، ولا يثبت عند رؤيتها قلوب الصغار والكبار) . ويقدر ابن بشر زهرة البنادق والمدافع وآلاتها في حملة ثويني هذه بسبعمائة حمل .

معركة التنومة :

نزل ثويني يجموعه أولاً عند قرية التنومة ، وحاصرها ، ورمأها بالمدافع أياماً ، ثم استولى عليها . ويقول ابن بشر : إن استيلاء ثويني على التنومة كان عنوة ، وإنه (استأصل أهلها قتلاً ونهباً ، قتل جميع أهلها إلا الشريد ، قيل : إن الذي قتل فيها مائة وسبعون رجلاً) .

أما ابن غنام فيقول : إن الاستيلاء على التنومة تمّ صلحاً بالمكر والخديعة ، وإن أهل التنومة قاوموا الغزاة ببسالة نادرة ، والتحفوا القمص والأكفان وصمموا

على الشهادة متطلعين الى ما عند الله من الجنان ، فلما عجز ثويني عن اقتحام قلعة البلدة بدافعه الكبار والصغار ، أرسل الى رجال القلعة بالأمان (وزين لهم النزول عن ذلك المكان ، والخروج الى سائر الأوطان .. وكان الواسطة بينهم عثمان حمد .. فرضوا بذلك .. ولما استقر ذلك الأمان بينهم ، دخلوا عليهم القلعة سريعاً ، فمجلوا للمسلمين حينهم ، وقتلوا غالب من وجد ، ولم ينجُ إلا من هرب وُفقد ، ونهبت تلك القرية) .

حصار بريدة :

سار ثويني ، بعد فراغه من التتومة ، الى بريدة . ويقول ابن غنام : إن مقام ثويني عند بريدة كان قصيراً جداً ، وإنه ناوش أهلها الحرب من بعيد ، ثم ارتجف من الخوف والرعب ، فانهزم وعاد أدراجه مسرعاً الى البصرة . وفي اعتقادنا ، ان رواية ابن غنام عن حصار كل من التتومة وبريدة غير دقيقة ، فلا يعقل أن يعجز ثويني عن قرية صغيرة مثل التتومة او يتخلى عن حصار بريدة ولما يميز عليه إلا أيام قلائل ، وهو الذي قطع من أجلها المسافات الشاسعة وجهاز الجيوش الكبيرة وأنفق الأموال وقامى الأهوال ، لمجرد .. أنه « ارتجف من الخوف » .

الواقع ان لعودة ثويني الى بلاده أسباباً اخرى ذكرها ابن بشر وابن عيسى ، فالأول يقول إن ثويني نازل بريدة (وحصل بينه وبين أهلها بعض القتال ، فبينما هو محاصرها أتاه الخبر بأنه وقع في أوطانه ، بعد ظهوره ، بعض الخلل ، فارتحل منها راجعاً) . ويوضح لنا ابن عيسى ما أشار اليه ابن بشر تليحاً فيقول : إن الخبر الذي بلغ ثويني هو أن (سليمان باشا ، والي بغداد ، عزله عن رئاسة المنتفق وولى مكانه حمود بن ثامر) .

خيبة ابن سرداح :

كان رئيس بني خالد ، عبد المحسن بن سرداح ، قد أقبل من الأحساء لمساعدة ثويني ومقاسمته النصر والغنيمة ، فبلغه وهو في طريقه اليه ارتحاله وعودته إلى

البصرة ، فعاد من حيث أتى ، ومات بعض رجاله من الظم^(١) .

متابعة مؤخرة ثويني :

يقول ابن غنام إن أهل بريدة ، بعد انسحاب ثويني ، خرج منهم سبعة رجال ولحقوا بمؤخرة ثويني ، لعلهم يصيبون غنماً ، ولكن فرسان ثويني أسرعوا اليهم وقتلوه ، وإن الأمير سعود جدّ هو أيضاً في أثر ثويني ، فأدرك أسلافاً من شمر . كبيرهم ابن جدى .. فقتل المسلمون منهم رجالاً .. وأخذوا ما عندهم من اثاث وأمتة وزلال وغنم وآبال ، ورجعوا بأحسن الآمال .

مصير ثويني والتجأؤه الى الدرعية :

يتتبع ابن بشر أخبار ثويني ، بعد عودته إلى العراق ، فيقول انه نزل بلد الزبير ، فجاء اليه متسلم البصرة للسلام عليه ، فحبسه وأخذ خيله ، وركب ساعته إلى البصرة ودخل السرايا وضبطها واستولى على البلدة ، ثم طلب من أعيانها أن يكتبوا إلى السلطان ليكون أميراً وباشاً في بغداد .. فأرسلوا كتاباً بذلك مع مفتي البصرة إلى السلطان العثماني في استانبول ، فلما قرأ السلطان الكتاب عرضة على وزرائه ، فقالوا له : هذا اعرابي متغلب .. فغضب السلطان وطرد المفتي ..

ولما علم والي بغداد ما كان من ثويني ، سار اليه وقاتله ، فانهزم ثويني هزيمة منكرة ، وهرب بمن بقي معه إلى « الجبراء » قرب الكويت ، ثم إلى ديرة بني خالد في الصمان .

وفي عام ١٢٠٤ هـ . ، كما يقول ابن بشر ، سار حمود بن ثامر ، شيخ المنتفق الجديد إلى ثويني وأخذ محله وخيامه وقتل عدداً من رجاله .. فهرب ثويني وقصد إلى بني خالد الذين ساعدتهم في محنتهم فلم يحسنوا وفادته . ولم يرَ ثويني بعد ذلك كله ملجأ له إلا الدرعية ، التي أراد بها الشر غير مرة ، فقصدها ونزلها ، فأكرمه عبد العزيز كثيراً وأعطاه مالاً وخيلاً وابلاً ..

(١) ابن غنام .

وفي (تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد) لإبراهيم بن صالح بن عيسى ،
إن ثويني ومن معه ساروا من الكويت « لقتال حمود بن ثامر » فالتقوا به في
البرجسية بالقرب من بلد الزبير ، وحصل بينهم قتال عظيم وصارت الهزيمة على
ثويني واتبعه وقتل منهم عدد كبير ، وانهزم ثويني ومعه عدة رجال إلى
الدرعية ..

وفي (تاريخ الكويت السياسي) لحسين خلف الشيخ خزعل ، إن ثويني
غادر الدرعية وتوجه إلى الكويت وحل ضيفاً على أميرها الشيخ عبد الله الصباح
وعرض عليه ما كان يدور في خلدده من أمر ابن أخيه الشيخ حمود بن ثامر ،
فأشار عليه الشيخ عبد الله الصباح بالذهاب إلى بغداد لطلب العفو من الوزير
سليمان باشا ، والي بغداد ، فقبل ثويني نصحه وانصاع لرأيه السيد « .

سنة ١٢١١ هـ .

ثويني يقود حملة كبيرة على الدرعية ..

ولكن رجالاً مغموراً يقتله وترجع الحملة بالخزي :

أثار استيلاء عبد العزيز على الأحساء غضب السلطان العثماني ، الذي كان
حريصاً على استبقاء هذه المقاطعة الغنية ضمن ممتلكاته ، فكتب إلى والي بغداد
بأمره بتجهيز حملة لمحاربة الدرعية واسترداد الأحساء ، ولكن والي بغداد سليمان
باشا اصطنع الأعداء الملفة لتأخير موعد هذه الحملة ، فأعاد السلطان الطلب مرة
ثانية ثم ثالثة ، فأذعن الوالي أخيراً لأمر السلطان ، خوفاً على نفسه من العزل
والانتقام .

وقد يتسائل أحدنا عن السر في التجاء السلطان العثماني إلى واليه وصبره عليه ،
بينما كان يجب عليه أن يأخذ هو زمام المبادرة ويتحرك فوراً يحيوشه القوية ..
والجواب هو: إن البلاد العثمانية كانت تعاني الشيء الكثير من الأخطار الداخلية
والخارجية ، فقد حاربتها روسيا والنمسا ، ثم تبعها فرنسا فدخلت جيوشها
بقيادة نابوليون بوناپارت مصر .. وإلى جانب هذه الاعتداءات الأجنبية قامت

الفتن في بعض المناطق العثمانية المأهولة بعناصر غير تركية .. وكل ذلك أضعف هيبة السلطان وسلطته وقوته ، وسلبه مقدرته على التحرك .
 جهز سليمان باشا (عام ١٢١١ هـ) حملة كبيرة لمحاربة نجد ، اختار لقيادتها الشيخ ثويني ، الذي عرض نفسه على الوالي والتمس منه أن يعيده الى مشيخة المنتفق ويكمل اليه حرب نجد ، فيضمن له .. استرداد الاحساء وتهديم الدرعية .
 رواية ابن غنام .. ومناقشتها :

يقول ابن غنام : إن أعداء الدعوة ، من علماء وغيرهم ، هم الذين طلبوا من والي بغداد تجهيز الحملة ، وهم الذين نصحو له باختيار ثويني قائداً لها ، لما عُرف عنه من الشجاعة والسطوة ، خلال وقائعه المشهورة في القصيم وغيرها .. فعمل الوالي بنصحتهم واستدعى ثويني اليه وسأله رأيه في حرب نجد ، فأجابه ثويني أنه مستعد لحربها وتدمير عاصمتها الدرعية ، فولاد قيادة الحملة وأعادته الى مشيخة المنتفق ، وعزل حمود بن ثامر عنها .

ويبدو لنا أن رواية ابن غنام تنطوي على خطأين :
 الخطأ الأول — قوله أن الحملة طلبها العلماء من الوالي كأنها مسألة دينية ، والحقيقة هي أن الحملة تمت بأمر السلطان لاعتبارات سياسية ومالية .
 ويتبين لنا هذا الأمر بوضوح من قراءة كتب التاريخ العثماني ، التي صورت لنا غضب السلطان الشديد من ضياع الاحساء ومواردها ، فكتب الى الوالي يأمره باستردادها قبل أن يتحرك أعداء الدعوة .

الخطأ الثاني — قوله أن الوالي استدعى ثويني اليه بناءً على نصيحة العلماء .. والحقيقة هي أن ثويني هو الذي عرض نفسه على الوالي .
 يقول مؤلف « دوحة الوزراء » إن استيلاء عبد العزيز على الاحساء وقتله أكثر من مائتي رجل من أهلها ثم استيلاءه على القطيف والمعير وما جاورهما وإلحاقها بالقطيف ، واقطاعها لاتباعه وأنصاره ، هذه الأمور كلها (أزعجت الشيخ ثويني وأغضبته ، فاستأذن للخروج واسترداد هذه البلاد من الوهابيين ، وقد وافقت الحكومة على ذلك) .

وهكذا يشير المؤرخ في رفق إلى أن ثويني هو الذي طلب من الوالي أن يأذن له بمحاربة النجديين .. ولكن ابن بشر أكثر جزماً وصراحة في إظهار موقف ثويني وتطرحه على الوالي ، فقد ذكر في تاريخه أن ثويني بعد رجوعه من الدرعية إلى العراق ، (رمى بنفسه على سليمان باشا ، وأقام عنده مدة وهو يحاول صاحب العراق أن يوليه على المنتفق ثم يسير إلى نجد ويخربها ويقتل أهلها فوافق على ذلك صاحب العراق .. وجعله والياً على المنتفق وعزل حمود بن ثامر) .

حشود الثويني :

قضى ثويني أربعة أشهر أو أكثر في اعداد الحملة ، وقد أسميناها الحملة « العراقية » لأن رجالها كانوا من حاضرة العراق وباديتها ، وإن كان الأمر بها سلطان الترك ..

سار ثويني من المنتفق إلى البصرة ، فاستقبل فيها استقبال الملوك ، وتبارى العلماء والشعراء في القاء الخطب والقصائد بين يديه ، وفي هذا « الجو » الحماسي ضم ثويني إلى جيشه المؤلف من عربان المنتفق رجالاً من البصرة والزيبر وبوادي الظفير وكذلك بوادي بني خالد وكان على رأس هؤلاء « براك بن عبد المحسن » الذي كان تولى إمارة الأحساء لعبد العزيز ثم هرب منها ، وأقيم غيره أميراً عليها . ويقول مؤلف الدوحة ان والي بغداد أوعز إلى متسلم البصرة أن يسند ثويني (بما عنده من العساكر النظامية ومن الرماة البلوج والمدفعية ، وكذلك أرسلت إليه الدولة العثمانية أحد اغوات بيروت المسمى أحمد آغا الحجازي زادة لمعاونته) . ويقول ابن بشر ان بني خالد ساروا كلهم مع ثويني ما عدا المهاشير ، وان ثويني نزل على ماء « الجهراء » قرب الكويت (فأقام عليها نحو ثلاثة أشهر وهو يجمع البوادي والعساكر والمدافع وجميع آلات الحرب من البارود والرصاص والطعام وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر . وركب عساكر أيضاً في السفن من البصرة ومعهم الميرة تباريه في البحر ، وقصدوا ناحية القطيف ، واتفقت له قوة هائلة) ...

حشود نجد لمواجهة ثويني :

يصف لنا ابن غنام بأسلوبه المسجع قوة ثويني العظيمة ، وجوعه التي ضاقت « منها الأودية والفجاج والوهود .. والقنابل والقنابر والمدافع التي أصواتها كالرعود » ، ثم يقول : (لما تحقق عبد العزيز الخبر عن الثويني .. رفع يديه لمولاه .. ودعاه : يا من .. يكشف السوء عن المكروبين .. أكفنا بحولك وقوتك المعتدين .. وشتت شملهم أجمعين) .

ثم .. أمر عبد العزيز سعوداً والمسلمين بالتجهز والخروج لمناضلة المبطلين ، وأرسل الى البلاد كافة ، دانيها وقاصيها ، يأمرهم بالتجهز ، فلبوا بدعوته وبأدروا الى الطاعة وخرجوا للجهاد .

— لكن هذه المحنة فضحت كثيراً من الناس لم يستطيعوا الصبر على البلاء ، فزين لهم الشيطان أن يرددوا فنةضوا العهد — .

خرج سعود بمجموعه في النصف الأول من شوال سنة ١٢١١ هـ . ، وأرسل فريقاً من جيشه وأمر عليهم محمد بن معيقل وسيّره حتى نزل بطرف الصمان ، ولما علموا أن جيش ثويني يريد أن يسبقهم الى (الطف) حشوا السير اليه فسبقوه ونزلوا عليه . وأقام سعود في (الحفر) زمناً ، يكتاب قبائل الاعراب وفرق الإسلام وبلدانه وجميع من دان بالتوحيد من أهل الجنوب والشمال ، يطلب منهم النصرة والعون ، فتتابعت عليه الامداد ، فكان كلما جاءته جماعة أرسلهم الى (الطف) ليلحقوا بجيش المسلمين هناك ، حتى اجتمع من الخلق ما لا يكاد يحيط به الحصر .

تلك رواية ابن غنام ، وهي تردّ الى سعود وحده إمارة الجيش منذ اللحظة الاولى . وأما ابن بشر فيقرر لنا أن عبد العزيز استعمل ابن معيقل أميراً على أهل الخرج والفرع ووادي الدواسر والافلاج والوشم وسدير والقصيم وجبل شمر ، وأنه نزل بيجوشه (الطف) في ديرة بني خالد . وأما سعود فقد خرج بعد ذلك بأهل العارض واستلحق غزواً من البلدان ونزل (التنهات) ، الروضة المعروفة عند الدهناء ، ثم رحل عنها الى الحفر ، الماء المعروف بمحفر العتك .

ويضيف ابن بشر إلى ذلك أن عبد العزيز أمر أيضاً ما لديه من البوادي من مطير وسبيع والعجمان والسهول وغيرهم من بوادي نجد يحشدون بأهلهم ومواسيهم ويقصدون ديرة بني خالد ويتفرقون في أمواها وينزلون ويثبتون في وجه هؤلاء الجنود ، ففعلوا ما أمروا به .

تحركات الجيشين :

سار ثويني بجموعه من الجهراء الى الاحساء قاصداً الطف ، حيث تجمعت فرق نجدية يقودها ابن معيقل ، فلما بلغ هذا الأمير مسير ثويني نحوه تراجع يحنوده عن الطف وانحاز الى ام ربيعة وجودة ، ثم تحرك ثويني يحنوده ونزل (الشباك) ، موقع ماء ، فوق شيء من الوهن في صفوف النجديين ، ولكن الجيشين لم يلتحما في قتال سافر ، وبقياً مدة طويلة يتفاديان المعركة الحاسمة ، وربما استطعنا تقدير هذه المدة بأربعة أشهر او نحو ذلك ، كانت شبه هدنة غير معلنة ، ولذلك استطاع بعض مقاتلة نجد خوض معارك جانبية مع قوم من (المائث) في القطيف ، وأعراب من شهران ، ثم سار بعضهم الى جزيرة المائث ، خائضين اليها البحر بخيولهم ، ولعل هذه الغزوة المجيبة أول غزوة برية بحرية يخوضها رجال نجد ^(١) !

(١) لخص ابن غنام الثلاث الغزوات التي قام بها رجال الدعوة ضد المائث وعرب شهران ، قال :

١ - غزا ابن معيقل مع جيش من أهل الأحساء والمهاشير وأهل نجد وقصدوا جزيرة المائث فلما اجتازوا اليها الصحراء وبدت لهم الجزيرة ، خاضوا اليها البحر ، ولم يغز المسلمون قبل هذه الغزوة في البحر ، وخاضت معهم بعض الخيل ، فلما وصلوا ساحل الجزيرة أغاروا على أهلها فقتلوا منهم عدة رجال وأخذ المسلمون ما بها من الأموال .

٢ - أرسل سعود رسلاً نحو القطيف ، ومعهم ركب آل مرة ، فوجدوا هناك قوماً من المائث فأخذوهم على غرة وقتلوا منهم خمسة وعشرين رجلاً وأخذوا سلاحهم .

٣ - سار ربيع بن زيد ، أمير وادي الواسر ، يريد جهة الحجاز ، فأغار على فريق يقال لهم أبو البؤس ، من أعراب شهران ، فهزمهم وقتل منهم نحو خمسين رجلاً وأخذ المسلمون جميع المحلة والغنم والابل .

مقتل ثويني وزوال الغمة :

يقول ابن بشر ان مجرد نزول ثويني بجيوشه على (الشباك) أوقع الخلل في بوادي المسلمين ، ولم يكن قد بدأ قتالاً بعد ، ولكن الله سبحانه « أراد الفرج بعد الشدة والقصر بعد اليأس ، فتسلط على ثويني عبد اسمه (طعيس) فقتله ، وكان هذا العبد فارق براك بن عبد المحسن ، حين نقض العهد ، فأتى إلى بوادي المسلمين وغزا مع ركب جيش منهم .. فوافقه أناس من قوم ثويني ، وأخذوا الركب والعبد .. وصار مع بني خالد عند براك ، فصمم عزمه على قتل ثويني وكان قد أظهر ذلك عند بعض من حضره ، وهم يستهزئون به ، فحين نزل ثويني الشباك المذكور وجلس مجلسه .. أقبل العبد من خلفه فطعنه بين كتفيه طعنة واحدة ليست نافذة ، ولكن الله جعل فيها حتفه ، وقتل العبد من ساعته ، وحمل ثويني إلى الخيمة حيث مات ، وجعلوا أخاه ناصراً أميراً مكانه » (١) .

رواية مانجان عن القاتل :

يقول مانجان ان العبد طعيس كان لجأ مع جماعة من أهل الأحساء المتمسكين بعقيدتهم الى الدرعية ، وخدم عبد العزيز ، ثم انضم إلى جيش الأمير سعود ، ثم خرج واستأسر لفريق من بوادي الظفير ، وبهذه الوسيلة استطاع الوصول الى معسكر ثويني ، فترصد له حتى رماه في مجلسه بحربة في صدره كان فيها هلاكه وقد استل ثويني قبيل موته سيفه وضرب به قاتله ضربة ، ثم أجهز عليه الحاضرون ..

(١) يقول ابن غنام ان مقتل ثويني وهزيمة جيشه وقعا عام ١٢١١ هـ . والصحيح أنها وقعا عام ١٢١٢ ، وفي ابن غنام ان طعيس كان من جماعة براك بن عبد المحسن وان بني خالد هددوا براك بالأسر والاعتقال إذا لم ينضم إلى ثويني ، ففعل خوفاً .. بينما هرب جماعة من رجاله المخلصين لعقيدتهم ومنهم طعيس الى الدرعية ، وان طعيس - كما في رواية مانجان - غزا مع مناع أبا رجلين فأسره رجال من الظفير كانوا مع جيش ثويني وأخذوه معهم ..

رواية الدوحة :

وفي دوحة الوزراء : (بينما كان ثويني جالساً في خيمته الكائنة قرب خيمة محمد عريعر ، دخل عليه رجل عربي أسود ، وبيده حربة حديدية ، وهتف : « الله أكبر » ، ثم قذف بها على صدره فسحقته ، وخرج رأسها من ظهره ومات على الأثر .

أما القتال فقد تجمعوا عليه وقتلوه حالاً ، ولم يعرف هل هو من أتباع عبد العزيز الوهابي ، أو أنه من جماعة شيوخ بني خالد .

أما محمد العريعر وبراك فقد كان كل منهما يطعم بالاستيلاء على الأحساء وجعلها تحت حكمه . ومهما قيل في هذه الحادثة فإنها قلبت الخطأ رأساً على عقب ، وسببت عودة هذه القوات من حيث أتت ، وفيها هم في طريق عودتهم هجم عليهم الوهابيون وأوقعوا بهم قتلاً وفتكاً ذريعاً ، أما اخوان الشيخ ثويني وعشائر المنتفق فقد القوا ما بأيديهم من المدافع واكتفوا بإنقاذ عوائلهم وأنفسهم وفروا إلى ديارهم . وأما العسكر البلوحي فقد وقع الوهابيون به ضرباً وأسراً واستولوا على ما معه من المدافع والعتاد وغير ذلك وذهبوا بها غنيمة باردة إلى الدرعية .

لقد وصلت أخبار هذه الحادثة إلى بغداد سنة ١٢١٢ هـ . فكان وقعها شديداً ..) .

رواية بريدجس :

ويزعم (بريدجس) أن الأمير سعود كان على علم سابق بنية طعيس وعزيمته ، لأنه تقدم بجيشه نحو الغزاة فور وقوع القتل .

ولم يذكر بريدجس المصدر الذي نقل عنه ، ولا يمكن بناء حكم تاريخي على مجرد التوهم .

والأرجح عندنا ، ان كان يمكن الترجيح بين (وهين) ان يكون برارك هو الذي شجع العبد على فعلته ، وإن كان التفسير الأمثل هو أن العبد إنما أقدم على فعلته نصراً لدينه .

بيعة طعيس ذهبت مثلاً :

وقد أصبح عمل طعيس ، أي إقدامه الجريء على قتل ثويني في ظروف لا يرجو فيها لنفسه خلاصاً من القتل والتمثيل ، مثلاً يُضرب . قال مؤلف تاريخ الاحساء : (وبهذا يعرف معنى المثل العامي ، فيقولون للرجل المغامر : بايع بيعة طعيس ، يعني اندفع اندفاع طعيس في قتل ثويني) .

انحياز براك وأثره في هزيمة المعتدين :

لم يكن مصرع ثويني وحده سبب هزيمة جيوشه المريعة ، فقد كانت تستطيع التماسك ومتابعة القتال او حفظ شرفها على الأقل ، فهناك عنصر يجب ألا يغفل كان له أثره في تخاذل المعتدين ، وهو انحياز براك برجاله الى جيش المسلمين بعد مقتل ثويني . ويقول ابن غنم : إن براك كتب الى كل من عبد العزيز وسعود أن انضموا الى ثويني لم يكن برضائه وإنما أكره عليه وأنه سيتحين الفرص للحوق بالمسلمين .

ويقول ابن بشر : إن براك ندم على متابعتة لثويني ، وعرف أن ثويني — إن استولى على الاحساء — لن يؤثر على أولاد عريعر أحدا .

ويقول مانجان : إن الأمير سعود كان كتب الى براك أن ينضم اليه في قتال ثويني ، فأجابه : الأفضل أن أكون مع ثويني ، ثم انسحب من معسكره عند احتدام المعركة ، وبذلك تقع الفوضى في صفوفه .. فلهزيمة .

وقد نفذ براك وعده فور مقتل ثويني ، فانحاز هو وجماسته الى الجيش الإسلامي الذي كان يقوده حسن بن مشاري ، فأوقع ذلك الرعب والهلع في رجال ثويني ، فلادوا بالهرب وتخففوا من أحلامهم الثقيلة كالدافع ونحوها ، ولكن جنود عبد العزيز تبعوهم وغنموا منهم غنائم هائلة .

النصر المؤزر بعد مصرع ثويني :

تحول الخطر الداهم بمصرع ثويني وما تبعه من انحياز براك ، الى نصر مؤزر للمسلمين ، كانت له رنة فرح في نجد وعند رجال الدعوة في كل مكان ، بينما استقبله

خصوم الدعوة بالوجوم والهلل والحزن . ويقدر ابن غنام ما أخذه المسلمون من رجال ثويني بمائة ألف رأس من الغنم وثلاثة آلاف من الإبل وغير ذلك . ويقول ابن بشر : (كان قتل ثويني رابع المحرم أول سنة ١٢١٢ ، وسميت هذه الواقعة « سجية » ، فلما فرغ سعود من قسمة الغنائم سار ونزل شمال الأحساء وخرج إليه أهلها وبايعوه على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ، وقدم فيه وآخر ، ونهى وأمر ، وأخذ من الأموال ما لا يحصر) .

مصرع ثويني في « المقامات » :

يتخذ الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ مصرع ثويني دليلاً من جملة الأدلة على رعاية الله تعالى للمسلمين في نجد ، فقال في إحدى مقاماته : (. . وأما وزير العراق فسار مراراً عديدة بما يقدر عليه من الجنود والكيد الشديد ، وأجرى الله عليهم من الذل ما لا يخطر ببال أن يقع بهم ما وقع ، من ذلك أن ثويني في مرة من المرات مشى يجنوده إلى الأحساء ، بعد ما دخل أهلها في الإسلام في حال حدائتهم بالشرك والضلال ، فلما قرب من تلك البلاد أتاه رجل مسكين لا يعرف ، من غير مملأة لأحد من المسلمين ، فقتله ، فأت ، فنصر الله هذا الدين برجل لا يعرف ، وذلك مما به يعتبر ، فانفلتت تلك الجنود وتركوا ما معهم من المواشي والأموال خوفاً من المسلمين ورعباً ، فغنمها من حضر ، وقد قال الشيخ حسين بن غنام في ذلك :

تقاسمت الأحساء قبل منالها

فللروم شطر والبوادي لها شطر (١)

(١) هذا البيت من قصيدة طويلة لابن غنام ، يقول فيها أيضاً :

تلا نور الحق وانصدع الفجر	وديجور ليل الشرك مزقه الطهر
لقد أقبلوا ، والأرض ترجف منهمو	رقد أدبروا ، يقفهم الذل والصغر
رمى الله أحزاب الضلال كما رمى	ذوي القيل إذ أعياء عن مكة الحصر

انصاف ثويني :

لم يكن ثويني موفقاً في مسيره الأخير الى الاحساء ، ولكننا لا نستطيع أن نجرده من كل فضل سابق بسبب هذه الفعلة . يقول ابن سند :
(في سنة ١٢١٢ هـ . قتل « الشقي طعيس » ثويني بن عبد الله بن مانع القرشي الهاشمي العلوي الشبيبي ، فمات غريباً شهيداً .. فحُمل وُدُفن في جزيرة العماير ، وعند ذلك سقط في أيدي الجيوش التي معه وانفلقوا راجعين ، فقتلهم جيش ابن سعود ، وما زالوا معه في مكابدة الشدائد حتى نزلوا ماء يسمى « سفوان » ، فأمل اخوان ثويني أن يلموا الجيش مرة ثانية ويعودوا لغزو الوهابيين كما كان في نيّة ثويني ، إلا أن الباشا صرف نظرهم عن هذا الفكر) .
ونحن لسنا مع ابن سند حين يصف طعيس بأنه شقي ويصف ثويني بأنه شهيد ، ولكننا معه حين يمتدح ثويني لأنه حارب العجم ، الذين احتلوا البصرة مرتين وارتكبوا فيها من الفظائع ما يعجز عنه الوصف .. ووفقه الله في التغلب عليهم مرتين ^(١) .

الحملة العراقية الثانية بقيادة الكيخيا علي ^(٢) :

كان لهزيمة الحملة العراقية الأولى على نجد ، بعد مصرع قائدها ثويني ، أثر سيء جداً في نفس والي بغداد ، فأرسل إلى السلطان العثماني تقريراً يذكر فيه أسباب اخفاق الحملة ووعد بتسيير حملة جديدة أقوى منها تحقق النصر المنشود .

(١) وفي (تاريخ الكويت السياسي) ان سليمان باشا أعطى ثويني، حين ولاه رئاسة المنتفق ، خمسين الف قرش ومائة ناقه ومائة فرس ومائة خلعة ، فما خرج من بغداد إلا بعد أن فرق كل ما أعطاه .

(٢) - الكتخدا - أو الكيخيا - : لقب يستعمله الأتراك بمعنى النائب ، ويقصد به هنا نائب الوالي ومساعده - وعلي باشا ، نائب والي بغداد ، كما يقول دليل الخليج الفارسي ، عبد معتنق من الكرج زجورجيا ، زوجه مولاه سليمان بكته واتخذته نائباً له ، وقد وصفه بعضهم بأنه جاهل وفظ غليظ عنيد ، ولكن بريدجس يقول انه شاب شجاع صاحب همة ، وقد يكون جاهلاً بأصول الحرب .

وفي سنة ١٢١٣ هـ . أتمّ الوالي تجهيز هذه الحملة ، وعقد رايته لنائبه الكتخدا علي باشا .

ويقول مؤلف الدوحة ان الكتخدا علي ، تألم كثيراً هو أيضاً من اخفاق الحملة ، فأقنع الوالي سليمان باشا بأن يكل اليه قيادة الحملة الجديدة ، فوافق علي ذلك (وجهزه بكل ما يحتاج اليه من أموال وعتاد وعساكر ولوازم ، وبعد اكمال استعداداته غادر بغداد يجيش لجب في اليوم ٢٢ من ربيع الآخر ١٢١٣ هـ . حتى بلغ البصرة وعسكر في الرباط مدة وجيزة وسافر بعدها نحو الزبير ، وقد جند في طريقه حوالي خمسة آلاف مقاتل من النجادة ، وسار

(في جحفل سترالعيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان)
ويقول ابن سند في مختصره ، ان بين الذين اشتركوا في حملة الكيخيا : ابراهيم ابن ثابت ، ابن وطبان ، ومعه جم غفير من أهل الزبير - وابن وطبان هذا يلتقي آباؤه بآباء آل سعود ، ويتهمه ابن سند بمالأة السعوديين - واشترك في الحملة أيضاً ناصر الشبلي أمير عرب عقيل ، وحمود بن ثامر بن سعدون بن مانع أمير عرب المنتفق ، وفارس الجربا أمير شمر ، كما صاحب الكيخيا : الشيخ محمد بن عبد الله بن شاوي الحميري ، أحد دهاة العرب .

ويصف لنا ابن بشر قوة هذه الحملة الجديدة ، فيقول انها كانت تتألف من عساكر كثيرة من (العراق والأكراد والمجرة والبصرة .. وعربان المنتفق مع رئيسهم حمود بن ثامر ، وآل بعيج والزقاريط وآل قشعم وجميع بوادي العراق وبوادي شمر والظفير ، واتفق له قوة هائلة من المدافع والقنابر وآلاتها وآلات الحرب ، وسار معه أيضاً أهل الزبير وما يليهم ، فاجتمع جموع كثيرة مما وراء العراق إلى نجد ، حتى قيل إن الخيل الذي يعلق عليها ثمانية عشر ألفاً) .

ويقول ابن سند في سبائك المسجد ، ان الكيخيا (أرسل إلى آل خليفة برسל وصحيفة يروم منهم النجدة والمناصرة والعدة .. فأرسلوا اليه .. هدايا ، وصحائف منطوية على وصايا) .

وفي (اللمع) ان الحملة سارت إلى جزيرة بلبول بقرب الكويت ، وكان الناس يصلون اليها مع دوابهم خلال الجزر ، إذ تنحسر المياه بينها وبين البر ، وقد استعملت الحملة مائتي سفينة استأجرتها من عتوب الكويت ومائتي سفينة من أهل أبي شهر وكنكون وكانت هذه السفن محملة بالبندق والمدافع والبارود والمشاة ..

سبب اشتراك المنتفق وشمّر في الحملة :

يبدو أن لاشتراك شمّر والمنتفق في هذه الحملة الجديدة أسباباً خاصة ، وقد كشف لنا ابن بشر عن سبب نقمة الشمريين ، في كلامه عن مسير الأمير سعود عام ١٢١٢ هـ . إلى السماوة ، لأن عيونه أتوه بعد غارته على سوق الشيوخ في العراق — وأخبروه (بعربان كثيرة مجتمعين في الأبيض — الماء المعروف قرب السماوة — فوجّه الجيوش وأغار عليهم على مائهم ذلك ، وكانت تلك البوادي كثيرة من بوادي شمّر ، ورئيسهم مطلق بن محمد الجربا ، الفارس المشهور ، ومعه عدد من قبائل عربان آل ظفير وآل بعيج والزقاريط وغيرهم ، فحصل بينهم قتال شديد وطراد خيل ، ثم حمل عليهم المسلمون فدهمهم في منازلهم وبيوتهم ، فقتل عدة رجال من فرسان شمّر والظفير وغيرهم وقتل ذلك اليوم مطلق الجربا المذكور ، وكان على جواد سابق ، وهو يقلبها يمينه المسلمين ويسرتهم ، فعثرت به جواده في نعجة ، وأدركه خزييم بن لحيان ، رئيس السهول وفارسهم فقتله ، وغنم المسلمون محلتهم وأبلهم ومتاعهم .)

أما المنتفق فلم يشر ابن بشر إلى غارة سعود عليهم سنة ١٢١٢ هـ . ولكن ابن سند ذكر في مختصره ان سعوداً غزا في تلك السنة أطراف المنتفق ، فصبح القرية المعروفة باسم العباس ، وقتل منها وما حولها خلقاً كثيراً ، وحرق وكر راجعاً .

سير الحملة إلى الأحساء :

لم يشأ الكيخيا أن يسير بمحمله إلى الدرعية ، عاصمة عبد العزيز ، لأن الطريق

اليها وعمر، فقرر المسير إلى الأحساء والاستيلاء عليها أولاً ، والإقامة فيها قليلاً، ثم التوجه بعد ذلك إلى الدرعية ...

ويقول مؤلف الدوحة ان الكيخيا كان ينوي اتخاذ الأحساء (قاعدة لحركاته كي يستطيع أن يجلب منها بسهولة ما يحتاج اليه بصورة تدريجية. وهكذا تحرك بمن معه حتى وصل محلاً يقال له (الروضتين) ، لا يدل اسمه على مسماه ، إذ لا ماء فيه ولا رياض ، وعليه فقد جاوزه إلى « الجهرة » ونزل فيها ، ولكن ماءها كان مالحاً وغير صالح للشرب والطريق وعرة لا يمكن مواصلة السير فيها ، فظل حائراً في أمره ، وعندئذ انبرى شيخ الكويت لمساعدة الحملة ، بأن استأجر بعض السفن البحرية من مكان يسمى العجير ، نقلوا بها بعض المعدات والذخائر الثقيلة عن طريق البحر ، وواصلت الحملة سفرها بمشقة حتى بلغت أول قرية من قرى الأحساء وهي المساة « نطاع » ، فأنأخوا فيها مدة عشرة أيام ، ثم تحركوا حتى اقتربوا من مدينة الأحساء نفسها) .

استسلام الهفوف والمبرز ومقاومة حصونهما :

لما اقترب الكيخيا من الأحساء أحب دخولها صلحاً فكتب إلى أعيان البلدة يستميلهم اليه ، فأجابوه بالقبول والطاعة ، وكذلك فعل أهل المبرز ، وهي بلدة قريبة من الهفوف (قاعدة الأحساء والتي تسمى أيضاً باسم المنطقة كلها: الأحساء). استسلم أهالي الهفوف والمبرز ، ولكن رئيس حصن الهفوف ، الأمير سليمان ابن عفيصان ، ورئيس حصن المبرز الأمير سليمان بن ماجد رفضا الاستسلام ، هما ومن معهما من رجال نجد، وبفضل مقاومة هذين الحصنين اضطر الكيخيا إلى فك الحصار عنها ومغادرة الأحساء ..

بطولة المرابطين :

كان حصن المبرز يعرف باسم (صاهود) الهدف الأكبر للحملة ، ويقول ابن بشر : إن حصار الحملة لهذا الحصن دام من سابع رمضان إلى السابع من ذي القعدة ، أي شهرين ، وان العدو كان (يحاول هذا الحصن بكل الأسباب ، من

القتال وسوق الأبطال ، والرمي بالمدافع والقناير الرمي العظيم ، الذي هدم غالب الحصن وكاد يفنيه لولا وقاية الله تعالى . . وقد حفروا عليه حفوراً وملاوها بالبارود وثوروا عليها وبنوا بنياناً عالياً يرمون منه وسط القصر ، وعملوا زحافات للجدران وسار خلفها الرجال بالمدافع وهدموا بالمدافع جدرانه وبيوته ولكن حماة الحصن كانوا يبنون ما يخربه الأعداء ويسدون الثغر التي يحدثها رمية بنيطات التمر) . .

ويذكر ابن بشر ان حماة الحصن كانوا نحو مائه رجل فقط . . (أكثرهم من بلدان نجد ، مع الشجاع الماجد سليمان بن محمد بن ماجد ، من أهل تادق . . وألقى الله عليه ثباتاً عظيماً هو ومن معه ، ولم يعبأوا بتلك الجنود ولم يعطوا الدنية لعدوهم ، فلما طال المقام على تلك العساكر والجموع وبطل كيدهم ، وقع في قلوبهم الملل والتخاذل وألقى الله في نفوسهم الرعب وزلزلوا وأرتحلوا راجعين وتركو الأحساء ، وانهزم معهم أهل الأحساء الحائنون ، لا يلوي أحد على أحد ولا والد على ولد ، وتركو محالهم وأمتعته واماوهم .

ولما أراد الكيخيا ومن معه الارتحال ، جمعوا سلالهم وزحافات الخشب والجذوع التي أعدوها لحفر الحفور والجدران ، وشيئاً من متاعهم وطعامهم ، وأشعلوا فيها النيران .

ولما وصلوا « القطار » المعروف عند حويزات الأحساء وقع في قلوبهم الرعب وخافوا من سعود وجيوش المسلمين فدفنوا رصاص مدافعهم . . وأحرقوا بعض خيامهم وراياتهم .

وأما الذين امتنعوا على الكيخيا في قصر الهفوف فرئيسهم ابن عقيصان ومعه عدة رجال من أهل الخرج وغيرهم ، وليس عليهم معظم حصار وحاولهم مراراً عديدة ولم يحصلوا على طائل) .

رواية ابن سند :

ويقول ابن سند في مختصره : وأطاع الكتبخدا غالب سكان المبرز ، وفي اثناء الحصار غزا حمود نجداً فأغار على سبيع فقتل منهم وغنم إبلاً وشاءاً جمّاً ،

ومعه في تلك الغزاة فارس الجربا وابن أخيه بنية الجربا - وبنية هذا أحد من
اشتهر بين العرب بالكرم والشجاعة والنخوة - ولما رجع حمود من تلك
الغزوات وورد على الكتخدا بالغنيمة قويت همته وحاول فتح القلاع .. ولكن
الأطواب لم تعمل شيئاً في اسوار الأحساء وذلك لمتانة اسوارها، فلما طالت مدة
الحصار ولم يمكن للكتخدا الفتح وهدم القلاع ، واشتد القحط على العسكر ،
فرّ الكتخدا هارباً مع عسكره قاصداً العراق . وفرّ أهل الحسا مع جيش
الكتخدا خوفاً على أرواحهم وأعراضهم وفروا في أسوأ حال من تشتيت الحال
وعدم وجود الرواحل فكانوا مشاة حفاة جائعين عطشى، يحدّون في السير خوفاً
من ابن سعود يدركهم .. تاركين الأموال والديار ، سالكين المهامه والقفار ،
خصوصاً من تداخل مع عسكر الدولة في تلك الأيام) .

رواية اللع :

ويزعم صاحب (اللع) ان عجز الكيخيا عن اقتحام قلعة الهفوف ، كان
بسبب خيانة البكرات ، أعيان بغداد ، الذين كانوا يرافقون الحملة ، وخيانة
حمود رئيس المنتفق أيضاً .. فقد استطاع ابن عفيصان أن يشتريهم بالهدايا
والأموال ، وهي رواية انفرد بها اللع لا يعتقد بها .

رواية الدوحة :

يصف لنا مؤلف الدوحة حصار الحصنين فيقول ان المناوشات بين حامتيهما
وبين جيش الكتخدا استمرت مدة عشرين يوماً ، ولما رأى قادة الجيش أن
مدافعهم لم تؤثر في جدران الحصون ، تناولوا المعاول وراحوا يعملون على هدمها
فلم ينجحوا أيضاً ، ثم وصلت اليهم مدافع ثقيلة فاستعملوها وأثرت في الجدران ،
ولكن هذه المدافع كانت تنفجر وتتمزق بعد الطلقة الرابعة ، وهكذا عجز
الجيش عن دك الحصون وتدميرها ولم يبقَ أمامه سوى الاستمرار في الحصار حتى
يستسلم حماة الحصون وهذا أمر بطول ، والجيش لا يستطيع الانتظار طويلاً ،
(فلا كلاً ولا عشب ، وقد هزلت الجمال وقعدت عن حمل الأثقال ، وهلك منها

ما يقرب من تسعة آلاف بعير ، وتناقصت الذخائر والمعدات ، وراح الجنود يفكرون .. في الهلاك الذي ينتظرهم فيما إذا بقوا على هذه الحالة ، وذهبوا الى رؤسائهم يلحّون عليهم بضرورة الإسراع في العودة لعدم وجود فائدة من بقائهم هناك . إلا أن هؤلاء الرؤساء اعترضتهم مشكلة ، وهي كيفية العودة بعد أن هزلت الحيوانات التي معهم وتعذر نقل الأثقال . وأخيراً قرروا أن تسحب المدافع من قبل الجنود والمشاة ، وأما الذخائر والمعدات الاخرى فبعضها دفن تحت الأرض وبعضها أُلْثِفَ أو أُحرق لئلا يستفيد منه العدو ، وعلى هذه الحالة انسحبوا الى الورا ، بلا زاد ولا ذخائر ولا مؤن ، حتى وصلوا موقعاً يسمى « الشباك » ، وهم في حالة يرثى لها ، وقد وجدوا في هذا المكان عشباً وماء أنقذهم وأنقذ دوابهم من الهلاك ، ثم ادهمت السماء وأرعدت وأمطرت عليهم مطراً غزيراً وهبت عليهم عواصف أطارت خيامهم وبعض أمتعتهم وبقوا لا ملجأ لهم من الرياح والأمطار ، ولقوا من العذاب ما لا يمكن وصفه حتى كادوا أن يئسوا من حياتهم ، واستمروا على هذه الحالة طول الليل حتى الصباح ، وعندئذ طلعت الشمس وتفشعت الغيوم وتنفسوا الصعداء ، وفتشوا عن خيامهم فعثروا عليها وأتوا بها الى المعسكر ، ثم أدركتهم المؤن باقتراب السفن منهم ، ولكن المؤن كانت قليلة ولا تكفي هذا الجيش أكثر من يوم واحد ، ومع ذلك فقد تقاسموها ، ومن أصاب رطلاً من الشعير فهو سعيد .

وبيناهم على هذه الحالة ، بلغهم أن ابن عفيصان كتب إلى عبدالعزيز آل سعود يخبره بما حلّ بالجيش العثماني ، ويحرضه على انتهاز الفرصة للانتقاص عليه وسحقه ، فقام هذا وحشد جمعاً كبيراً من عشائر الوهابيين وأهل اليمن والعارض وجبل شمر ، وأرسله بقيادة ابنه سعود ، فاندفع يتعقب الجيش ويتلصص عليه . فلما بلغ ذلك علي باشا أخذته الحمية والغيرة ، وقام باتخاذ الاستعدادات اللازمة لضرب هذه الحشود والانتقام منها .

أما سعود ، ومن معه ، فقد تقدم بتحريض ابن عفيصان حتى اقترب من مكان يسمى « نخبات » وهناك تحصّن واستعد .

وأما علي باشا وجيشه فقد اقترب منهم ، واتخذ مواقع في مكان يسمى « الشاح » .

ثم بدأت مناوشات بين الطرفين قُتل فيها بعض المحاربين ، وكان من جملة القتلى خالد الثامر ، وهو أخو شيخ المنتفك ، حمود ، ثم اشتد القتال شيئاً فشيئاً .

سعود يطلب الصلح :

وأيقن الوهابيون أن لا قبيل لهم بمواصلة الحرب ، فأعلنوا الرغبة في الصلح ، وأرسل سعود كتاباً إلى علي باشا ، هذا نصه :

(من سعود بن عبد العزيز إلى علي

أما بعد . . عرفنا سبب مجيئكم إلى الأحساء وعلى أي منوال جئتم ، أما الأحساء فهي قرية الآن ليست داخلة في حكم الروم ويعيدة عنكم ولا يحصل منها شيء يسوى تعبكم ، ولو أن جميع الأحساء وما يليها تؤدي لكم دراهم ما تعادل مصروفاتكم التي عملتموها في هذه السفرة ، ولا يوجد بيننا وبينكم من المضاعنة قبل ذلك إلا ثويني ، فهو كان المعتدي ولقي جزاءه ، فالآن مأمولنا المصالحة ، وهي خير لنا ولكم ، والصلح سيد الأحكام) .

شروط الكيخيا للصلح :

فلما رأى علي باشا ان الاستمرار في محاربتهم يتطلب الاحاطة بهم من كل مكان وتضييق الحصار عليهم إلى أن يستسلموا ، واستعمال المدافع لذلك حصونهم والهجوم عليهم وكلتا الحالتين غير متيسرة ، وذلك بسبب ضعف الجيش وقلة المياه العذبة والكوارث التي أصابته ، وبعد المداولة في هذه الامور مع ذوي الرأي من الرؤساء والشيخوخ الذين معه قرروا قبول الصلح .

وهذا نص الكتاب الذي أرسله علي باشا إلى سعود رداً على كتابه :

(من علي باشا الى سعود بن عبد العزيز

أما بعد .. فقد أتنا كتابك ، وكل ما ذكرت من أمر المصالحة صار معلوماً لدينا ، ولكن على شروط نذكرها لك ، فإن أنت قبلتها وعملت بها فحسن ، والا فما نحن بعاشرين عنك ولا عن طوائفك ، بعون الله وقوته ، وعند الخبر الصحيح إذا اشتدت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك المضحك والسيف المهند ، حيث لنا مقدار أربعة أشهر في بلادك ، نجوب الفلا ونستأسر أهل القرى ما قدرت تظهر من مكانك غير هذه الدفعة ، وبهذه الدفعة أيضاً اغتررت بقول ابن عفيصان .

أما الشرط الأول ، فهو أن الأحساء لا تقر بها بعد ذلك .
والثاني : الأطواب التي أخذت من ثوبيني أنك ترجعها .
والشرط الثالث : تعطينا جميع ما صرفناه على هذا السفر .
والرابع : أن لا تتعرض للحجاج التي تحيي اليك من طريق العراق ، ولا تتعرض لأبناء السبيل ، وتكف غزوك عن العراق وتكون معنا كالاول .
فهذه الشروط التي أخبرناك بها ، والسلام على من اتبع الهدى) .
سعود يقبل بعض الشروط :

وهذا جواب سعود بنصه :
(.. جاءنا كتابكم وفهمنا معناه ، أما من حال الشروط المذكورة :
فأولاً : الأحساء هي قرية بعيدة عن دياركم وخارجة عن حكم الروم وما تجازي التعب ولا فيها شيء يوجب الشقاق بيننا ، فهذه حالها .
وأما الأطواب ، فهي عند والدي بالدرعية فإذا صدرت اليه أعرض الحال بين يديه .

— والوزير سليمان باشا أيضاً يكتب اليه ، فإن صحت المصالحة وارتفع الشقاق بين الطرفين فهي لكم ، وأنا كفيل بها أن أجيبها إلى البصرة .
وأما مصاريكم ، فأني لا أملك من هذا الأمر شيئاً ، والشور في يد والدي والذي هو يقرره يصل اليكم .
وأما ما ذكرت من أمن الطريق وعدم التعرض للحجاج والمتردين فحسباً

وكرامة ، وعلي عهد الله وميثاقه انه ما يفقد لكم بغير واحد ، ولا يسري منا ضرر على المترددين ، وما لهم عندنا غير الكرامة والتسيار ..)
قبل الكيخيا جواب سعود ، وتمت المصالحة بينها وعاد الجيش العراقي إلى بلاده .

ويقول صاحب الدوحة ان هذه الحملة غابت عن العراق قريباً من عشرة أشهر ، (وقد لاقت من الأهوال والمهالك ما لا يمكن وصفه ، وان ما جمعه الوالي سليمان باشا من الأموال وما ادّخره من سنة ١١٩٤ إلى السنة الثالثة عشرة ومائتين وألف قد صرف كله في سبيل هذه الحملة ، ومع كل هذا لم تأت بالثمرة المرجوة) .

وقاحة الكيخيا :

وقد علق مختصر ابن سند على شروط الكيخيا ، قائلاً :
(انظر إلى هذا الكيخيا المغفل ، الذي يشترط شروطاً ، مع كونه مغلوباً مهزوماً ، وهل هذا إلا نوع من الوقاحة ؟ ..)
وانظر إلى ابن سعود كيف أجابه بأجوبة ، وترك بيت القصيد ، أعني مصاريف الحرب وردّ الاطواب ..
.. ما قاله في جوابه الأول : من سعود بن عبد العزيز إلى (علي) .. ولم يذكر لعلّي أباً ، إشارة إلى كونه لا يعلم له أب ..) .

رواية ابن سند في مسألة الصلح :

يرى ابن سند أن الكيخيا هو الذي جنح إلى الصلح ، بسبب خيانة المسؤول عن ذخائر الحملة ومؤنها ، وميل ابن وطبان إلى أهل نجد ، وهذا ما قاله :
(لما قفل الكتخد هارباً ، جدّ في طلبه سعود بن عبد العزيز يجيشه فأدركه في محل يسمى « تاج » ونزل سعود « الحناء » ، وانشبك القتال بين الفريقين ، وقتل خالد بن ثامر أخو حمود ، فبينما الفرسان تتطارد إلا وقد جنح الكتخد للصلح ، وذلك أن بعض كبراء عساكر الكتخد من أقارب سعود وعلى مذهبه ،

فصاروا يهولون أمر سعود للكتخدا فداخله الخوف ، كما فعلوا به لما كان في الأحساء . والسبب الثاني أن متولي مصاريق جيش الكتخدا اختلس أموالاً جمّة وقبدها في الدفاتر كذباً وزوراً فاقنضى رأيّه أن العسكر إذا رجع مهزوماً ومصالحاً على المغلوبية فلا يصير عليه شدة محاسبة على المال التالف ، لأن جميع الأموال والذخائر التي كانت معه تعدّ من جملة المهالك ويقطع النظر عنها .

وأما المتهم بهذه الخيانة وأنه هو الذي كان يشير على الكتخدا بالهزيمة ويهول أمر سعود والوهابيين هو : إبراهيم بن ثابت بن وطبان ، لأنه كان رجلاً فصيحاً منطقياً من دهاة العرب ، ويظن فيه مثل هذا الكلام ومتهم ببعض من عقائدهم ، يعني أنه يكبر أمر الوهابيين عند بعض أمناء الكتخدا فينقلون له ذلك الخبر إلى أن داخله الخوف وكان ما كان ، خصوصاً أن ساعده بمثل هذه الأفكار متولي الخزينة بناء على خيائته المالية ، ولذلك أكثر الناصحين للكتخدا مثل حمود بن ثامر وأمثاله ما كانوا راضين بالصلح .

وأما قول المؤرخ التركي أن سبب انهزام الكتخدا في هذه الواقعة وطلب الصلح هو نفاق الزاد من العسكر فهو غلط محض مبني على إشاعة الخائنين ، بل الخبر الصحيح أن الذين نفد زادهم هم الوهابيون ، ولو تأنى الكتخدا يومين لفرّوا من أمامه طلباً للقوت .

.. ولما تمّ الصلح على هذه الكيفية رجع الكتخدا إلى بغداد ، ولم يفِ سعود بواحد من الشروط .

رأي ابن بشر في الصلح :

لا يذكر ابن بشر شيئاً عن رسائل الصلح المتبادلة بين سعود والكتخدا ، ويكتفي بالقول أن الله (ألقى الرعب في قلوب الكيخيا وجنوده ووقع فيهم الفشل فطلبوا المصالحة والمكافأة وإن كلاً من الفريقين يرحل على عافية وحقن دماء ، وصالحهم سعود على ذلك فارتحلوا إلى أوطانهم) .

أما ما سبق هذا الصلح ومهد له فهو - كما يقول ابن بشر - أن سعود لما علم برجوع الكيخيا إلى العراق وأراد أن يهجم (على ساقته ومتخلفهم ويخيفهم

ويأخذ من شدة من بواديهم فسار إلى الماء المعروف باسم « تاج » ، ولكنه فوجئ ، بأن عساكر الكيخيا مقبلة نحوه ، لاهاربة منه .. وهكذا جمع الله بينه وبين خصمه على غير ميعاد .. فتبايع المسلمون على الموت وهم يظنون ان تلك العساكر والمجموع تناجزهم ، وجرى بينهم مجادلة خيل .. وأقاموا على ذلك أياماً .. ، ثم كان الصلح - على غير موعد أيضاً - (ثم رحل سعود وقصد الأحساء ونزل عليه ورتب حصونه وثغوره وأقام فيه قريب شهرين ، واستعمل عليه أميراً سليمان بن محمد بن ماجد ثم رحل إلى وطنه قافلاً .)

رواية مانجات :

يقول مانجان إن غاية الحملة التي قادها الكتخدا كانت احتلال الأحساء ، وقد سار عربان العراق تحت الراية العثمانية ، وعند وصول الحملة إلى الأحساء أعلن كثير من الأهالي خضوعهم ، بينما انضم قسم منهم إلى حصن (الكوت) الذي كان يقوده الأمير الوهابي إبراهيم بن عفيصان .

هاجمت الحملة الحصن ، وكانت كلما فتحت فيه ثغراً سده المدافعون بقفف التمر ونحوها .. ويحث قتلهم أيضاً !

وبعد حصار دام سبعة أيام ، قال المقاتلون للكيخيا : ما الفائدة من هذا الحصار ؟ إن رجال سعود يناوشوننا في السهول ويزعجوننا ! فقرر الإنسحاب ..

وبلغ ذلك سعود ، فذهب إلى بئر (تاج) ، ولكنه رأى أن جند الكيخيا لم ينسحبوا ، وانهم على العكس من ذلك ، يتجهون نحوه ، فأقام التحصينات والمتاريس ... !

ووقع الصدام بين الجيشين ..

وكان الجيش العثماني يتألف من (٢٨) ألف فارس وعشرة آلاف من المشاة^(١) . وكان جيش سعود يتألف من (١٢٠٠) فارس و ١٢ ألفاً من المشاة .

(١) تقول لادي بلنت إن عدد الجنود النظاميين بينهم أقل من الخمس وكثرة المقاتلين من البدو .

وبعد مناوشات ، تقرر عقد الصلح ، وانسحب الكيخيا إلى العراق .
ولما وصل سعود إلى الأحساء كافأ ابن عفيصان على إخلاصه وجعله حاكماً على
المقاطعة . وهكذا توطد سلطان عبد العزيز وأصبح الناس جميعاً يحبون
الخضوع إليه .

وعقد الصلح بينه وبين الشريف غالب وذهب كثير من أهل نجد إلى الحج .
وبعد انسحاب جيش بغداد ، أراد عبد العزيز أن يقيم صلات حسنّة مع
سليمان باشا فأرسل إليه عشرين جواداً وعباءات وهدايا ..

رواية كورانسيز :

يزعم كورانسيز ان الكيخيا كان قادراً على أخذ عبد العزيز أسيراً ، لو انه
أراد ذلك ، ولكنه قبل الرشوة فتخاذل ..

وهذا الزعم باطل ، لأن عبد العزيز لم يشترك في الحملة حتى يؤسر ..
ولكننا ننقل رواية كورانسيز ملخصة لمجرد العلم بما كتبه هذا المؤرخ الذي
كان أول غربي كتب عن الدعوة الوهابية ، قال :

(أثارت قوة عبد العزيز حسد السلطان العثماني ، وكان السلطان يحكم امبراطورية
كبيرة جداً ، ولكنها تتألف من أقاليم معادية لحكمه ، فما كان يستطيع إخضاع
الناشرين عليه بوسائله الخاصة ، وإنما كان يؤلّب إقليماً على إقليم لتبقى الأقاليم
كلها في حالة تفرقة وخصومة وضعف ، فيسهل عليه بذلك التسلط عليها ..

وفي عام ١٧٩٨ م . أمر السلطان والي بغداد بمحاربة الوهابيين ، فجهز الوالي
حملة كبيرة وجعل عليها نائبه (علي) - الذي غلب عليه لقب (كيخيا) او
كتخدا ومعناه النائب او الوكيل - واصطحب معه مستشاراً يدعى (محمد
الشاوي) ، كان رئيساً لعشيرة العبيد .

تفصل الدرعية عن بغداد صحراء لا يمكن اجتيازها بأقل من اثني عشر يوماً ،
والحر وقلّة المياه يجعلان السير فيها محفوفاً بالأخطار والمشاق ، ولقد اجتاز
الكيخيا هذه الصحراء بجهد جاهد واستطاع الوصول إلى الأحساء بجيش كثيف
رهيب ، ففوجيء الوهابيون بذلك ، لأنهم كانوا تعوّدوا على مفاجأة الآخرين

ومبادأتهم القتال ، فلما بودثوا بالقتال على أرضهم تصدعت صفوفهم واضطر أميرهم عبدالعزيز إلى الهرب وكاد يقع في أيدي أعدائه ، ولكنه بذل مالا وهدايا للشاوي ، فترك هذا حليفه الكيخيا ، ثم أقام نفسه وسيطاً بينه وبين ابن سعود ، ولا شك في أن الأموال التي غمره بها الأمير السعودي كان لها أثرها السحري على الكيخيا أيضاً ، فانهقد الصلح بينه وبين الوهابيين ، مع أنه كان قادراً على تدمير ملكهم .

كان يبدو أن معركة مثل هذه ينهزم فيها عبدالعزيز تجعله يكره (التحرش) بالسلطنة العثمانية مرة ثانية ، ولكنه ما كاد يتخلص من هذه الازمة ، حتى عاد إلى الظهور أمام مشهد الحسين .. (١) .

رواية جان ريمون :

يقول جان ريمون في مذكراته : (رأى علي باشا أنه لا يستطيع الاعتماد على العرب وحدهم ، فجهز حملة على مقدمتها فرقة من الأكراد ، دخلت الأحساء بقوة وشجاعة وقضت على كل من اعترض سبيلها ، وبقيت حامية سعودية في الحصن فأمر الكيخيا بإدارة المدافع على الحصن .. ولكن عبدالعزيز اشترى محمد الشاوي بالمال ، فزين للكيخيا محاسن الصلح وضرورته ، فرفع الكيخيا الحصار وعقد صلحاً مع الوهابيين) .

وما نشك في أن كورانسيز قد اطلع على مذكرات ريمون ونقل عنها ، وتزعم الليدي (بلانت) ان هدايا أرسلت أيضاً إلى والي بغداد .. وبلانت تنسب ذلك إلى سعود لا إلى عبد العزيز ، فتقول : رأى سعود ان الحكمة تستوجب منه مداراة الوالي التركي سليمان باشا ، فأرسل اليه جياداً أصيلة وهدايا ثمينة سلمت اليه في بغداد .

(١) كان سعود بن عبد العزيز هو الذي يتولى بنفسه قيادة المعارك ضد الحملات العراقية وضد العراق ، ولعل كورانسيز وضع اسم الأب مكان الابن ، ولكنه على كل حال قد غالى في تصوير قوة الحملة العراقية ، وعلى افتراض أن سعود جنح الى الصلح فليس معنى ذلك أنه ضعيف ..

الكيخيا هو الذي طلب الصلح :

إذا كان ريمون وكورانسيز وابن سند ومؤلف الدوحة يقولون إن الوهابيين هم الذين طلبوا الصلح ، فسلیمان بن سحمان يؤكد لنا في كتابه (كشف غياهب الظلام) إن الكيخيا هو الذي استجدى الصلح استجداء من سعود ، وإن الله ألقى الرعب في قلوب رجال الكيخيا مع كثرتهم وقوتهم (فطلبوا الصلح ، على أن يدعهم سعود يرجعون إلى بلادهم) ..

رواية طريقة لبريدجس :

كان بريدجس وزيراً لانكلتره في بلاط شاه العجم ، وقد زار العراق عند عودة الكيخيا من حملته على الأحساء ، فروى قصة طريقة قد يكون فيها بعض التأييد لرأي ابن سحمان ، قال :

(أخفق علي باشا في حملته لأنه سار إلى الدرعية تاركاً في الأحساء حامية لابن سعود تهدد ساقته ..

أما عجزه عن حصون الأحساء فسببه أنه كان يضرب التحصينات بالمدافع عن مسافة كبيرة بعيدة ، بحيث كانت القنابل تتساقط دونها أو تلامسها في ضعف .. وهكذا اضطر إلى عقد هدنة مع الأمير سعود ..

وقد رأى الأمير الوهابي أن يرسل مندوباً عنه إلى والي بغداد ليأخذ موافقته على مشروع الصلح الذي وقع الكيخيا علي باشا ، وقد وصل هذا المندوب بصحبة علي باشا نفسه إلى بغداد .

حدث سليمان باشا يوماً مخصوصاً لاستقبال المندوب الوهابي ، وأراق على مراسم الاستقبال كل مظاهر العظمة ..

وجاء المندوب السعودي ، بكل بساطه ، جلس قرب الباشا ، وخاطبه بلغة عربية فصيحة ، قائلاً :

(السلام على من اتبع الهدى . يا سليمان ، أرسلني عبد العزيز لأسلمك هذا الكتاب ، ولأخذ منك موافقتك على العهد الذي اتفق عليه ابنه سعود وخادمك

سليمان ، فافعل ذلك بنية صادقة وإخلاص ولا تبدل شيئاً في شروط العهد فإن الله يغضب على من ينكثون بعهودهم ، وكن واثقاً إنك متى أبرمت العهد أبرمه عبد العزيز هو أيضاً) ..

وما كاد المندوب الوهابي ينهي كلامه حتى غادر المكان ، وسط دهشة الحاضرين وتعجبهم . وهذا شيء عجيب حقاً ولا يكاد أحدنا يصدق ، ولكن الأغرب من ذلك أن الباشا كتب إلى السلطان في استانبول يقول إن عبد العزيز أرسل إليه رسولاً يلتمس القبول .. بعقد صلح معه .

كانت ملابس المندوب السعودي بسيطة جداً ، بينما كانت ملابس الباشا محلاة بالفرو الثمين والذهب والماس .. وكان كتاب عبد العزيز إلى الباشا مثال البساطة ومكتوباً على رقعة من الورق لم تكن ناصعة البياض !

وقد قابلت الباشا ، بعد انصراف المندوب ، فوجدته غاضباً مما جرى - ولعله كان مستاءً من حضوري وشهودي لما وقع - وقد شتم العرب !

سنة ١٢١٦ هـ .

واقعة كربلاء :

في العام ١٢١٦ للهجرة غزا سعود (كربلاء) ، ولكن عبد العزيز لا يعدُّ مسؤولاً عن وقائعها ، لأنه كان منقطع الصلة بما وقع في العراق ..

رواية ابن بشر :

يقصُّ علينا ابن بشر خبر غزوة كربلاء ، من غير أن يذكر مقدماتها والأسباب الدافعة إليها ، ومن غير أن يلتمس بعد ذلك تبريراً لما وقع فيها من الأمور ، ثم هو لا يذكر شيئاً عن أصدائها في العالم الإسلامي .

إن حادث كربلاء ، عند ابن بشر ، غزوة من الغزوات الضخمة ، أسفرت عن قتلى كثيرين وغنائم كبيرة ، وهذا ما قاله عنها :

(.. سار سعود بالجيوش المنصورة ، والخيال العتاق المشهورة ، من جميع حاضر نجد وباديتها والجنوب والحجاز وغير ذلك ، وقصد أرض كربلاء ونازل

أهل بلد الحسين ، وذلك في ذي القعدة ، فحشد عليها المسلمون وتسوّروا جدرانها ودخلوها في ذي القعدة ، عنوة ، وقتلوا غالب أهلها في الأسواق والبيوت ، وهدموا القبة الموضوعة بزعم من اعتقد فيها على قبر الحسين ، وأخذوا ما في القبة وما حولها ، وأخذوا النصيبة التي وضعوها على القبر ، وكانت مرصوفة بالزمرد والياقوت والجواهر ، وأخذوا جميع ما وجدوا في البلد من أنواع الأموال والسلاح واللباس والفرس والذهب والفضة والمصاحف الثمينة وغير ذلك ما يعجز عنه الحصر ، ولم يلبثوا فيها إلا ضحوةً وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الأموال ، وقتل من أهلها قريب ألفي رجل .

ثم إن سعود ارتحل منها على الماء المعروف بالأبيض ، فجمع الغنائم وعزل أخماسها ، وقسم باقيها بين المسلمين غنيمة ، للراجل سهم وللفراس سهان ، ثم ارتحل قافلاً إلى وطنه (١) .

رواية كورانسيز :

وصف كورانسيز واقعة كربلاء وصفاً مبالغاً فيه ، وهذا ما قاله في شيء يسير من التصرف :

(الإمام الحسين هو ابن علي وسبط النبي ، جاء من المدينة الى العراق ، فقتله حكام العراق الأمويون قريباً من الكوفة ، في سهل كربلاء ، فدفن هناك ، وأقام له الشيعة ضريحاً وبنوا حوله بلدة ، أطلق عليها اسمه ، هذه البلدة خربها الخليفة العباسي المتوكل عام ٨٥١ للهجرة ، فأعاد ملوك الفرس بناءها ، وأنشأ الشاه اسماعيل ، مؤسس الاسرة الصوفية ، مسجداً كبيراً حول ضريح الحسين ، كان خلفاؤه يتبارون في تحسينه وتزيينه ، وقد أصبح مشهد الحسين موضع تعبد وتقديس عند الفرس .

تقع بلدة الإمام الحسين على بعد ستة أميال من (الحلة) ، وهي بلدة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على سبعة آلاف ، ويديرها (متسلم) ، يعينه باشا بغداد

(١) في لمع الشهاب أن ما أخذه سعود من كربلاء بلغ ستائة مليون ريال .

كل سنة ، ومع عدد من الجنود ، وهناك أيضاً جماعة من الفرس يقومون على حراسة كنوز المسجد .

وقد جرت العادة أن يحتفل الشيعة كل عام بعيد (علي) ويحجوا الى ضريحه الذي يبعد خمسة أميال عن مشهد الحسين . . وفي يوم الحج هذا خرج أهالي المشهد من بلدتهم ، فانتهز الوهابيون فرصة غيابهم عن البلدة واقتحموها ، وكان عددهم حوالي ١٢ ألفاً ، ولم يكن في البلدة إلا عدد قليل من الرجال المستضعفين قتلهم الوهابيون ولم يبقوا منهم أحداً حياً . . ويقدر عدد الضحايا ، خلال يوم واحد ، بثلاثة آلاف . .

أما السلب فكان فوق الوصف ، ويقال ان مائتي بعير حملت فوق طاقتها بالمنهوبات الثمينة . . فقد استولى الوهابيون على كل الكنوز والأموال ، وجردوا القبة من صفائح النحاس ، لأنهم ظنوها من الذهب . . وصلت أخبار هذه الغزوة الهائلة الى بلاد فارس فهج الناس وماجوا ، وطلب الشاه من والي بغداد الإسراع بتجهيز حملة تأديبية ضد الوهابيين وأنذره بأنه سيسير بنفسه لتأديبهم عبر العراق ، اذا لم يفعل الوالي ما طلبه منه ، فوعده الوالي وعوداً) . .

رواية مانجان :

يقول المؤرخ مانجان ما ترجمته :

دخل سعود كربلاء على رأس عشرين ألف مقاتل ، وكان ذلك في أول يوم الأضحى ، وقد قتلوا الرجال ، ولكنهم وفرّوا النساء والأطفال والشيوخ والعجزة ، ونهبوا الدور والخوانيت ، وهدموا قبة مشهد الحسين ، وقد دلّهم حارس القبر على مكان الكنوز فأخذوها ، وهي :

٢٠ سيفاً مرصعاً بالجواهر - أوانٍ وزهريات ومصابيح ثمينة - سجاد نفيس صينيّات مطلية بالذهب - مصاحف ممتازة بخطوطها وزينتها - لآلئ ، وزمرد ، ومرجان ، الخ . .

ؤلؤة في حجب البيضة ، أخذها الأمير سعود لنفسه خاصة .

وقد اقتلع الوهابيون الفصوص الذهبية من الجدران ، وأخذوا من أسواق
البلدة ما ليس يحصى كثرة من المتاع والأقمشة ، كما أخذوا عدداً من الجواري ..
وأما النقود التي أخذوها فهي :

٦٠٠٠	مربعة اسبانية .
٣٥٠٠٠٠	ريال ضرب البندقية .
٤٠٠٠٠٠	دوقية ضرب هولندية .
١٦٠٠٠٠	ريال ضرب القسطنطينية .
٦٠٠٠٠	تومان ، عملة فارسية ذهبية .
٢٥٠٠٠٠	قرش اسباني .
٤٠٠٠	روبية .

وقد استمر النهب ثماني ساعات ، ثم أخلى المهاجمون البلدة مساء ، وذهب
سعود إلى ماء يبعد يوماً عن كربلاء ، وأخذ يحصي الغنائم ، ثم وزعها ، بعد
أن فرز منها الخمس الشرعي ، وقفل راجعاً إلى الدرعية .

الأسباب التي أدت الى واقعة كربلاء :

يقول ابن سند ان سعود بن عبدالعزيز أراد السقوي بأموال كربلاء استعداداً
لتملك الحرمين .

وفي اعتقادنا ان طلب المال لم يكن الدافع إلى غزو كربلاء ، فقد كان بين
العراق وبين الدرعية ميثاق سلام وصفاء ، ولا يعقل أن ينقضه سعود لمجرد
الشهوة إلى المال .

الواقع ان غزوة كربلاء كانت ردّاً على عدوان شديد قام به بعض رجال
العراق ضد أنصار الدعوة ، فاعتبرت الدرعية ذلك العدوان نقضاً للعهد وتحدياً
يستوجب العقاب ، فكانت غزوة كربلاء ...

قال الغزاوي ، في حوادث سنة ١٢١٤ هـ :

(.. وردت حدة من الوهابية « سابلة » فصادفها الخزاعل ، فقتلوا منها
نحو ثلاثمائة رجل !

جاء الخزاعل إلى النجف للزيارة ، فحدثت هذه الواقعة على خلاف الشروط المعطاة إلى سعود بن عبد العزيز .

ولذا لم ترق هذه الحادثة للوزير وتأسف كثيراً لوقوعها ، وكانت السبب في الوقائع الأخيرة) .

ويقول بركات وموسيل ان العدوان وقع من جانب العراقيين على فرقة وهابية كانت تحرس قافلة من حجاج الفرس كانوا في طريق عودتهم من الحج إلى أوطانهم .

محاولة لاسترضاء الدرعية :

ويقول مؤلف دوحة الوزراء :

(في أعقاب الحوادث التي وقعت سنة ١٢١٤ هـ . بين الخزاعل والوهابيين في النجف الأشرف وقتلهم نحو الثلاثمائة وهابي ، ووصول خبرهم إلى عبد العزيز ، قام هذا فوراً بالكتابة إلى الجهات المختصة محتجاً على هذه الحادثة ومتخذاً منها ذريعة لإلغاء الصلح ، ما لم تدفع إليه ديات القتلى ، ولأجل إيقاف تنفيذ ما قرره وإبقاء المصالحة على حالتها ، أوعز الوالي إلى عبدالعزيز البيك أحد أبناء الشاويين ، أن يعرج على الشيخ الوهابي ، بعد تأدية فريضة الحج ، ويحوّله عن عزمه . ولما قدم عليه وباحثه حول الموضوع أصرّ الشيخ على رأيه ، وأخيراً طلب أن يسمح لعشائره بالرعي ما بين عانة والبصرة من جهة الشامية ، وذلك عوضاً عن ديات القتلى .. وإلا فلا مناص من نقض العهد .

ولما ينس الشاوي من إقناعه بالعدول عن ذلك أرسل ساعياً إلى الوالي يخبره بالأمر ، ويضيف بأن الوهابيين اتجهوا نحو العراق ، لينتقموا لقتلهم .

وعندئذ أمر الوزير باتخاذ الاحتياطات الضرورية ، وأرسل علي باشا على رأس قوة عسكرية لتحول دون تعرض الوهابيين للعراقيين ، وسافر نحو الهندية ونزل قرب نهر الشاهي ، وأقام هناك بضعة أيام ثم رحل نحو شفانة ، وقد التحقت به عشائر العبيد بقيادة محمد بيك ، والتحق به أيضاً فارس الجربا ، والبيات والعساكر النظامية القادمة من اربيل ، وتقدير بألفي جندي .

هجوم وهابي على العراق سبق واقعة كربلاء :

فلما بلغوا تلك الأنحاء رأوا القوات الوهابية قد حطت رحالها هناك ، واستعدت أتم استعداد للقتال ، ولكنها قبل التصادم انسحبت أمام الجيش ، وبعد انسحابها قررت الحملة أن تميل نحو شفاعة ، لقلة المياه في المكان الذي عسكرت فيه ... وبقي الباشا هناك حوالي الثلاثة أشهر ثم عاد إلى الحلة .. ولما يش من عودة الوهابيين ترك قوة كافية .. لترصد الأخبار وتحافظ على الأمن وعاد ببقية أفراد الحملة إلى بغداد ..)

رواية ابن سند :

تختلف رواية ابن سند لوساطة الشاوي وحملة علي باشا لملاقاة الوهابيين تماماً عن رواية مؤلف الدوحة ، ونحن نرجح رواية ابن سند ، قال في أخبار سنة ١٢١٥ هـ . ما يأتي :

(وفيها توجه عبد العزيز بن عبد الله بن شاوي الحميري إلى حج بيت الله الحرام وأمره الوزير بأن يمر على الدرعية في عودته ، ويلقي سعود بن عبد العزيز ويكلمه في ديات من قتل من خزاعة وسكان النجف ، أي الذين قتلهم الوهابيون .. فلما أتم حجه قصد الدرعية وتلقى مع سعود وكلمه في هذا الشأن ، فضحك وقال له : « أما كفى الوزير أننا تاركوه يحكم في بغداد ، والله عما قريب ترى جميع غربي الفرات لنا ، وشرقيه له » .

فانقلب ابن شاوي بغير ما أمل .. وأعلم الوزير ردّ سعود .. فاستعد الوزير لمحاربة الوهابيين ..)

ويتحدث ابن سند عن حملة الكتخدا فيقول :

(سنة ١٢١٦ هـ . أغار سعود بأهل نجد الوهابيين على العراق سرايا وركبانا ، فنهبوا وسلبوا وحرقوا بعض القرى ، وسبوا وأسروا ، فأرسل الكتخدا علي بك لمقاتلتهم ، ومحمد الشاوي وفارس الجربا ، ومعهم عسكر ، فلما التقنوا معهم ووجدوهم قد تحصنوا بالرواحل ، أي أنهم قربوا الابل ودخلوا وسطها وجعلوها متاريس ، وصاروا يرمون عليهم بالبنادق الرصاص من وسط الابل ، فجبن العسكر

وخافوا من الهجوم عليهم ورجعوا إلى شفاثي ، كجبالى ، وما بهم من عطش ، ولكن ادعوه كذبا ، إنما هم كرهوا النزال في الحروب خوفاً على أرواحهم ، وكان يمكنهم أن يقرنوا الأبل ويدخلوا وسطها ، كما فعل الوهابيون ، ويهجموا مع الإبل سوية .. ولكن ما أكثر أعذار الجبان) .

عجز الوالي عن الانتقام :

يرجع مؤلف الدوحة تقاعس الوالي سليمان باشا عن الثأر لواقعة كربلاء إلى مرضه ، وإلى انتشار وباء الطاعون في بغداد ، وهذا بعض ما قاله :
(سافر الكيخيا علي مسرعاً نحو كربلاء ، على أمل أن يظفر بالوهابيين وينتقم منهم وينقذ البلدة من قبضتهم ، إلا أن الأخبار وردته ، وهو يومئذ في الحلة ، بأن الوهابيين بعد ما نهبوا وقتلوا خرجوا قبيل العصر نحو الأخيضر ، فتوقف علي باشا في الحلة لأسباب اضطرته إلى هذا التوقف ولعدم بقاء ما يدعو للسفر إلى كربلاء بعد هروب الوهابيين منها .

وفي هذه الأثناء وصل متصرف البصرة الداماد سليم بيك هو وعثمان آغا والتحققا بالحملة التي اتجهت نحو الهندية وعسكرت فيها ، وهنا انتشرت شائعة مفادها أن الوزير الذي كان يشكو من مرض المفاصل قد اشتد عليه مرضه ولم يخرج من بغداد إلا لإخفاء هذا المرض الذي أقعده عن الحركة تماماً ويوشك أن يقضي عليه ، وهو الآن في أشد حالات المرض .

ومن جهة أخرى ، وردت الأخبار بأن الطاعون أخذ يفتك بسكان بغداد فتكاً ذريعاً ويحصدهم ما يقرب من سبعين نفساً في اليوم ، وهذه الأخبار المحزنة قد أقلقت الحملة وأقعدتها عن تنفيذ مهمتها ، فاكتمى علي باشا بإرسال بعض القوات إلى كربلاء من باب الإحتياط ..

هذا وقد نقلوا خزينة النجف الأشرف ، خوفاً عليها من غارات الوهابيين ، وضموها إلى خزينة موسى الكاظم (..) .

حرب الروس وثورة الأكراد :

يقول بعض المؤلفين أن (فتح علي شاه) ملك العجم عزم على (تجهيز جحفل

عدته مائة ألف مقاتل ، يغزو به الوهابيين في عقر دارهم ..
وكذلك سليمان باشا والي بغداد أخذ في اعداد جيش جرار يتولى قيادته
بنفسه ..

ولكن .. فاجأت العجم حرب مع الروس ، وفاجأت سليمان باشا فتنة في
بلاد الأكراد ، فانصرفت الهمم عن قتال الوهابي .. (١١) .

رأي دليل الخليج الفارسي :

يقول دليل الخليج الفارسي : (احترم الوهابيون الصلح المعقود بينهم وبين
العراق ، حتى موجت قافلة من الحجاج العجم كان يقودها وهايي ، بين الحلة
والنجف ، من قبل عربان العراق ، فاعتبر الوهابيون هذا العدوان خرقاً للصلح ..
وفي نيسان ١٨٠١ م . هاجم الوهابيون كربلاء ، وكان عددهم ستة آلاف .
هاجموا كربلاء هجوماً صاعقاً خلال ثماني ساعات فقط ، هدموا اثناءها مشهد
الحسين ونهبوا كل ما فيه وقتلوا الرجال ، ويقال ان عدد القتلى من أهل كربلاء
ثلاثة آلاف وربما خمسة آلاف ، ولم يفقد الوهابيون أي قتيل ، وقد أخذوا معهم
أيضاً عدداً من الأسرى .

ويقال إن المقيم البريطاني « سربريدجس » جمع أموالاً واقتدى بها مائتين من
أسرى العجم وأعادهم إلى بلادهم .

هاجم الوهابيون ، بمد كربلاء ، النجف ، ولكن أهلها ردوهم ، ثم هاجموا شط
العرب ، قرب البصرة ، فردهم أهل الزبير .

.. ومات سليمان باشا قهراً .. في ٧ آب سنة ١٨٠٢ م . (.)

(١) أنظر كتاب حاضر العالم الإسلامي .

بين عبد العزيز وبين أشرف مكة

عهد الشريف أحمد بن سعيد :

تولى حكم مكة ، في أوائل عهد عبد العزيز ، الشريف أحمد بن سعيد ، وكان مبغضاً للترك ، وقد اتبع نحو الدرعية سياسة مودة وأخوة ، فأذن لأهلها بالحج ، وكانوا ممنوعين منه ، وطلب عالماً من أهل الدرعية يبين لأهل مكة حقيقة الدعوة التي نهض بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولكن عهد هذا الشريف ، لسوء الحظ ، لم يطل ، ولو أنه استمر لتغير وجه التاريخ ، ولما حدثت مأساة الدرعية على أيدي محمد علي ورجاله ، فقد كان الدافع إليها سوء التفاهم بين مكة والدرعية . في العام ١١٨٣ هـ . أذن شريف مكة أحمد بن سعيد لأهل الدرعية وأنصار الدعوة عموماً بالقدوم إلى مكة المكرمة للحج ، الذي كان ممنوعاً عنهم بحجة أن الوهابية .. مذهب جديد يخالف للسنة وما عليه سائر المسلمين ..

أبطل الشريف هذه الدعوة الكاذبة ، واستقبل بنفسه جماعة من أهل العارض جاؤوا للحج ورحب بهم وأكرمهم ، وعادوا إلى بلدانهم دون أن يلقوا أية مشقة . لماذا خالف الشريف أحمد أسلافه واتبع سياسة حسنة نحو الدرعية ، كان

الإذن بالحج إحدى علاماتها ؟

يقول ابن غنم ، في أخبار سنة ١١٨٣ : (وفيها غزا للمسلمين ركب ، فصادف الشريف منصور ، فأخذ مع ركب معه ، وأتي به مأسوراً ، فمن عبد العزيز

عليه بإطلاقه دون الفدا ، فرجع بعد ذلك برخصة من شريف مكة في الحج
لذوي الهدى ..) .

ويتفق رأي مانجان مع رأي ابن غنام ، إذ يقول : (أسر عبد العزيز فتي من
أشراف مكة يدعى منصور ، فأطلق حريته وأكرمه ، فعاد إلى مكة يلهج
بالثناء على عبد العزيز ، وطلب من الشريف أحمد بن سعيد أن يأذن لأهل نجد
للحج تقديرًا لحسن صنيعه معه ، ففعل) .

وفي اعتقادنا ان سياسة الشريف أحمد لم تتغير بسبب هذا الحادث وإكراماً
لشريف منصور ، وإنما تغيرت بسبب ظروف خاصة كانت تحيط بالشريف
المذكور ، فقد جاء ، من قبل ، إلى مكة موظف تركي معروف ، هو (محمد بك
الملقب بأبي الذهب) ، فعزل الشريف أحمد عن الشرافة وأجلاه عن مكة وجعل
مكانه (حسين بركات) ، ولكن الشريف أحمد قتل الشريف حسين واستعاد
إمارة مكة ، فكره الأتراك ، وأحب الوهابيين لأنهم مثله يكرهون الترك ،
وكان إطلاق الشريف منصور فرصة ظهرت فيها عواطف الشريف المكنونة او
المكبوتة .

قرر هذا الشريف أن يعيش بسلام ومودة مع الدرعية ، بل أحب أن يشرك
قومه في التفتح لدعوة الشيخ ، فكتب اليه كتاباً رقيقاً يطلب فيه إرسال واحد
من علماء نجد إلى مكة ليبين لعلماؤها الأمر الذي يدعو اليه ، فاستجاب الشيخ
لطلبه وأرسل إلى مكة ، بمشورة عبد العزيز وموافقة ، عالماً كبيراً هو الشيخ
عبد العزيز الحصين .

رسالة الشيخ إلى الشريف :

ويقول ابن غنام ان الشيخ الحصين حمل معه إلى شريف مكة رسالة من الشيخ
وعبد العزيز ، ولكن الرسالة تبدو صادرة عن رجل واحد ، هو الشيخ ،
وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

(المعروف لديك ، أدام الله فضل نعمته عليك ، حضرة الشريف أحمد ابن

الشريف سعيد ، أعزّه الله في الدارين ، وأعزّه به دين جده سيد الثقلين .
 إن الكتاب لما وصل إلى الخادم ، وتأمل ما فيه من الكلام الحسن ، رفع
 يديه بالدعاء إلى الله بتأييد الشريف ، لما كان قصده نصر الشريعة المحمدية ومن
 تبعها ، وعداوة من خرج عنها ، وهذا هو الواجب على ولاية الامور . ولما طلبتم
 من ناحيتنا طالب علم ، امتثلنا للأمر ، وهو واصل اليكم ، ويحضر في المجلس
 الشريف ، أعزّه الله تعالى ، هو وعلماء مكة ، فإن اجتمعوا ، فالحمد لله على ذلك ،
 وإن اختلفوا أخذ الشريف كتبهم وكتب الحنابلة ، والواجب على كل منا ومنهم
 أن يقصد بعمله وجه الله ونصر رسوله ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ
 النَّبِيِّينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ ، فإذا كان الله سبحانه قد أخذ
 الميثاق على الأنبياء ان ادركوا محمداً ﷺ ، على الإيمان به ونصرته ، فكيف بنا
 يا أمته ؟ فلا بد من الإيمان به ولا بد من نصرته ، ولا يكفي أحدهما عن الآخر ،
 وأحق الناس بذلك وأولاهم أهل البيت الذين بعثه الله منهم وشرّفهم على أهل
 الأرض ، وأحق أهل البيت بذلك من كان من ذريته ﷺ .
 وغير ذلك ، يعلم الشريف ، أعزّه الله ، ان غلمانك من جملة الخدام ، ثم أنتم
 في حفظ الله وحسن رعايته .)

المناظرة :

ويقول ابن غنام ان عبد العزيز الحصين ، لما وصل مكة ، (نزل على الشريف
 الملقب بـ « الفعر » واجتمع هو وعلماء مكة عنده ، وهم : يحيى بن صالح الحنفى ،
 وعبد الوهاب بن حسن التركي ، وعبد الغنى بن هلال ، وتفاوضوا في ثلاث مسائل
 وقعت المناظرة فيها :

الاولى — ما نسب اليها من التكفير بالعموم .

الثانية — هدم القباب التي على القبور .

الثالثة — إنكار دعوة الصالحين للشفاعة .

فذكر لهم الشيخ عبدالعزيز أن نسبة التكفير بالعموم اليها زور وبهتان علينا .
 وأما هدم القباب ، فهو الحق والصواب ، كما هو مسطور في غير كتاب ،

وليس للعلماء فيه شك ولا ارتياب .

وأما دعوة الصالحين وطلب الشفاعة منهم والاستغاثة بهم في النوازل ، فقد نص عليه الأئمة الفواضل ، وقرروا أنه من الشرك الذي فعله الأوائل ، ولا يجادل في جوازه إلا كل ملحّد جاهل .. فأحضروا من كتب الحنابلة (الاقناع) ، فرأوا عبارته في الوسائط وحكايته الاجماع ، فصار لهم بتلك العبارة اقتناع ، ولهم الى الإقرار بإسراع ، وتفوّهوا بأن هذا دين الله وانتشر بينهم وشاع ، وقالوا هذا مذهب الإمام المعظم ، وانصرف عنهم عبد العزيز مبعّثاً مكرّماً . ذلك قول ابن غنّام ، وأما ابن بشر فإنه يكتفي بالإشارة إلى رحلة الشيخ الشيخ عبد العزيز الحصين إلى مكة ولا يذكر شيئاً عما حدث فيها .

عهد الشريف سرور بن مساعد :

في العام ١١٨٦ ثار الأشراف على الشريف أحمد بن سعيد وأجلوه عن مكة وولوا مكانه سرور بن مساعد ، وكانت دسائس الترك وراء ذلك ، والله أعلم . وقد امتدت ولاية الشريف سرور بن مساعد من عام ١١٨٦ هـ . إلى عام ١٢٠٢ هـ . أي ست عشرة سنة ، وقد أذن هذا الشريف لأهل نجد بالحج الى مكة عام ١١٩٧ هـ . ولم يقيم بأي عدوان على نجد . ويقال انه كتب إلى السلطان العثماني مظهراً مخاوفه من توسع الوهابيين ، ونسب اليهم التفكير في الهجوم على الحرمين ، وطالب بإعطائه المساعدات اللازمة للوقوف أمامهم ومقاومتهم ، وقيل كذلك انه كتب إلى ولاية الشام وبغداد ووجد يسألهم عن المعونة التي يستطيعون تقديمها اليه فيما إذا أراد تجهيز حملة ضد الوهابيين ، فكانت الردود في جملتها غير مشجعة .

ويقول المؤرخ التركي جودت باشا إن والي جدة كتب إلى الباب العالي إن مخاوف شريف مكة من الوهابيين في غير محلها ، وإن المسألة ليست أكثر من « حرب كلامية » ، ومناظرات في العقائد ، وليس وراءها شيء .. . ويولم هذا المؤرخ التركي الحكومة العثمانية لتهاونها في مساعدة شريف مكة قائلاً : لعلها كانت تظن انه يريد استخدام أسلحتها ومواردها في احتلال نجد ،

لضمها إلى أملاكه ، مع انه ما كان يفكر في ذلك قط .. ومهما يكن الأمر ، فقد كان لهذا الشريف فضل يذكر في الوقوف أمام تقايم النفوذ الوهابي في الحجاز ، لأنه كان محبوباً من الشعب ، وقد زاده زواجه من بنت سلطان مراكش شهرة ومكانة ..

الهدايا تليق قلب الشريف :

ويقول ابن غنام في أخبار سنة ١١٩٧ :
(وفيها أهدى عبدالعزيز إلى سرور والي مكة ، خيلاً وركاباً ، وكرمه بذلك وشرفه ، وقصده بذلك التشريف والإكرام واهدائه النفيس الرخصة لأهل الدين والإسلام في أداء .. خامس أركان هذا الدين .. الذي منعه من سنين .. فجاء الأمر في ذلك بالرخصة ، فشمروا المسلمون .. فحجوا ذلك العام ، وكانوا نحو ثلثمائة) .

وصف سرور :

نقل ده غوري في كتابه « حكام مكة » عن شارل ديديه ، الذي زار الحجاز في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، وصفه للشريف سرور ، قال : كان سخياً جداً ، وشجاعاً ، ومنصفاً حتى مع أشد أعدائه ، وكانت سياسته متجهة إلى اصلاح الضرائب التعسفية وإصلاح الإدارة ، وبالجملة كان لويس الحادي عشر الحجاز ..

ويقول القاضي محمد بن علي الشوكتاني في كتابه « البدر الطالع » :
.. طار صيته في الآفاق وبلغ من المجد والسعي في أعمال الخير وتأمين السبل ما لم يبلغ اليه أحد من آبائه ، ولقد كانت أخبار الوافدين للحج إلى بيت الله الحرام تخبر عنه بأخبار تسر القلوب وتشفئ الاسماع .. وكان عظيم السطوة شديد الصولة قامعاً للفساد راعياً لمصالح العباد كثير الغزو لمردة الأعراب الذين يتخطفون الناس في الطرقات ، ثم مات في رجب سنة ١٢٠٢ هـ .

الشريف غالب بن مساعد^(١) :

في العام ١٢٠٢ هـ (١٧٨٦ م) ، بعد وفاة الشريف سرور ، خلفه أخوه عبد المعين ، ولكنه لم يبقَ في الشرافة أكثر من يوم او بعض اليوم ، ثم تخلى عنها لأخيه الشريف غالب .

ويقول ابن دحلان ان الخليفة السلطانية وصلت الى مكة في ذي القعدة ، فلبسها الشريف غالب بن مساعد ، بعد قراءة فرمان السلطاني بالخطيم .. وأمر بالزينة ثلاثة أيام ..

وفي شهر ذي الحجة فارقه بعض الأشراف وذهبوا الى عشائر هذيل اليمانية وعادوا بها لمقاتلته ، فاستعان عليها ببعض العساكر الشامية ، التي كانت مع أمير الحاج الشامي ، وهزمهم ، فساروا الى الطائف ، فهزمهم ، ثم ساروا الى سل ، ثم عادوا الى مكة ، وجددوا القتال معه فهزمهم .. ثم تصالحوا ودخلوا مكة بأمان .

وفي العام ١٢٠٣ (حصل خلاف بين والي جدة .. وبين وزير الشريف ، فأغلق البابا الفرضة والقبان ، وقد قاضي الشرع بالمقاليد ، فجعل القاضي ينزل الفرضة لجمع العشور ويضبط ما تحصل من المال .. ثم عزل الشريف قاضييه لأنه سبب الفتنة .

وفي ذلك العام أغرى أحد أنصار الشريف سرور أحد أولاده ، وهو الشريف عبد الله بن سرور ، وكان صبياً لا يتجاوز عمره الثانية عشرة ، بأن يطلب الشرافة لنفسه ، وجمع له ٥٠٠ عبد وضربوا بالرصاص على بيت الشريف غالب وقطعوا طرقات مكة أياماً ، ثم تمّ التغلب عليهم وهرب موقظ الفتنة الى مصر) .

(١) يقول ديديه ، في وصف الشريف غالب : (كان رجلاً جسيماً ، تعلم صناعة الحرب وهو فتى فاضل ، وكان جذاباً حلو الحديث مهذباً ولكنه مستبد) . انظر حكام مكة .

المكاتبات بين الشريف والدرعية .. والمناظرة :

كانت السنتان الاوليان من حكم الشريف غالب - كما رأينا - مستفرتين بأفراح الحلعة السلطانية ثم بالفتن الداخلية . فلما انتهى من ذلك واستقر حكمه ، كان لا بد له من تحديد سياسته نحو الدرعية ، وخصوصاً قضية الحج .. فبدأ له أن يكتب الى الإمام عبد العزيز ويطلب منه عالماً من أهل نجد يشرح له حقيقة الدعوة .. فلما وصلت رسالته الى عبد العزيز والشيخ ، اختاروا له الشيخ عبدالعزيز الحصين ، الذي أوفد الى مكة من قبل بمثل هذه المهمة ..

وصل الشيخ عبد العزيز الى مكة فأكرمه الشريف غالب واستمع الى أقواله في أكثر من مجلس ، وكانت مع الشيخ رسالة كتبها الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى علماء مكة ، هذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

(من محمد بن عبد الوهاب الى العلماء الأعلام في البلد الحرام نصر الله بهم سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ، وتابعي الأئمة الأعلام ،

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد .. جرى علينا من الفتنة ما بلغكم وبلغ غيركم ، وسببه هدم بنيان في أرضنا على قبور الصالحين ، ومع هذا نهيناهم عن دعوة الصالحين وأمرناهم بإخلاص الدعاء لله ، فلما أظهرنا هذه المسألة مع ما ذكرنا من هدم البناء الذي على القبور كبر على العامة وعاضدهم بعض من يدعي العلم ، لأسباب ما تخفى على مثلكم ، أعظمها اتباع الهوى ، مع أسباب آخر ، فأشاعوا عنا أننا نسب الصالحين وأننا على غير جادة العلماء ، ورفعوا الأمر الى المشرق والمغرب ، وذكروا عنا أشياء يستحيي العاقل من ذكرها ، وأنا اخبركم بما نحن عليه ، بسبب ان مثلكم ما يروج عليه الكذب على أناس متظاهرين بمذهبهم عند الخاص والعام ..

فنحن ، والله الحمد ، متبعون لا مبتدعون ، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل . وتعلمون - أعزكم الله - ان المطاع في كثير من البلدان لو يتبين بالعمل بهاتين المسألتين انها تكبر على العامة الذين درجوا هم وآباؤهم على ضد ذلك ، وأنتم

تعلمون - رحمكم الله - أن في ولاية الشريف أحمد بن سعيد وصل اليكم الشيخ عبد العزيز بن عبد الله ، وأشرقت على ما عندنا ، بعد ما أحضروا كتب الحنابلة التي عندنا عمدة ، كالتحفة والنهاية عند الشافعية ، فلما طلب منا الشريف غالب - أعزه الله ونصره - امتثلنا ، وهو اليكم واصل ، فإن كانت المسألة إجماعاً فلا كلام ، وإن كانت مسألة اجتهاد فمعلومكم انه لا إنكار في مسائل الاجتهاد ، فمن عمل بمذهبه في محل ولايته لا ينكر عليه ، وأنا أشهد الله وملائكته اني على دين الله ورسوله ، واني متبع لأهل العلم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركانه .

علماء مكة يستكبرون .. ويرفضون المناظرة :

طلب الشيخ عبد العزيز من شريف مكة أن يجمعه بعلماء مكة لينظرهم ويبين لهم حقيقة الدعوة ، ولكن علماء مكة رفضوا المناظرة ، وأجابوا الشريف بأن (هؤلاء جماعة ، ليس عندهم بضاعة ، إلا إزالة نهج آبائكم وأجدادكم ، ورفع يدك عن معتادك وجوائز بلادك .

قطار لبث وارتعش قلبه) .

ذلك ما قاله ابن غنام عن مهمة الحصين الجديدة في مكة ، وأما ابن بشر فلم يُشيرَ اليها إطلاقاً .

الشريف غالب يتنكر للدرعية :

لما رأى الشريف غالب توسع الحركة الوهابية وانضمام بعض العشائر الحجازية - او الخاضعة لنفوذ الشريف - اليها ، خاف منها من ملكه ، فكتب الى الدولة العثمانية يبين لها (خطر) الوهابيين ويخوفها من هجومهم المرتقب على الحرمين ويطلب منها الإسراع في إمداده بالرجال والسلاح لمقاومتهم ، ثم كتب الى الولاة العثمانيين في العراق والشام يندبهم الى القتال معه .. فلم يستجب اليه أحد ، وأخيراً .. رأى أن يبدأ هو - وحده - الحملة على نجد ، لعلها تصيب بعض النجاح ، فتشجع الولاة العثمانيين على تأييده ، او تحمل بعض البلدان والعشائر التي قبلت الدعوة الوهابية مكرهه - في زعمه - على الثورة والانتفاض .

ويزعم مؤلف اللع ان سبب عداء الشريف غالب للدرعية هو ان سعود بن عبد العزيز غزا قوماً من (مطير) كانوا معاهدين وملتجئين للشريف ^(١) ، وان الشريف - من جهة ثانية - لما (رأى ان عبدالعزيز أدخل يده في ملك بني خالد ، خشي ان يدخل النقص عليه في ملكه ، وكان الشريف « مهوباً » وله جاه كلي في جزيرة العرب وغيرها من الأقطار الإسلامية ، فبدأ الشريف غالب بتهيئة الحرب وأسبابها .. وقد استمال الشريف كثيراً من بداء نجد كقطير وعتيبة والبقوم وأهل تربة وسبيع وغيرهم من القبائل ، وكذا كثير من قحطانات وبعض الدواسر ، فأطاعوا الشريف غالب ، و « اختلفوا » على عبد العزيز ، وهذا في مدة شهر او شهرين من تلك السنة التي وقع فيها ابتداء الحرب بين الشريف وبين آل سعود) .

ويقول المؤلف المذكور أيضاً ان الشريف غالب كتب الى رؤساء الاحساء يشجعهم على حرب عبد العزيز ويعددهم الالتقاء بهم على أرض نجد ^(٢) .

معارك الشريف غالب :

يقول ابن دحلان ان الشريف غالب قام بأكثر من خمسين غزوة ضد الوهابيين في نجد ، وضد أنصارهم وحلفائهم في الحجاز وعسير ، وذلك من سنة ١٢٠٥ هـ إلى سنة ١٢٢٠ هـ .

وقد تمعنا في رواياته لهذه الغزوات فوجدنا أكثرها حملات يسيرة صغيرة ضد جماعات أو أفراد من أنصار الدعوة الوهابية لا تستحق اسم غزوة .. وسنذكر على كل حال أهم تلك الغزوات .

(١) ذكر ابن غنام في أخبار سنة ١٢٠٥ غزو سعود لمطير بأرض الجريسية وقتله منهم خمسين نفراً واستيلائه على أموالهم .

(٢) يقول مؤلف اللع ان الشريف غالب كان عند غزوه الأول لنجد حديث السن لم يعط تدبير الحروب ، وإن سبب رجوعه إلى مكة إن الميرة قلت عنده ، وخاف أن يدخل أحد أمراء الترك مكة في غيابه وينصب شريعاً غيره ، لأن الأتراك لم يكونوا راضين عنه .. ثم يستدرك فيقول : ولكن الحق الصحيح انه عجز عن الحرب .

غزوة السر — عام ١٢٠٥ هـ :

سارت الغزوة الأولى من غزوات الشريف غالب إلى نجد بقيادة أخيه الشريف عبد العزيز بن مساعد ، ويقول ابن بشر في وصفها :

(سار عبد العزيز بقوة هائلة وعدد وعدة وعسكر كثيف ، نحو عشرة آلاف أويديون ، ومعهم أكثر من عشرين مدفعاً ، وكان قصدهم الدرعية ومنازلتها ، فضلاً عن غيرها من البلدان ..

فأقبلت تلك العساكر والجنود ، وسار معهم كثير من بوادي الحجاز وشمير ومطير وغيرهم ، فملأوا السهل والجبل ، وصار في قلوب المسلمين منهم وجل ، فنأزلوا (قصر البسام) المعروف في السر ، وحاصروا أهله أكثر من عشرة أيام ونصبوا عليه المدافع وضربوه ضرباً هائلاً فكادوه بأنواع القتال وليس في ذلك القصر إلا نحو من ثلاثين رجلاً من أهله ومن هيم وغيرهم .

فلما رأى الشريف عبد العزيز امتناع هذا القصر ، ولم يعطوه الدنية ، رحل عنهم . وكان بناء هذا القصر ضعيفاً وأهله أضعف ولكن الله إذا قضى أمراً كان مفعولاً) .

غزوة الشعراء — سنة ١٢٠٥ هـ :

يصف مانجان غزوة السر كما وصفها ابن بشر ، ثم يقول إن الشريف عبد العزيز لما رأى عجزه وضعفه أراد الاحتياك على أخيه الشريف غالب ليحضر وينجده ، فأرسل إليه كتاباً يقول فيه إن كثيراً من أهل نجد تركوا ما كانوا عليه من « الضلال » وعادوا إلى الجماعة ، وهم ينتظرون مجيء الشريف غالب للانضمام إليه والمبايعة له .. فأسرع الشريف غالب بالحضور ، وكان معه مقاتلة كثيرون من الحضرة والبدو ، وحاصره هو وأخوه بلدة الشعراء في عالية نجد قريباً من شهر .. فلم ينالوا منها منالاً فعادوا إلى مكة خاسرين .

ويقول ابن بشر إن حصار الشعراء دام أكثر من شهر ، وإن الشريف غالب ورجاله كادوها بأنواع القتال .. وجعلوا بين رصاص المدافع سلاسل من الحديد

وربطوا فيها ضلوع الحديد وضربوا بها الجدار .. فلم ينفعهم ذلك واضطروا إلى الرحيل عنها ، بعد أن قتل منهم أكثر من خمسين رجلاً ، ولم يكن في تلك القرية إلا نحو أربعين رجلاً ..

ويزعم ابن دحلان ان الشريف غالب استجاب لطلب أهل الشعراء الذين التمسوا منه الأمان فأعطاهم الأمان وعاد إلى مكة ليحضر موسم الحج .

وصف المعارك في المقامات :

وصف الشيخ عبد الرحمن بن موسى معركتي قصر بسام والشعراء في مقامه الرابع ، قال :

(.. ما جرى من العبر في حرب أشراف مكة لهذه الدعوة والطريقة المحمدية وذلك أنهم من أول من بدأ المسلمين بالعداوة فحبسوا حاجهم فمات في الحبس منهم عدد كثير ومنعوا المسلمين من الحج أكثر من ستين سنة .. وفي هذه المدة سار اليم الشريف غالب بعسكر كثيف وكيد عنيف ، فقدم أخاه عبد العزيز قبله بالخروج فنزل على قصر بسام فأقام مدة يضرب بالمدافع والقنابل وجرت عليه الزحافات ، فأبطل الله كيده على هذا القصر الضعيف بناؤه القليل رجاله فرحل منه ووافى (غالباً) ومعه أكثر الجنود ، ومعه من الكيد مثل ما كان مع أخيه أو يزيد ، ونزلوا جميعاً بـ (الشعري) فأخذ بحريهم بكل كيد ، فأعجزه الله هو ومن تبعه عن ذلك البناء الضعيف الذي لم يتأهب أهله للحرب بالبناء ولا بالسلاح فأبطل الله كيده وردّه عنهم بعد الأياس والافلاس ، فسلط الله المسلمين على من كان معه من الاعراب وخصوصاً « مطير » فأوقع الله بهم (العدو) ، ومعهم مطلق الجربا فهزمهم الله تعالى وغنم المسلمون جميع ما كان معهم من الإبل والخيل وسائر المتاع) ..

معركة العدو مع مطير وشمر

وحصان ابليس .. ومسلط الجربا :

يصف لنا ابن بشر معركة العدو - التي جاء ذكرها في المقامات - وما

كان لها من ذيول فيقول : ان سعود أراد معاقبة البوادي من مطير وشمر التي انضمت إلى الشريف غالب وساعدته ، فتبع هؤلاء البدو ، بعد أن انفردوا عن الشريف عائدين إلى مواطنهم ، وكانوا قد نزلوا على ماء قرب بلد حائل يدعى (العدو) فلما التقى الجمعان وقع بينهم قتال شديد ، انتهى بهزيمة البدو هزيمة ساحقة ، وقد قتل من مشاهير فرسانهم : مسعود الملقب (حصان إبليس) وسمرة رئيس العبيات من مطير وغيرهما كثير ، وغنم المسلمون إبل المغلوبين وغنمهم وأثاثهم وأمتعتهم وكل ما في محلّتهم .

ويرد ابن بشر بعد ذلك قائلاً : (وهذه الواقعة في آخر الأضحى ، فلما انهزم أولئك البوادي استنفروا ما يليهم من قبائلهم وغيرهم ممن لم يحضر الواقعة وأرسلوا إلى سعود يدعونه للنزلة وانهم يريدون ان يسروا إليه ، فثبت لهم وأقبلوا إليه مقرنين الإبل ، وهو على العدو يقسم الغنائم ، فساقوها على جموع المسلمين ، فثبتوا لهم .

وكان في مقدم البوادي (مسلط بن مطلق الجربا) ، وكان قد نذر ان يحشم فرسه صيوان سعود ، فأراد ان يتم نذره ، فاخطفه المسلمون وضربه رجل بمشوى قرص فطرحه عن جواده فقتل ، وانهزمت تلك البوادي لا يلوي أحد على أحد ولا والد على ما ولد ، وتركوا الإبل مقرنة في الجبال فتبعهم المسلمون وأخذوا جميع أموالهم من الإبل والغنم والأمتعة ، وأقاموا في اثرهم نحو يومين او ثلاثة يأخذون من الأموال ويقتلون الرجال ، وحاز سعود جميع الغنائم من الإبل ، نحو أحد عشر ألف بغير وأكثر ، ومن الغنم أكثر من مائة ألف ، وعزل الخمس ، وقسم باقيها في المسلمين ، للراجل سهم وللفرس سهان (١) .

(١) في اللمع أن مطير المحازوا إلى أرض شمر واتفقوا مع مطلق الجربا وبادية شمر ، ففكره الحضر في حائل هذا الحلف وأرسلوا إلى عبد العزيز يطلبون النجدة ، فأمر ابنه سعود بالذهاب إلى هؤلاء البدو ومقاتلتهم ففعل ، وكان معه رجال من العارض وكذلك (هادي بن قرملة) في جماعة من قحطان .. وان مطلق الجربا جلا إلى العراق بعد هزيمته ومصرع ولده .

الشريف يستنجد بالأترك :

عاد الشريف غالب الى مكة ، بعد هزيمة الشعراء ، مهبط الجناح ، ورأى نفسه في رقعة ملكه الصغيرة كمن يعيش في جزيرة تضربها الأمواج من كل جانب وتهدها بالفيضان والفرق ، ذلك ان الدعوة الوهابية انتشرت بين القبائل الحجازية وامتدت الى عسير واليمن ، وعرف الشريف غالب انه لا يستطيع كسر هذا الطوق الذي أحكم حوله ووقف المدّ الوهابي المتعظم إلا إذا مدّت اليه الدولة العثمانية يد المساعدة فأعادت الى طاعته هذه القبائل التي تمرّدت عليه وبايعت لعبد العزيز على السمع والطاعة ، ففقد بفقدته لها أنصاراً وموارد ومنعة ، وأصبح يتربص بالنقص ويخشى الزوال ..

هل بالغ الشريف غالب في تصور الخطر الوهابي على الحرمين او في تصويره للناس ، ليدفع السلطان العثماني وولاته في الشام والعراق ومصر الى التدخل لمصلحته ، أم كان هذا الخطر حقيقياً وهو يحاول تفاديه بإخلاص ؟

لقد جمع الشريف علماء مكة والمدينة واستكتبها رسائل الى السلطان العثماني يطلبون فيها النجدة العاجلة لإنقاذ البلاد المقدسة من خطر عظيم يتهدها .. فأهل السنة معرّضون للذبح ، وقبر النبي ﷺ سوف يستباح .. و (دلائل الخيرات) سوف تمزق وتُحرق .. الخ. الخ. إذا ترك السلطان الدعوة الوهابية تفرع أبواب الحرمين .. ولم يسرع بإرسال جنوده لمقاتلة الوهابيين ووضع حد حاسم لتحدياتهم المستمرة .

هذا شيء من الأضاليل والسخافات التي كان يشيعها الشريف غالب ورجاله ، ويقول ابن دحلان ان الشريف غالب أرسل في شعبان من سنة ١٢٠٧ هـ . مندوبين عنه — هما محسن الحمودي وحسين مفتي المالكية — الى استانبول لمقابلة السلطان وأصحاب الشأن ، وتحريضهم على الوهابيين ، ولكن أحداً لم يكثرث لهما .. ويقول المؤرخ التركي جودت باشا ان الجزار حج عام ١٢٠٨ هـ . فشكا اليه الشريف ما يعانيه من صعوبات ومتاعب بسبب اعتداءات الوهابيين المتزايدة على المناطق الخاضعة لسلطانه ونفوذه منذ القديم .. فأشار عليه بكتابة تقرير مفصل

يبين كل ذلك وإرساله الى السلطان ، ففعل ، ولما وصل التقرير الى السلطان أرسله الى مجلس الشورى لدراسته وإبداء الرأي فيه ، فاجتمع المجلس ، وكان بين أعضائه وزراء سبق لهم حضور ندوات عقدها (المولوية) ، ذكروا فيها ان الوهابيين يستنكرون (التجويد) في القرآن وقراءة (دلائل الخيرات) ويحرمون بناء القباب على القبور ، وبناء المآذن ، وطلب الشفاعة من الأولياء او من النبي ﷺ ، وانهم يرون الأكل بالملاعق بدعة .. الى أمور كثيرة قابلة للجدل ، ولكن أخطر ما قالوه هو ان الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان يهدد دائماً بتدمير مكة ومعاقبة أهلها وتهديم قبر الرسول ﷺ - كذا .. -

لم يرَ أعضاء المجلس ضرورة لاتخاذ أي إجراء ، تلبية لطلب الشريف غالب ، ولعلمهم كانوا يعتقدون :

١ - ان القضية بين الوهابيين وخصومهم قضية مناظرات ومجادلات ومنافسات مذهبية وليس فيها خطر على الدولة .

٢ - ان القول باحتمال تأليف حكومة قوية في جزيرة العرب ، تحل محل السلطة العثمانية هو مجرد وهم او إيهام يقصد منه حمل السلطان العثماني على التدخل لمصلحة شريف مكة الذي يريد توسيع ملكه وتقوية نفوذه على حساب السلطان العثماني .

٣ - لم يستطع أعضاء مجلس الشورى الرد على حجج الوهابيين القوية في تأييد وجهات نظرهم ومعتقداتهم كما بيّنها في كتاباتهم وكتبهم ، وأما ما يقوله خصومهم فلا يمكن اتخاذه أساساً للبحث لأنه قد يكون موضوعاً على ألسنتهم ومفترى عليهم .

ويخلص المؤلف التركي أخيراً الى لوم مجلس الشورى لأنه حمل الى نفس السلطان طمأنينة كاذبة ، فأهل مواجهة الموقف بما ينبغي له من الحزم قبل أن يتفاهم الأمر وتتعاظم المصاعب .

والحقيقة هي أن الشريف غالب أخطأ كثيراً بتوجهه الى سلطان الترك ليردّ عنه ما يزعمه اعتداء من الوهابيين على (ممتلكاته) وعشائره ومناطق نفوذه

وتلويحه بالخطر الوهابي على الحرمين وعلى أهل السنة ونحو هذا.. ليحمل السلطان على التحرك والنجدة .. فقد كان أولى له وأنفع لبلاده والمسلمين عامة أن يسعى جاهداً الى التفاهم مع الدرعية مهما يكن الثمن، فرجال الدرعية اخوان له عرب متمسكون بدينهم وأخلاقهم ، والاتفاق معهم يضمن له وللعرب كرامتهم وحريتهم وعزتهم ، وليس الأمر كذلك مع السلطان العثماني ..

لم يتفتح قلب الشريف غالب لإدراك هذه الحقيقة إلا بعد معارك خاسرة خاضها ضد الوهابيين، وبعد توثقه من استخفاف السلطان العثماني بشأنه. ويمكن القول ان معركة (الجمانية) ، كانت بدء التحول في سياسة الشريف غالب نحو الدرعية ، ومن المؤسف انه لم يستمر في سياسة الاخوة وعاد الى قديم عهده في موالاة السلطان العثماني واستفزازه ضد أهل نجد .

وما نحن نلّم بما كان بين الشريف والوهابيين من معارك حتى عام ١٢١١ هـ . وهو العام الذي أظهر فيه رغبته في التفاهم مع الدرعية .

معارك بين الشريف غالب والوهابيين (من سنة ١٢٠٨ الى سنة ١٢١٠ هـ) :

ذكر ابن دحلان خمس غزوات وقعت من الشريف غالب ضد أنصار الدعوة بين عام ١٢٠٨ هـ . وعام ١٢١٠ هـ ، وهي :

١ - في ذي الحجة ١٢٠٨ هـ . هاجم المضايقي - وكان من رجال الشريف - برجال من البقوم وغيرهم جماعة ابن قيحان. وأخذ إبلهم وعاد بها إلى مكة .

٢ - في عام ١٢٠٩ هـ . سار الشريف غالب عبد المعين إلى « رغو » حيث كان يقيم « هادي بن قرملة » ، فلما عرف هذا مقدم الشريف هرب ، فسار الشريف إلى « رنية » ، وكان فيها ابن قطنان فأسره وأرسله إلى الشريف غالب فمنّ عليه وأطلقه ، فعاد إلى الغدر ، ثم استطاع الشريف غالب أن يمسك به فقتله ، ثم سار الشريف إلى بريم وشعيا ثم إلى سياج الخيل ، حيث كانت جماعة من المتوهابين من هتيم ومطير ، ففرت مطير ، وأما هتيم فبقيت فقتل منهم كثيراً وأخذ مواشيهم ثم رجع إلى مكة .

٣ - عام ١٢١٠ هـ . سار ناصر بن سليمان إلى آل روق المتوهبين ، وقتلهم قتل شنيعة وأخذ إبلهم .

٤ - عام ١٢١٠ هـ . أرسل الشريف غزواً إلى رنية ، حيث كان ينزل هادي ابن قرملة ، فقتلوا من جماعة هادي حوالي ١٠٠ ثم صادفوا جماعة من قحطان تحت امره ابن قيحان ، فقتلوا عدداً منهم وأخذوا إبلهم .

٥ - عام ١٢١٠ هـ . التقى ناصر بن سليمان في الشماس بجيش وهابي ، فيه ابن ربيعان وهادي بن قرملة والدوشان وغيرهم ، وقد قتل من جماعة الشريف ثلاثة وأربعون رجلاً ، واستولى الوهابيون على كثير من المواشي وعاد ناصر إلى مكة منهزماً .

لا يذكر ابن بشر ، في تاريخه شيئاً من هذه الغزوات ، ولكنه يتحدث عن غزوة قام بها عبد الله بن محمد بن معقل ، صاحب بلد شقراء ، ضد بوادي عتيبة سنة ١٢٠٨ هـ . ويقول ان قتلاً شديداً نشب بين الفريقين في أرض البعث ، الجبل المعروف في ركبة ، ثم وقع على الغزو هزيمة وأخذ من ركائبهم قريب مئة مطية ، وقتل من الغزو رجال وقتل من عتيبة عدد كثير .

معركة الجمانية :

في عام ١٢١٠ هـ . أرسل الشريف غالب حملة بقيادة الشريف فهيد ضد بوادي قحطان التي كان يتزعمها هادي بن قرملة ، فأنزلت بهم خسائر فادحة ، ويقال ان الشريف فهيد أسر ابن قرملة ثم عفا عنه وأطلقه .

يسمي المؤرخ التركي جودت باشا هذه المعركة باسم « روغ النعام » ، زاعماً انه مكان المعركة ، ويقول ابن غنام ان البوادي التي كانت مع فهيد فاجأت ابن قرملة على ماء يقال له : (ماسل) ، وكانوا قد قتلوا « عيونته » حتى يعموا عليه أخبارهم ، فدموه في بعض الشعاب فقاتلهم ثم انهزم ، وقتل من بوادي قحطان التي كانت مع ابن قرملة ٣٠ رجلاً .

لم تسكت الدرعية عن هذه الهزيمة تنزل بحليفها فقد سار سعود إلى الحجاز

وأغار على فرسان من عتيبة ومطير كانوا متجمعين في الحرة وقتل منهم ثلاثين رجلاً وسار مبارك بن هادي إلى ناحية نجران وأغار على بواديها وقتل منهم رجالاً وأخذ أموالهم وأرسل أخماسها إلى عبد العزيز .

ثم كانت المعركة الكبيرة التي ثار بها سعود لهادي بن قرملة ...

وقعت المعركة في (الجمانية) ، وهي مورد ماء بمالية نجد ، ويبدو أن سعود لم يشترك فيها بنفسه ، ولكنه أرسل إلى هادي بن قرملة الذي كان يقاتل حملة كبيرة جهزها ضده الشريف غالب بقيادة الشريف ناصر بن يحيى (جموعاً عظيمة من بوادي عتيبة ومطير والسهول والعيجان وغيرهم ، ثم انضم اليهم رجال الدواسر .

قال ابن غنام :

(فاجتمعت تلك البوادي والجنود قرب الماء المعروف بالجمانية في عالية نجد عند جبل النير ، من مياه قريبة منهم .

ثم إن الشريف ناصر سار بالجموع والمساكر العظيمة ومعهم مدفع ، ونزل على ماء الجمانية ، واجتمع عليه كثير من بوادي الحجاز بأموالها وأهلها ، فالتقت الجموع على الماء المذكور ، فحمل هادي بن قرملة ومن معه على جنود الشريف قولوا منهزمين ، فلحققتهم تلك البوادي والجنود ، ومنحهم الله أكتافهم وأموالهم فقتل منهم نحو ثلاثمائة رجل ، وغنم منهم هادي وجموعه من الإبل والغنم والأمتعة ما لا يعد ولا يحصى ، حتى ذكر أن الرجل والرجلين يحوزون مائة بعير ، وأخذوا خيمة ناصر ومدفعه ، وهرب ومن معه إلى أوطانه ، وعزلت أخماس تلك الغنائم وقبضها عبد العزيز (١) .

(١) في ابن غنام أن عبد العزيز بعث محمد بن معيقل في أثر بوادي الشريف ، وأدرك منهم بني هاجر على الماء المعروف بالفتصلية قرب بلدة تربة فأغار عليهم وأخذ جميع أموالهم وقتل منهم نحو أربعين رجلاً .

وفد من علماء نجد الى مكة :

أراد الشريف غالب ، بعد هزيمة جنده في الجمانية ويأسه من مسونة السلطان العثماني ، التقرب من الدرعية ، فأرسل مندوبين عنه الى الأمير عبدالعزيز في الدرعية ، ليطلبوا منه باسمه علماء من أهل نجد يحضرون معهم الى مكة ويدينون لأهلها حقيقة الدعوة التي نهض بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ورجال نجد . قال ابن غنام : (فلما عرف إمام أهل الإيمان ما قصده ذلك الإنسان ، وما حرص عليه من المناظرة لديه والتبيان ، رغب أن يكون انفتح له من الدعوة شي ، او نشر له من الحق طي ..

وكان من حسن سيرة عبد العزيز وفطنته ، وبديع هديه وسنته .. انه يدعو الى الله تعالى بالتالي هي أحسن وأحكم .. فرأى إسعافه بذلك المرام .. فعسى أن يكون له سبباً للسعادة ..

فعند ذلك أرسل اليه من أهل الدين من يكشف له عن شبه المبطلين ..) وهكذا جاء الى مكة وفد من كبار علماء نجد ، عُرفوا بحسن المناظرة وقوة الحجة ، وكان على رأسهم الشيخ حمد بن ناصر بن معمر ، وقد أرسل معهم سعود جزوراً كثيرة لتنحدر في المروة .

وصل علماء نجد الى مكة فاستقبلهم الشريف غالب بطلاقة وجه وأكرمهم كثيراً ، وعقد لهم في قصره مجالس للمناظرة مع علماء مكة .

بدأت المناظرة في ١١ رجب سنة ١٢١١ هـ . وكان الشيخ عبد الملك الحنفي أكثر علماء مكة مشاركة وحياة في إيراد الأسئلة .

في المجلس الأول سأل علماء مكة لماذا يقتل الوهابيون من ينسبون اليهم الشرك ، مع انهم ينطقون بالشهادة ؟

فأجابهم الشيخ حمد أجوبة مقنعة ، ولكنهم لم يرتضوها ، لأنها ليست في كتبهم ، كما قالوا .. فذكر لهم الشيخ الأدلة من كتبهم ، فسكتوا .

وفي المجلس الثاني سأل علماء مكة عن السبب في تحريم دعاء الأموات

والشفاعة ونحو ذلك ، فأجابهم الشيخ حمد أيضاً أجوبة مُقنعة ، ولكنهم لم يقتنعوا بها وردُّوا عليها رداً شديداً .

وأخيراً طلبوا من الشيخ حمد أن يكتب لهم بخطه الحجج التي أوردوها والأجوبة التي أجاب بها عن أسئلتهم لينظروا فيها ويقولوا رأيهم الصريح بمحتوياتها ، فاستجاب لطلبهم ، وكتب بذلك رسالة مطولة ، عرفت فيما بعد باسم : (الفواكه العذاب في الرد على مَنْ لم يحكم السنة والكتاب) .

لم يسلم علماء مكة بما ورد في رسالة الشيخ حمد وما كان ينتظر منهم أن يفعلوا ، لأن أولئك (العلماء) كانوا - في الحقيقة - في خدمة السلطان العثماني وكانوا يتناولون مرتباتهم منه أو بأمره ^(١) .

(١) نشر ابن غنام رسالة الشيخ حمد بنصها الكامل ، بينما أغفلها ابن بشر تماماً ، بل أغفل أمر المناظرة كله وما زلنا نتمتع من ذلك . وقد نشرت الرسالة في عدة مجموعات وطُبعت مراراً . وهذه رؤوس عناوين للمسائل وأجوبتها ، كما جاءت في رسالة الشيخ حمد :

المسألة الأولى : ما قولك فيمن دعا نبياً أو ولياً واستغاث به في تفريج الكربات ؟

خلاصة الجواب : لم يقع مثل هذا ، لا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا في عهد أصحابه . والموتى يدعى الله لهم ، ولا يجوز أن يكونوا وسائط بين الله وبين الناس ، يدعونهم ويتوكلون عليهم ، ومن يفعل ذلك يشرك ويكفر بالإجماع .

المسألة الثانية : من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ولم يصل ولم يرك هل يكون مؤمناً ؟

خلاصة الجواب : إن قاله ، وهو مقيم على الشرك يدعو الموتى ويسألهم قضاء الحاجات ، فهو مشرك .

واختلف العلماء في فارك الصلاة كسلاً من غير جحود ، فأبو حنيفة ، والشافعي في أحد قوليهِ ، لا يكفرانه ، والإمام أحمد بن حنبل والشافعي في أحد قوليهِ ، يكفرانه !

والاجماع على أن الطائفة الممتنعة ، تقاتل على ترك الصلاة ومنع الزكاة ، وإن أقروا بالوجوب . وقد صرح العلماء أن أهل البلد إذا تركوا الأذان والإقامة يقاتلون ، وصرحوا بأنهم لو تركوا إقامة الصلاة يقاتلون ، وكذا لو تركوا صلاة العيد !

وعلماء حرم الله الشريف ، يقولون : من قال لا إله إلا الله ، فقد عصم ماله ونفسه ، ولو لم يعمل بمقتضاها ، وإن لم يصل ولم يرك !

... وهل هذا إلا معارضة لكلام الله ورسوله وكلام أئمة المذاهب ؟ - انظر الصفحة التالية -

عربان الحجاز يدخلون في طاعة عبد العزيز :

أخذت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تنتشر بين بوادي الحجاز وبعض البلدان في جبال عسير ، مثل بيشة وترية ، التي كانت خاضعة لأشراف مكة ، فأغار ذلك هلع الشريف غالب ودفعه إلى القتال مراراً ، ولكن قتاله لم يزد الدعوة إلا انتشاراً .

ويبدو لنا ان أقدم أنصار الدعوة في أعالي الحجاز وما يليها وأشهرهم هو : (هادي بن قرملة) ، واسم أبيه غانم ولكنهم كانوا يدعونه باسم أمه قرملة^(١) .
وفد ابن قرملة على الدرعية عام ١٢٠١ هـ . وبايع وحضر دروس الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ثم عاد الى وطنه يدعو بدعوة الشيخ السلفية ، فأصاب نجاحاً كبيراً وأصبح رئيساً على (قحطان) ، بعد دخول جماعة كبيرة من هذه القبيلة في الدعوة ، ولم يكن ابن قرملة قبل ذلك من الرؤساء والأعيان ، ولكن قدّمه علمه واخلاصه وشجاعته .

وفي العام ١٢٠٨ هـ . غزا ابن قرملة عشائر البقوم وبني هاجر وهزمهم واستاق ثلاثة آلاف من ابلهم ، وقد اشترك معه في تلك الغزوة بأمر من عبد العزيز محمد بن معيقل ، وكان معه جنود من أهل الوشم وعرب من مطير وعشائر أخرى .
وفي العام ١٢١٠ هـ . جهز الشريف غالب حملة بقيادة الشريف فهيد للانتقام

.. وفي الاقناع في كتاب الصلاة : .. فإن تركها تهاوناً وتكاسلاً .. يهدده ، فإن أبى أن يصليها ... وجب قتله .. ولا يقتل حتى يستتاب ثلاثة أيام ...

المسألة الثالثة : وهي مسألة البناء على القبور ...

الجواب : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه نهى عن البناء على القبور وأمر بهدمه .
وعنه صلى الله عليه وسلم : أنه نهى أن يجصص القبر وأن يبنى عليه وأن يكتب عليه .
وعن علي رضي الله عنه : أنه قال لأبي الهياج الأسدي : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً إلا سويته !
وعن ابن عباس : لعن الله زوارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج !

(١) ابن غنام .

من ابن قرملة ، وقد استطاعت هذه الحملة مفاجأة ابن قرملة في شعب من الشعاب كان ينزل فيه وقتلت ثلاثين من رجاله ، ولكنه استطاع الإفلات من أعدائه والنجاة ، وعاد مرة أخرى الى الإغارة على عشيرة البقوم في « تربة » ، وقتل منهم نحو مائة رجل وغنم ألوفاً من الإبل والأغنام ، فجاء رؤساء البقوم في أعقاب هزيمتهم ، الى الدرعية وبايعوا لعبد العزيز على دين الله ورسوله .

وفي العام ١٢١٢ هـ . أرسل الشريف غالب فرقه من جنوده ، بقيادة صهره عثمان المضايقي ، الى (عقيلان) ، حيث كان ينزل مسفر بن نقيحان ، شيخ آل روق من بوادي قحطان ، ولكن مسفر ورهطه وعرباً آخرين كانوا معه قاتلوا جند الشريف ومنعوه من الوصول الى عين الماء القرية منهم وقتلوا خمسين جندياً فاضطرت الفرقة الى التراجع منهزمة حتى لا يموت رجالها عطشاً ان لم يموتوا في ساحة القتال .

وفي هذا العام ١٢١٢ هـ . أيضاً سار أمير الدواسر الى بيشة والجنينة وحاصرهما وقتلهما واضطرها الى التسليم والبيعة لعبد العزيز على السمع والطاعة ولما بلغ ذلك الى الشريف غالب أرسل فرقة من جنده الى هاتين البلدين وحاصرهما وأسر وقتل كثيراً من أهلها واستولى على كثير من أموالهما ، ثم سار جنوده الى (رنية) ، فخرج أهلها اليهم وقتلوا منهم نحو مائة ، فانهزم جنود الشريف وعادوا الى مكة ..

اتفاق رؤساء عتيبة ورؤساء حرب وغيرهم ..

ولم ينقض هذا العام ١٢١٢ حتى تم التفاهم بين حمود بن ربيعان ، من رؤساء عتيبة ، وبين رؤساء (حرب) وغيرهم من عربات الحجاز ، على الدخول في طاعة عبد العزيز ، فأرسلوا وفدأ منهم الى الدرعية وعرضوا على عبد العزيز المبايعة على السمع والطاعة ، فقبل منهم ، ولكنه (جعل على كل بيت شيئاً من الدراهم ، وعلى كل سلف ركاباً وسلاحاً وخيلاً ، وذلك عقوبة لهم نكلاً ، لأنهم مالوا الى طريق المبطلين .. وكان التنكيل بالمال .. سنة عبد العزيز في من عدل

عن الحق وركب طريق الاعوجاج .. وقبل عرب الحجاز ما فرضه عليهم عبد العزيز وتمسكوا بطاعته (١١) .

معركة الحرمة :

لم يسع الشريف غالب ، وهو يرى مد البحر السعودي يحيط به من كل جانب ، إلا أن يجمع قواه لمعركة كبيرة حاسمة ، تعيد اليه تلك العشائر التي تتبع القوي دائماً .

فسار « بالعساكر العظيمة من البادي والحاضر و (المصارية) والمغاربة وغيرهم في عدد وعدة وكيد هائل » (١٢) الى قتال هادي بن قرملة ، الذي تحداه غير مرة ، فرأى في طريقه عيوناً لابن قرملة فأمسكهم وتهدهم وسألهم عن مكان تجمع عربان قحطان مع رئيسهم ، فدلثوه على مكانهم ، فحشى اليهم ونازلهم وغنم منهم .

ثم سار الى (رنيه) التي دخلت في طاعة عبد العزيز ، ونزلها ابن قرملة ، فأبوا التسليم اليه ، فقطع نخيلهم وقتلهم ، واستمرت المعارك بينهم أياماً سقط خلالها أكثر من مائة قتيل ، ولكن (رنيه) بقيت صامدة ، فتركها ، وذهب الى (بيشة) بدعوة من جماعته ، الذين طلبوا منه أن يحضر الى بلادهم لتأديب خصومهم أنصار الدعوة ، الذين يهجرون البلدة وينضمون الى صفوف ابن قرملة ، فأسرع الشريف اليهم وأقام في بيشة أياماً ، واعتقل من أهل الدعوة جماعة ، ثم سار عنهم الى « الحرمة » ، وفيها أنصار للدعوة ، فلما وصلها أمر بإحراقها فأشعلت فيها النيران ..

ولكن الشريف فوجئ بما لم يكن في حسبانته ، وذلك ان سعود - وكان غازياً من الشمال - أمر جنوده الذين من منطقة بيشة وما حولها ، أن يتفصلوا عنه ويذهبوا الى ابن قرملة ويكونوا تحت إمرته ، كان الامام عبد العزيز - قبل

(١) ابن غنام .

(٢) ابن بشر .

ذلك - قد أرسل الى هادي بن قرملة أمير قحطان وربيع بن زيد، أمير الدواسر،
والى قبائل من أخلاط البوادي كانوا مع جيش من الحضرة (وأمرهم أن يجتمعوا
ويكونوا في وجه الشريف ، فقوتى الله عزائهم وساروا اليه حتى دهموه في منزله
على الحرمه المذكورة ولم يقفوا دون خيامه ، فألقى الله الرعب في قلوب عساكر
الشريف وانهمزوا لا يلوي أحد على أحد وتركوا خيامهم ومحاهم وجميع أموالهم
والقوم في ساقطهم يقتلون ويغنمون ... وكانت عدة القتلى ألف رجل ومئتين
وعشرين رجلاً منهم الشريف مسعود بن يحيى بركات .. وغيره من الأكابر .

وأما النقد فمختلف فيه ، فمنهم من يقول ان في خزائن غالب خمسة عشر
الف مشخص نهب .. وغنموا جميع ما في المضرب من الأموال .. وأخذوا
سلاحاً ..) وإبلاً وأمتعة ، وانصرف الشريف (وشريد قومه مكسوراً ، فلم
تقم له بعد هذه الوقعة العظيمة قائمة ..) (١)

الشريف غالب يطلب الصلح فيجابه اليه :

في عام ١٢١٣ هـ . أرسل الشريف غالب ، بعد هزيمته الساحقة في الحرمه ،
الى عبد العزيز يطلب منه المهادنة والمصالحة ، فأجابه الى ذلك .

لا يذكر ابن بشر شيئاً عن شروط الصلح الذي انعقد بين عبد العزيز
والشريف ، وأما المؤرخ التركي جودت باشا فيقول ان الاتفاق يتضمن :

١ - المسألة ، ووقف الحرب بينها .

٢ - السماح للوهابيين بالحج الى بيت الله الحرام .

٣ - تعيين حدود للممالك والقبائل التي تحت طاعة الشريف والتي تحت طاعة
عبد العزيز . وكان ممن في طاعة الشريف : القبائل التي حول مكة والمدينة
والطائف وبنو سعد وناصره ويحيلة وغامد وزهران والحو (٢) وبارق ومحائل .
وبالجملة ، كان الصلح قائماً على ركنين أساسيين : حرية الحج لأهل نجد ،

(١) ابن بشر .

(٢) لعلها الخوات .

واحترام كل من الفريقين لسيادة الفريق الآخر في أرضه وعلى العشائر التابعة له .

حرية الحج :

أما الحج فقد ضمن الشريف حرية ، ويقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢١٤ ، ان سعود حج " ذلك العام وحج " معه أهل نجد والجنوب والأحساء والبوادي ، (وكانت حجة حافلة بالشوكة وجميع الخيل والأنقال والنساء ، واعتمروا وقضوا حاجتهم على أحسن الأحوال ولم ينلهم مكروه ، ورجعوا سالمين) . ويقول ، في أخبار سنة ١٢١٥ هـ . ان سعود حج " بالمسلمين للمرة الثانية (وكان أبوه عبدالعزيز على رأس الحجاج ولكنه مرض في بعض الطريق فرجع ، فاحتفلوا احتفالاً أعظم من الأولى التي قبلها ، وأجل معه غالب أهل نجد وامن تبعمهم من البوادي وغيرهم بالنساء والأطفال ، وقد اعتمروا وحجوا على أحسن حال ، واجتمع سعود بغالب في مكة ، وبذل سعود في مكة من الصدقات والعطاء شيئاً كثيراً .)

ويقول جودت باشا إن عدد الوهابيين الذين حجوا مع سعود في ذلك العام كان يزيد على عشرين ألفاً ، وقد خشي الشريف أن يقع حدث في مكة ، فبنى الأبراج والمتاريس حول شعابها وبث " فيها رجالاً من العشائر الموالية له ، هذا مع قيامه بحق الضيافة والتكريم والتوقير للأمير سعود وصحبه .

ويقول ابن دحلان ان الشريف غالب احتس من الوهابيين قبل قدومهم ، فأمر أولاً ببناء سور الطائف ، ثم ببناء الأبراج في أطراف مكة ، فشيّد مداخل مكة بالأبراج ، وطلب كثيراً من القبائل من جميع الفجاج ، وترس جميع المداخل والأبراج ، فلم يدخل سعود بجيشه مكة قبل الوقوف ، بل نزل بعرفة ، وكان معه ما يزيد على عشرين ألفاً ، وفي أيام « منى » ، في اليوم الثاني عشر ، وقعت خصومة بين عربان الشريف وقوم سعود آلت إلى قتال بالرصاص ، فما زال الشريف يمنع عربانه حتى كف القتال ، وتبادل سعود والشريف الهدايا ...

احترام السيادة ثم الاخلال بها ونقض الصلح :

قلنا إن الركن الثاني من أركان الصلح بين مكة والدرعية هو احترام كل منها لسيادة الآخر ، وقد بقي هذا الشرط مرعياً حتى سنة ١٢١٧ هـ . ثم وقع الاخلال به ، فرجال الدرعية يقولون إن الشريف غالب هو الذي أدخل به ، وأنصار الشريف يقولون إن رجال عبد العزيز هم الذين خالفوه .

يقول ابن بشر في أخبار سنة ١٢١٧ هـ : (وفي هذه السنة انتقض الصلح بين الشريف غالب وبين عبد العزيز بن محمد بن سعود ، وفارق الشريف وزيره عثمان ابن عبد الرحمن المضايقي ، وخرج من مكة وترك الشريف وثأبذه ، ووفد على عبد العزيز وبأيعه على دين الله ورسوله والسمع والطاعة) ... الخ .

لم يقل لنا ابن بشر كيف نقض الشريف الصلح ، وإنما اكتفى بتحميله تبعة النقض ، وهكذا فعل « الفقهي » من بعده ، فقال إن الشريف غالب هو الذي نقض الصلح .. « فلم يرق ذلك في نظر المضايقي ، وزير غالب وزعيم عربان تربة وما جاورها ، فنبذه وخرج من مكة مغاضباً » .

والحق إن مجرد مغاضبة المضايقي للشريف ليس دليلاً كافياً على سوء نية الشريف ، بل هناك من يتهم المضايقي بسوء النية ، وأنه كان يحسد الشريف غالب ويطمع بمكانه ، ولذلك « شوّه سمعة الشريف عند عبد العزيز وحرّضه عليه » .

لا نعرف من جهة مؤرخ نجد أسباب نقض الصلح ، وأما مؤرخو الحجاز والمؤرخ التركي جودت باشا فيحملون تبعة النقض المضايقي بالدرجة الأولى ، ثم رؤساء عسير المنضمين حديثاً إلى الدعوة ، ولا شك أن « عقدة » الشريف غالب من الوهابيين .. وشدة خوفه من كل نجاح تصديه الدعوة بين قبائل الحجاز وعسير قد عجّلتا في نقض الصلح .

يقول ابن دحلان إن سبب نقض الصلح ان الأمير سعود كاتب شيخ محامل سعدي بن بشار وشيخ بارق أحمد بن زاهر ، فصارا يفسدان كثيراً من القبائل

حتى كان منها من الفساد ما حصل به انتقاض الصلح . ويقول « دي غوري »
 إن سبب نقض الصلح استيلاء الوهابيين على بلدة (حلي) .
 وأكبر الظن ان الحوادث التي عكرت صفو العلاقات بين الأمير عبد العزيز
 والشريف غالب كاستيلاء الوهابيين على حلي وتسلط ابن شكبان على قبائل زهران
 ومهاجمة شيخ محائل للقنفذة لم تكن أموراً غير قابلة للحل والإصلاح ، ولكن
 الشريف غالب لم يحسن التصرف حيالها ، وكان من أكبر أغلاطه انه انتدب
 المضايقي لمفاوضة الدرعية ، وهو الذي يضر له العدا . . ويقول ابن دحلان ان
 المضايقي ذهب مع عدد من الأشراف الى الدرعية ، يحملون رسائل من الشريف
 الى عبد العزيز ، فأحسن عبد العزيز استقبالهم (ولكن المضايقي .. شوّه سمعة
 الشريف عند عبد العزيز وحرّضه عليه وتعهده له بتسليمه مكة وطلب منه أن
 يولييه بلداناً سماها له ، لعل أبرزها الطائف .
 ثم عاد المضايقي من الدرعية ، ولكنه لم يذهب الى الشريف غالب ليلفقه
 جواب الإمام عبد العزيز ، وإنما ذهب الى بلدته (العبيلاء) ، ونصب فيها بيرقاً
 ودعا الناس الى طاعته .

الاستيلاء على الطائف

يقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢١٧ هـ . ان عثمان المضايقي نابذ الشريف غالب لنقضه الصلح الذي كان قائماً بينه وبين عبد العزيز ، وخرج من مكة ، وذهب الى الدرعية فبايع عبد العزيز على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ، ثم عاد الى بلدته « العبيلاء » (القرية المعروفة بين تربة والطائف ، واجتمع عليه جنود من أهل الحجاز وغيرهم .

ثم سار الشريف غالب بالعساكر والجموع ونازله في العبيلاء ، ووقع القتال ، ولم يحصل الشريف غالب على طائل ، ورحل عنه ودخل الطائف .

ثم ان عثمان المضايقي استنجد من يليه من المسلمين ، من الحاضرة والبادية ، فسار اليه سالم بن شكبان بأهل بيشة وقراها ، ومصلط بن قطنان بأهل رنية وقراها ومن كان عنده من سبيع ، وسار أيضاً حمد بن يحيى بأهل تربة ومعه القوم ، وسار هادي بن قرملة ومعه جيش من قحطان ، وسار اليه غير ذلك من عتبية وغيرهم ، فاجتمعت تلك الجموع عند عثمان ، فساروا الى الطائف ، وفيها الشريف غالب وقد تحصن فيها وتأهب واستعد لحربهم ، فنازلته تلك الجموع فيها ، فألقى الله في قلبه الرعب وانهمزم الى مكة وترك الطائف ، فدخله عثمان ومن معه من الجموع ، وفتح الله لهم عنوة بغير قتال ، وقتلوا من أهله في الأسواق والبيوت نحو مائتين ، وأخذوا من الأموال من البلد أثمناً وأمتاعاً وسلاحاً وقماشاً وشيئاً من الجواهر والسلع الثمينة ما لا يحيط به الحصر ولا

يدركه العدو ، وضبط عثمان البلد وسلمت له جميع نواحيه وبواديه ، وجمعوا
الأخماس وبعثوها لعبد العزيز ، فقرر ولاية عثمان للطائف ، واستعمله أميراً عليها
وعلى الحجاز .)

مناقشة رواية ابن بشر ومقارنتها بغيرها والزيادة عليها :

في رواية ابن بشر — كما يبدو لنا — مواطن ضعف ونقص ، فأما الضعف أو
الخطأ ففي قوله ان الاستيلاء على الطائف تم بدون قتال ، وأما النقص ففي قوله
ان المضايقي استنجد بن يليه من المسلمين ليحاربوا معه الشريف ..

ونبدأ من النقطة الثانية ، فمن غير المعقول أن يسير زعماء المناطق والعشائر
الموالية لعبد العزيز الى قتال الشريف غالب لمجرد استنجد المضايقي بهم . ولقد
أحسن المؤرخ الفرنسي « مانجان » بقوله ان المضايقي ، لما عاد من الدرعية الى
الحجاز ، كان يحمل معه رسالة من عبد العزيز الى الشريف غالب يخبره فيها بين
السلم والحرب ، ورسالة الى أمير بيشة أن يضع نفسه — في حال الحرب مع
الشريف — تحت إمرة المضايقي ؛ وهكذا يفعل سائر الزعماء المواليين ..

لا يستبعد مانجان أن يكون المضايقي ذهب الى الدرعية بأمر من الشريف ،
ولكنه كان يكتف في نفسه أمراً ، وقد أراد البقاء في الدرعية مدة من الزمان
لاجئاً سياسياً ، ولكن عبد العزيز نصحه بالعودة الى الحجاز ، فعاد ، ولما وصل
العبلاء ، مكث فيها ولم يذهب الى الشريف غالب ليلفقه نتيجة مفاوضاته في
الدرعية ، وإنما بعث اليه برسالة عبد العزيز مع رسول اختاره من رجاله الأتماء
لهذه الغاية ، وقال له : أبلغ الشريف أن المضايقي لن يأتي لمقابلتك إلا إذا أعلنت
طاعتك لعبد العزيز !

ولما سمع الشريف غالب كلمات المضايقي ، التي نقلها اليه رسوله ، وعرف
تصميمه على عداوته واستعداده لمقاتلته ، غضب وثار ، وعزم على المسير اليه ،
وسار اليه وقاتله في العبلاء ، فلما عجز عنه عاد الى الطائف وتحصن فيها !
القتال في الطائف وهرب الشريف :

أبلغ المضايقي أنصار الدعوة في الحجاز وما جاورها رفض الشريف للمصلح

وأمرَ عبد العزيز لهم بمحاربته، فجاؤوا اليه وساروا تحت قيادته لحرب الشريف في الطائف، وأغلب الظن أن ابن شكبان ورجاله هم وحدهم الذين وصلوا لنجدة المضايقي، ومهما يكن الأمر فإن أهل الطائف حاربوا المضايقي وجماعته ثلاثة أيام، ولما أدرك الشريف أنه غير قادر على المقاومة أحرق داره - كما يقول الجبرتي - وهرب إلى مكة .

ويزعم ابن دحلان أن الشريف لم يهرب من الطائف خوفاً على نفسه، ولكنه خرج منها ليدافع عن مكة، فقد بلغه أن ابن شكبان وامن معه من العربات توجهوا إليها، فأراد أن يحول دون ذلك لأن مكة أهم من الطائف، ويزعم ابن دحلان أيضاً أن الشريف غالب - وقد رأى الخلل الذي وقع في صفوف عربانه وعساكره - عاجلهم على القعود وحرّضهم على القتال وأعطى كل واحد (عشرة مشاخصة وتوجه إلى مكة على طريق المنشاة، ولما انفصل وغاب عن الطائف انفضل أهلها وذهلت عقولهم وتركوا الحصون والأسوار، وخرج من الطائف رجل يسمى «دخيل الله بن جريب» فأسرع مُجداً في طلب الوهابيين واسترجاعهم بعد أن ولّوا مدبرين، وأخبرهم بتوجه الشريف إلى مكة، فرجعوا مقبلين، وتقدمهم رجل يقال له «عبد الله البويخيت»، وكان من كبارهم، يهد لهم الأمور ويخبرهم بمن بقي في السور، فدخلها مع دخيل .. وجاء إلى بيت إبراهيم الزرعة، وكان من أعز أهل البلد، فاتفق معه على مبلغ جزيل من المال يدفعه لسلامة أهل البلد، وخرج البويخيت على أن يأتيهم بالأمان من عثمان وسالم بن شكبان، فرماه بعض أهل الطائف برصاصة .. فكان فيها موته وهلاكه، فلما علمت الوهابية بذلك حملوا على السور حملة واحدة، ولم يوجد من له قدرة على قتالهم ومدافعتهم، وكان جماعة من أهل الطائف خرجوا قبل ذلك هاربين فأدركتهم الخيل وقتلهم وما سَلِمَ منهم إلا القليل .)

منجحة الطائف :

إذا صحّت رواية ابن دحلان، كان مقتل البويخيت غدرًا سبباً في إثارة

غضب الموحدين وانتقامهم ، ولكن شيئاً على كل حال لا يبرر كثرة الفظائع التي ارتكبت ضد أهل الطائف العزل من السلاح ، فقد استنكر أكثر المؤرخين هذه الأعمال .

وأما زعم ابن دحلان أنهم قتلوا الأطفال الرضع على صدور أمهاتهم .. ولم يبقوا حيّاً .. فمحض كذب وبهتان .

لقد قدر ابن بشر قتلى الطائف ، في البيوت والأسواق ، بمائتين ، وقد يكون هذا الرقم صحيحاً أو دون الحقيقة ، ولكن ابن بشر كان مطالباً بالتنبيه على الأخطاء التي وقعت في الطائف حتى يتعظ بها الناس ، وقد أدرك الإمام سعود ذلك ، فقال ، عند دخوله مكة ، انه جاء اليها ليشرف بنفسه على أمنها ، ويمنع أن يحدث فيها ما حدث في الطائف ، وفي هذا اعتراف بالأخطاء التي ارتكبت في الطائف واستنكار لها ، ولعل الإمام سعود ما أسرع في إعطاء الأمان لأهل مكة إلا شفقة عليهم ومنعاً لتكرار مأساة الطائف في بلدتهم المقدسة .

الاستيلاء على مكة

بعد احتلال الطائف، وهزيمة الشريف غالب، أصبح الطريق إلى مكة ممهداً. فجمع سعود جموعه قرب (الزلفى) في موضع يعرف باسم (السبلة) وسار بها إلى الحجاز ، للاستيلاء على مكة ، فلما بلغ وادي العقيق نزل هناك .

رواية ابن بشر :

ويقول ابن بشر : (كان ذلك وقت الحج . وكانت الحجاج الشامية والمصرية والمغربية وإمام مسقط وغيرهم في مكة وهم في قوة هائلة وعدة ، فهموا بالخروج إلى سعود والمسير إلى قتاله ، ثم تحاذلوا وفسد أمرهم وانصرفوا إلى أوطانهم .

فألقي الله الرعب في قلب غالب وهو في مكة ، فلم يستقر فيها فانهزم إلى جده هو وأتباعه من العساكر، وحمل خزائنه وذخائره وبعض متاعه وشوكته .

ثم إن سعود والمسلمين رحلوا من العقيق ونزلوا المغاسل فأحرموا منها بعمرة ودخل سعود مكة واستولى عليها وأعطى أهلها الأمان وبذل فيها من الصدقات والعطاء لأهلها شيئاً كثيراً ، فلما فرغ سعود والمسلمون من الطواف والسمي ، فرق أهل النواحي يهدمون القباب التي بنيت على القبور ، والمشاهد الشريكة — وكان في مكة من هذا النوع شيء كثير في أسفلها وأعلاها ووسطها وبيوتها — فأقام فيها أكثر من عشرين يوماً، ولبت المسلمون في تلك القباب بضعة عشر يوماً

يهدمون ، يباكرون إلى هدمها كل يوم ، وللواحد الأحد يتقربون ، حتى لم يبقَ في مكة شيء من تلك المشاهد والقباب إلا أعدموها وجعلوها تراباً .
 وكان الشريف في هذه المدة يرأسل سعوداً ويخادعه ويطلب الصلح ويبذل المال ، وهو يريد أن يحصن جدة ويحمل ما فيها من السفن .
 ثم إن سعوداً رحل من مكة ، واستعمل فيها أميراً عبد المعين بن مساعد الشريف ، ونازل جدة وحاصرها أياماً فوجدها محصنة بسور حصين وخندق دونه ، فرحل منها .. ورتب جنداً من المسلمين في قصر من قصور مكة ورجع قافلاً إلى وطنه .)

فتح مكة في روايات الغربيين

رواية ابن بشر لدخول الوهابيين مكة ناقصة جداً ، فهو لا يشير إلى دفاع مكة الطويل ، ولا يذكر شيئاً من الأخبار عما حدث خلال مقام سعود في مكة مع ان فتح مكة حدث جليل يستحق الكثير من العناية ..
لذلك أحببنا أن ننقل بعض ما رواه المؤلفون الغربيون عن فتح مكة ، ثم نذكر رواية المقامات فأقوال ابن دحلان ، فالجبرتي .

رواية بروكهارت :

قال بروكهارت :

(بعد احتلال الطائف ، تقدم سعود ورجاله نحو مكة ، واتخذوا معسكراً لجيشهم : (الحسينية) ، حيث كان أهل مكة الأغنياء يقضون فصل الصيف ، وهي على بعد ساعة ونصف من مكة ، ومن هناك أرسلوا رجالاً احتلوا «المعابدة» وقصر الشريف غالب ، ثم أخذوا يرسلون رجالاً لمناوشة أطراف مكة ، وقد قاومهم رجال غالب ، ولكن المكين لقوا عناءً كبيراً ، لأن سعود - الذي كان استولى على عرقات - قطع المياه عن مكة ، وهكذا بقي المكين محصورين يعانون شدة العطش وقلة المؤن ، وقيل إن بعض المكين أكلوا القبط والكلاب ..
وأخيراً رحل الشريف غالب إلى جدة ، مع جميع أفراد أسرته ، وأخذ

معه كل ما كان في قصره من أثاث وأمتعة ، ثم أحرق القصر ، حتى لا يسكنه خصمه ...

وبعد يوم واحد من رحيل غالب ، ذهب رؤساء الشعب المكي إلى سعود لتسليمه البلد وإعلان الطاعة والولاء ، فقبل سعود ذلك منهم ، ودخل مكة في نفس اليوم ...

وان أهل مكة ليذكرون بشعور الرضا والعرفان أن الوهابيين أجسنا الدخول الى مكة ، ولم يرتكبوا فيها أية قسوة أو هفوة ، وقد افتتحت الحوانيت في مكة بناء على أمر سعود فصار الوهابيون يشترون منها حوائجهم ويدفعون أثمانها نقداً .

وقد ذكر سعود للعلماء الذين تحدث اليهم أنه كان قادراً على أخذ مكة واقتحامها بالقوة منذ زمن طويل ، ولكنه آثر الصبر والإنظار حتى لا تقع على سكانها أمور يكرهونها ، وأنه رأى في نومه النبي ﷺ فتوعده بالموت خلال ثلاثة أيام إن هو أخذ من أهل مكة حبة بر اغتصاباً^(١) .

ونستطيع القول إن أهل مكة أصبحوا الآن « وهابيين » يؤدون الصلوات في مواعيدها في المساجد ، وقد خلعوا عنهم ثياب الحرير ، وامتنعوا عن التدخين بل جمعوا أدوات التدخين ومواده على اختلافها وأخذوها إلى معسكر سعود حيث أحرقت وأُتلفت ..

أقام سعود الشريف عبد المعين أميراً على مكة ، واختار شيخاً من الدرعية يدعى (ابن نامي) قاضياً لمكة ، وكان هذا القاضي نزيهاً عادلاً سريع الفصل في القضايا ، وعرف له المكيون فضله ، وقارنوا بينه وبين القاضي التركي ، الذي أرسلته اليهم استانبول ، وكان غارقاً في الرشوة .

أما الدعاء للسلطان العثماني من فوق منابر مكة ، فقد أبطل تماماً) .

(١) لم نجد هذه القصة إلا في كتاب بر كهارت .

رواية كورانسيز :

ويقول كورانسيز :

(كانت سلطة عبد العزيز في ازدياد ، يوماً بعد يوم ، وقد زاد استيلاؤه على كنوز العراق في سمعة ثرائه .. وكان الناس يستسلمون اليه لأنهم كانوا يخشون شدة انتقامه من أعدائه الذين يحاربونه !

كان يبدو ان أحداً لا يستطيع الوقوف في وجهه ، وكانت حالة من الذعر مهيمنة على الشرق العربي كله ، وفي هذه الفترة ، عزم عبد العزيز على أخذ مكة ..

... أفاد عبد العزيز من الخلاف القائم بين الشريف غالب وبين أخيه عبدالمعين ، فبعدالمعين هو الأخ الأكبر وكان ، لهذا السبب ، أحق من غالب بمنصب الشرافة ، وكان مستعداً لمقاومة أخيه والسير مع عبد العزيز ، لذلك طلب عبد العزيز من الشريف غالب أن يترك منصب إمارة مكة لأخيه ، ولما رفض ، سارت جيوش عبد العزيز إلى مكة .

معركة مع عبد الله العظم ومفاوضته :

كان عبد الله باشا العظم ، والي دمشق ، متجهاً نحو المدينة ، بقافلة من حجاج الشام ، فلما وصل إلى (مزيريب) أوقفته جماعة مسلحة تتألف من (٤٠٠) وهابي ، وطلبوا منه دفع مبلغ كبير من المال حتى يأذنوا له بتابعة طريقه ، فرفض ، وجرى بينها قتال سقط فيه عدد من الوهابيين ، ثم تابع عبد الله مسيرته ، ولما وصل الحجاز ، بعث كتاباً إلى سعود ، يقول فيه انه اضطر إلى المقاومة والقتال ، لأن رجال سعود المسلحين اشتطوا كثيراً في مطالبهم ، ولم يكن مثل هذا يُصنع مع الحجاج من قبل ، وسأل سعود رأيه في هذه المسألة ؟

فأجابه سعود : الحق معك ! وأنا لم آتِ إلى هنا لأحارب السلطان . وأنت معذور في قتالك ، وأنا لا أريد أن أقاتلك ، وإنما جئت لمقاتلة الشريف غالب وحده ، وسأخرجه من مكة ، وأجعل مكانه أخاه عبدالمعين ، وأنت تستطيع البقاء في مكة ثلاثة أيام تتجهز خلالها لمغادرتها مصحوباً بالسلامة !

كان عبدالله باشا يصطحب معه الشيخ أدهم ، قاضي القدس ، الذي سافر إلى استانبول ، وطلب من مفتيها وأصحاب الشأن فيها أن يأذنوا له بمسعى يقوم به للتقريب بين العثمانيين والوهابيين ، لأن التفاهم ممكن ، إذا تخلى كل من الجانبين عن تشدده في بعض المسائل المختلف عليها ، فأذنوا له بالقيام بمساعده ووعده أن يتساهلوا في بعض الامور ، فسافر الشيخ أدهم إلى الشام ، ليتابع منها سفرته إلى الحجاز ونجد ، ولكنه خاف من تعريض حياته للخطر ، إذ بلغه تشدد الوهابيين في أمورهم وعدم استعدادهم لسماع ما ليس يعجبهم .. ولكن عبد الله باشا أكرهه على الذهاب اليهم .. ولا نعرف ماذا جرى له ، فقد احتجبت عنا أخباره !

في مكة ، لجأ الشريف غالب إلى عبد الله باشا ، ليقوم بمصالحته مع سعود ، فرفض سعود كل كلام في الصلح ، وهكذا غادر عبد الله باشا مكة إلى المدينة ، فهرب الشريف غالب ، ومعه باشا جدة ، إلى جدة .

سعود في مكة :

دخل سعود مكة ، وعامل سكانها برفق ، ولكنه قتل قاضيها العثماني « منيب أفندي » لأنه قاوم الوهابيين علناً ، وعاقب كذلك عشرين شيخاً عارضوه بشدة ، أما سائر المشايخ فقد أظهروا القبول والتسليم .

خرّب سعود الأضرحة (١) .. وخرّب كذلك « الدكاكين » التي أقامها أهل مكة للبيع في موضع الطواف .. وأقام في قلعة مكة حامية وهابية ، وجعل عليها رجلاً من قبيلة ، كان حاكم مكة « الفعلي » ، أما عبد المعين فقد ولّاه سعود شرافة مكة ، ولكنه سلبه حقيقة السلطة ، بما جعل لأمير الحامية الوهابية من سلطان في مراقبة أعماله ..)

(١) لم يخرب سعود الأضرحة ، وإنما أمر بتهديم القباب والأبنية الشيدة عليها لما يقع بسببها من المحرمات ..

تقرير بريطاني سري عن احتلال مكة :

نشرت مؤسسة الدراسات الإسلامية في جامعة باريس عام ١٩٥٠ تقريراً بريطانياً سرياً عن احتلال مكة ، كتبه مستر جون باركر في يونيو عام ١٨٠٣ م في مدينة حلب وكان موصفاً كبيراً في السفارة البريطانية في استانبول .

هذه ترجمة التقرير ، في شيء قليل جداً من التصرف :

(وصلت حلب أخبار تدمير المواقع الأثرية المقدسة في مكة ، فأحدثت في نفوس الأهلين أثراً عميقاً من الحزن والأسف والرتاء لا يستطيع أحد وصفه . وكانت الطريقة التي وصل بها هذا الخبر إلى حلب ، لا تدع مجالاً للشك في صحته .

وذلك ان العادة جرت منذ القديم ، على أن يذهب (جوخدار) إلى الباب العالي في استانبول ، لإبلاغه وصول قافلة الحجاج بالسلامة إلى (مزيريب) في طريق عودتها ، وهي أقرب بلدة شامية إلى الحجاز ، تقع على بعد ثلاثة أيام من دمشق . وعند وصول الحجاج إلى مزيريب انفصل عنهم الجوخدار ، وقصد إلى استانبول ، ومر في طريقه بحلب وأذاع هذه الأخبار . وكان يحمل معه رسائل إلى عدد من شخصيات البلد كتبها الحجاج في المزيريب بتاريخ ٢٧ و ٢٨ مايس . ان هذه الرسائل تتحدث عن وصول سعود الوهابي على رأس عدد لا يحصى من أنصاره إلى مسافة قريبة من مكة ، ولم يكن هنالك شك في نيته العدوانية ، بعد أن عرف أسلوب تصرفه في مشهد الإمام حسين ، ولذلك قام أمر القافلة عبد الله باشا ، حاكم دمشق ، بمفاوضته ، وقد نجح بعد متاعب في حمل الأمير الوهابي على الوعد بأن يؤجل الاستيلاء على مكة إلى نهاية الحج ، وألا يتعرض بأذى للحجاج عند سفرهم .

ونجاح المفاوضات يعود أكثره إلى أن عبد الله باشا ، كان في العام الماضي ، لأسباب (ومصلحة قدرها...) اعتنق سراً عقائد الفرقة الجديدة الوهابية . وهذا العمل السياسي البارع ، ساعد على انقاذ عشرة آلاف مسلم ، ولولا ذلك لكانوا مضطرين

اما الى هجر عقائدهم الأساسية واما الى الموت، اذا ما تمسكوا بمعتقداتهم...

بعد اليوم الثالث من سفر الحجاج من مكة ، لحق بهم عدد من المتخلفين الذين شاهدوا دخول الوهابي إلى مكة ، بعد ذهاب قافلة الحجاج . ويقول هؤلاء أن سعود ورجاله حبسوا « منيب أفندي » وقتلوه ، غير مباليين بمكانته ، فقد كان كبير قضاة مكة ، وهو منصب تقلده من الباب العالي ، ثم قتلوا عدداً من الموظفين الصغار ، وأمر سعود بهدم المباني الشريكية ، وأن تُسوَّى ، أو تُهدَم ، كل الأماكن التي تخالف مبادئ الدعوة .

ويقال إن شريف مكة استطاع الهرب ، قبيل دخول الوهابيين . ويقال أيضاً إن الوهابي سوف يذهب إلى المدينة ، حيث يوجد كثير من الأشياء الثمينة التي لا تقدر بثمن ، قدمت منذ أزمان متطاولة إلى ضريح النبي .

ومع ذلك فإن المدينة ، وإن تكن أصغر من مكة ، إلا أنها تلك تحصينات حسنة ، والسكان ، الذين يعرفون الخطر الذي يتهددهم ، مصممون على الدفاع عن ضريح نبيهم ، ولكنهم في الوقت نفسه يقولون باستحالة استمرارهم في الحصار أكثر من ثلاثة أشهر ، إلا إذا تلقوا عوناً ، أو قام هجوم آخر يشغل العدو عنهم .

لقد قرأت في كتاب من مفتي دمشق إلى مفتي حلب أن (آدم أفندي) ، وهو من رجال الفقه الذين يعتمدون الباب العالي ، قد أرسل أخيراً إلى مكة ليطلع على عقائد الوهابيين ومصادرهم ومشاريعهم .. وقد كان مع الذين سيعودون إلى استانبول من الحجاج ، ولكنه لما علم بدخول الوهابيين إلى مكة ، دفعته حماسته ، أو الزهو ، إلى مقابلة الأمير الوهابي ليعيده عن « بدعته » ، فيما يزعم ، أو ليحمله على تلطيف « قسوته » ضد أماكن العبادة المقدسة .

إن نتائج الحادث الذي يؤلف موضوع هذا التقرير خطيرة جداً . فالسلطان العثماني هو السلطان الوحيد الذي يلتبس منه جميع المسلمين الحماية وينادونه باسم « حامي المدينتين المقدستين : مكة والمدينة » ، ولكنه حسب القانون الإسلامي

يفقد حقه بهذا الامتياز ، متى كان غير قادر على تقديم المساعدة لحماية الأماكن المقدسة وصيانتها من كل عدوان .

هنا.. بدأ الناس يقولون جهرأ إن هذا الحادث يحررهم من واجبات الولاء ، وأخذ الاستياء يعم كل الطبقات ، ويتحدث الشعب الآن بنبوءة قديمة .. ذكرتها الكتب ، وهي ان العثمانيين تنتهي دولتهم برجل اسمه (سليم) .

إن أهل هذه المنطقة بالإجماع متشبعون بهذه العواطف ، والواعون منهم مقتنون بأنه لن يمر غير قليل حتى يقذف الوهابيون مجموعهم ... ضد دمشق وحلب !

ولكن هذه المخاوف ، في رأي المتواضع ، مسرفة .. وستمر سنوات طويلة قبل أن يتمكن الوهابيون ، — الذين لا تقدم دولة أوروبية بأسلحة حديثة — من الهجوم على مدن قوية مثل دمشق وحلب) .

وبعد أن يتحدث واضع التقرير عن نشوء الوهابية ومعتقداتها، ينهي تقريره بهذا السؤال :

(رؤساء الأتراك..أتراهم يصنعون شيئاً لإنقاذ مكة وحماية الأماكن المقدسة ، بعد كل هذا الذي حدث ؟

أم يعمدون إلى كم أفواه الناس .. حتى لا تعم الفوضى ويشتد الاستياء ضدهم ؟

لو أن مثل هذا حدث قبل نصف قرن لاهتز له عرش السلطان .

أمسا اليوم ، فحماسة الأتراك في العاصمة استانبول ، لمسائل الدين ، هبطت حرارتها كثيراً .. وأرجح الظن أنهم لن يتخذوا حتى التدابير البسيطة إلا بعد مرور وقت طويل ، لأن البطء والكسل (فضيلة) عند هؤلاء الأتراك) .

تقرير سفير فرنسا في استانبول :

ويقول غاستون فييت سفير فرنسا في استانبول، إن الدواوين الملكية في أوروبا كانت تتلقى معلومات من الشرق عن الخطر الوهابي على جزيرة العرب .

وفي عام (١٨٠٣) م . في شهر مارس ، أي قبيل استيلاء الوهابيين على مكة ، أرسل الجنرال برون سفير فرنسا في استانبول ، برقية إلى نابوليون ، يقول فيها :

(أرسل الباب العالي إلى القاهرة خمسين مدفع ميدان ومعها ذخيرتها : لكل مدفع ألف طلقة (قنبلة) . كما بعث إليها ثلاث وحدات من رجال المدفعية . ويقال إن هذا مخصص للدفاع عن مكة ضد الأمير الوهابي ، الذي يكتسح الجزيرة العربية جزءاً بعد آخر) .

دخول مكة كما يصفه المسلمون

رسالة الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ،

(.. أما بعد ، فأنا معشر غزو الموحدين ، لما من الله علينا وله الحمد بدخول مكة المشرفة نصف النهار يوم السبت ثامن شهر محرم الحرام سنة ١٢١٨ هـ . بعد أن طلب أشراف مكة وعلمائها وكافة العامة من أمير الغزو سعود ، حياه الله ، الأمان وقد كانوا تواطأوا مع أمراء الحجاج وأمير مكة على قتاله ، أو الإقامة في الحرم ليصدوه عن البيت ، فلما زحفت أجناد الموحدين ألقى الله الرعب في قلوبهم فتفرقوا شذر مذر كل واحد يعدّ الإياب غنيمة ، وبذل الأمير حينئذ الأمان لمن بالحرم الشريف ، ودخلنا شعارنا التلبية آمنين ، محلقي رؤوسنا ومقصرين ، غير خائفين من أحد من المخلوقين ، بل من مالك يوم الدين .

ومن حين دخل الجند الحرم وهم على كثرتهم ، مضبوطون متأدبون لم يعضدوا به شجراً ، ولم ينفروا صيداً ، ولم يريقوا دماً إلا دم الهدى أو ما أحل الله من بهيمة الانعام على الوجه المشروع .

ولما تمت عمرتنا جمعنا الناس ضحوة الأحد ، وعرض الأمير عافاه الله على العلماء ما نطلب من الناس ونقاتلهم عليه ، وهو : إخلاص التوحيد لله تعالى ، وحده ، وعرفهم أنه لم يكن بيننا وبينهم خلاف له وقع ، إلا في أمرين .

أحدهما : إخلاص التوحيد لله تعالى وحده ، ومعرفة أنواع العبادة ، وإن الدعاء من جملتها ، وتحقيق معنى الشرك الذي قاتل الناس عليه نبينا محمد ﷺ ، واستمر دعاؤه برهة من الزمان بعد النبوة ، إلى ذلك التوحيد وترك الاشراك ، قبل أن تفرض عليه أركان الإسلام الأربعة .

الثاني : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي لم يبقَ عندهم إلا اسمه ، وانحى أثره ورسمه .

فوافقونا على استحسان ما نحن عليه جملة وتفصيلاً، وبايعوا الأمير على الكتاب والسنة ، وقبل منهم وعفا عنهم كافة ، فلم يحصل على أحد منهم أدنى مشقة . ولم يزل يرفق بهم غاية الرفق لا سيما العلماء ، ويقرر لهم ، حال اجتماعهم وحال انفرادهم لدينا، أدلة ما نحن عليه ، ويطلب منهم المناصحة والمذاكرة وبيان الحق . وعرفناهم بأن صرح لهم الأمير حال اجتماعهم بأننا قابلون ما وضعوا برهانه من كتاب أو سنة أو أثر عن السلف الصالح ، كالخلفاء الراشدين المأمورين باتباعهم بقوله ﷺ : (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي) ، وعن الأئمة الأربعة المجتهدين ، ومن تلقى العلم عنهم إلى آخر القرن الثالث لقوله ﷺ : (خيركم قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) .

وعرفناهم أننا دائرون مع الحق أينما دار، وتابعون للدليل الجلي الواضح، ولا نبالي حينئذ بمخالفة ما سلف عليه من قبلنا .

فلم ينقموا علينا أمراً ، فألحينا عليهم في مسألة طلب الحاجات من الأموات ، إن بقي لديهم شبهة ، فذكر بعضهم شبهة أو شبهتين، فرددناها بالدلائل القاطعة من الكتاب والسنة حتى أذعنوا ، ولم يبق عند أحدهم شك ولا ارتياب فيما قاتلنا الناس عليه أنه الحق الجلي الذي لا غبار عليه ، وحلفوا لنا الإيمان المعقدة ، من دون استحلاف لهم ، على انشراح صدورهم وجزم ضمائرهم أنه لم يبق لديهم شك في من قال : يا رسول الله أو قال : يا ابن عباس ، أو يا عبد القادر أو غيرهم من المخلوقين ، طالباً بذلك دفع شر أو جلب خير من كل ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى من شفاء المريض والنصر على العدو والحفظ من المكروه ، ونحو ذلك ، أنه

مشرك الشرك الأكبر الذي يهدر دمه ويبيع ماله ، وإن كان يعتقد أن الفاعل المؤثر في تصريف الكون هو الله وحده ، لكنه قصد الخلقين بالدعاء متشفعاً بهم ومتقرباً لهم لقضاء حاجة من الله بسترهم وبشفاعتهم له فيها أيام البرزخ ، وأن ما وضع من البناء على قبور الصالحين صارت في هذه الأزمان أصناماً تقصد لطلب الحاجات ويتضرع عندها ، أو يهتف بأهلها في الشدائد ، كما كانت تفعله الجاهلية الأولى .

وكان من جملتهم : مفتي الحنفية الشيخ عبد الملك القلعي ، وحسين المغربي مفتي المالكية ، وعقيل بن يحيى العلوي .

فبعد ذلك أزلنا جميع ما كان يعبد بالتعظيم ، والاعتقاد فيه ورجاء النفع ودفع الضرر بسببه ، من جميع البناء على القبور وغيرها ، حتى لم يبقَ في البقعة المطهرة طاغوت يُعبد ، فالحمد لله على ذلك .

ثم رُفِعت المكوس والرسوم ، وكُسرت آلات التنبأ ، ونودي بتحريمه ، وأحرقت أماكن الحشاشين والمشهورين بالفجور ، ونودي بالمواظبة على الصلاة في الجماعات وعدم التفرق في ذلك ، بأن يجتمعوا في كل صلاة على إمام واحد ، يكون ذلك الإمام من أحد المقلدين للأربعة ، رضوان الله عليهم .

واجتمعت الكلمة حينئذ ، وعبد الله وحده ، وحصلت الالفه ، وسقطت الكلفة ، وأمر عليهم ، واستتب الأمر من دون سفك دم ، ولا هتك عرض ولا مشقة على أحد ، والحمد لله رب العالمين .

ثم دفعت لهم الرسائل المؤلفة للشيخ محمد — رحمه الله — في التوحيد ، المتضمنة للبراهين وتقرير الأدلة على ذلك بالآيات المحكمات والأحاديث المتواترة ، مما يثلج الصدور . واختصر من ذلك رسالة مختصرة للعوام تنشر في مجالسهم ، وتدرس في محافلهم ، ويبين لهم العلماء معانيها ، ليعرفوا التوحيد فيتمسكوا بعروته الوثقى ، ويتضح لهم الشرك فينفروا عنه ، وهم على بصيرة آمنين .

وكان فيمن حضر مع علماء مكة وشاهد غالب ما صار : حسين بن محمد بن الحسين ، الأبريقي الحضرمي ، ثم اللحياني ، ولم يزل يتردد علينا ، ويحتمع بسعود

وخاصته من أهل المعرفة ، ويسأل عن مسألة الشفاعة التي جرّد السيف بسببها من دون حياة ولا خجل ، لعدم سابقة جرم له ، فأخبرناه بأن مذهبنا في أصول الدين مذهب أهل السنّة والجماعة ، وطريقتنا طريقة السلف ، التي هي الطريقة الأسلم والأعلم والأحكم الخ ...

ونحن أيضاً في الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، ولا ننكر على من قلد أحد الأئمة الأربعة دون غيرهم ، لعدم ضبط مذاهب الغير ، كالرافضة والزيدية والإمامية ^(١) ونحوهم ، ولا نقرّهم ظاهراً على شيء من مذاهبهم الفاسدة ^(٢) .

رواية ابن دحلان :

يقول أحمد بن زيني دحلان أن رجال نجد لم يكونوا يريدون الهجوم على مكة خلال موسم الحج ، حتى لا يشتبكوا في قتال مع الحاج الشامي والمصري ، فبقوا في الطائف حتى انقضى الحج وعاد الحجاج الى بلادهم ، فساروا يحبوسهم الى مكة ، واستنجد الشريف غالب بأمرأء الحج لمساعدته في قتال الموحدين

(١) كتب ناشر الرسالة ، الشيخ محمد رشيد رضا : ان كلمة الرافضة ، التي وضعت لفلاة الشيعة ، تشمل الباطنية دون الزيدية ومعتدلي الامامية .

والظاهر أن صاحب هذه الرسالة ووالده لم يطلعا على كتب الزيدية في الفقه ، ولو اطلعا عليها لعلما أن فقههم مدون ، وكذلك الامامية ، وأن الفرق بينه وبين فقه الأربعة قليل ، قلما قال أحد مجتهديه قولاً انفرد به وخالف الاجماع قبله ، وكيف وهم يحتجون بالاجماع وبعمل السلف ، وكذا بأحاديث دواوين السنة المشهورة ، كالكتب الستة ..

وقد كان مشايخنا يقولون - كما يقول مشايخ نجد - ان سبب حصر التقليد في فقه الأربعة ، دون سائر مجتهدى الأمة ، هو تدوين مذاهبهم دون غيرها . وهذا غلط ، سببه عدم الاطلاع !

(٢) أي لا نقر بصفتنا حكام البلاد أصحاب المذاهب غير المضبوطة علي أن يظهروا شيئاً من مذاهبهم الفاسدة بالاجماع كأقوال الباطنية بأن لأحكام العبادات معاني غير الظاهر الذي عليه العمل ، وبوجود إمام معصوم في كل عصر يجب اتباعه في كل ما يقول .. ومقابل قوله ظاهراً : انهم لا يحاسبون أحداً على ما يخفيه من أمثال هذه المسائل .

فرفضوا مدعين أن المال ينقصهم ، فتعهد لهم بالمال فاعتذروا .. وقالوا نكتب
سعوداً لعله يلين ويهادن .. وكتبوا سعوداً فأجابهم (وأكثر من التهديدات وأظهر
لهم أنه في غاية القوة ، ثم أعادوا المراسلة .. فأنذروهم بعدم البقاء في مكة فوق
ثلاثة أيام ..) فسافر أمير الحج الشامي عبد الله باشا العظم ، وأمير الحج المصري
عثمان بك فرجي ، ثم سافر شريف باشا والي جدة .. وبقي الشريف غالب
وحيداً .. وأدرك عجزه عن المقاومة ، فهرب هو أيضاً الى جدة .

يجمع ماله ويحرق داره :

ويقول الجبرتي : ان الشريف غالب إنما استبقى أمراء الحج أياماً معدودة في
مكة ليستطيع جمع أمواله ونقلها الى جدة ، قبل أن يفاجئه سعود ، وقد حقق
غاياته ، وأحرق داره في مكة بعد إخراجها ونزل الى جدة .

كتاب الاستسلام وطلب الأمان :

بقي الشريف عبد المعين بن مساعد في مكة ، بعد هرب أخيه ، فجتمع
وجهاء مكة لتذاكر الموقف ، فقرروا الاستسلام ، وهذا ما قاله ابن دحلان :
(عند ذلك أرسل الشريف عبد المعين بن مساعد كتاباً الى سعود مع القائد
حامد بن سليم آغا ، وطلب منه أماناً لجيران بيت الله الحرام ، وأن لا يخفر
لسكان مكة ذمام ، وأن يكون هو عامله فيها ، وأن أهل مكة تحت طاعته ،
وأرسل أهل مكة رسلاً من أفاضل العلماء وأهل البيت النبوي — منهم محمد
طاهر سنبل وعبد الحفيظ المعجمي ومحمد بن محسن العطاس والسيد محمد ميرغني —
واجتمعوا بسعود بوادي السيل ، على مرحلتين من مكة ، وطلبوا منه الأمان ،
فأجابهم :

(إنما جئكم لتعبدوا الله وحده وتهدموا الأصنام والطواغيت ولا تشرکوا
بالله الذي يحيي ويميت) .

فأجابه الشيخ طاهر بقوله : والله ما عبدنا غير الله .

فمد لهم يده وقال : عاهدتكم على دين الله ورسوله ، وتوالون من والاه
وتعاديون من عاداه ، والسمع والطاعة .

فعاهدوه على هذا المقال .. وأمر كاتبه أن يكتب كتاب الأمان ، ليحصل لأهل مكة الاطمئنان ، في كاغد لم يزد عن الخمس الأصابع ، وهذا ما هو مذكور فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من سعود بن عبد العزيز
الى كافة أهل مكة والعلماء والاغوات وقاضي السلطان ،
السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد .. فأنتم في وجه الله ثم وجه أمير
المؤمنين سعود بن عبد العزيز ، وأميركم عبد المعين بن مساعد ، فاستمعوا له
وأطيعوا ما أطاع الله ، والسلام) .
وكان وصول هذا الكتاب يوم الجمعة ٧ محرم ١٢١٨ هـ . فصعد به المنبر السيد
حسين مفتي المالكية بعد صلاة الجمعة وقرأه .

صفة دخول سعود الى مكة :

في ٨ محرم وصل سعود مكة ودخل 'محرمًا' فظاف وسعى ونحر الإبل ، ثم
صعد بستان الشريف الذي في المحصب .
وفي اليوم الثاني نادى مناديه بأن سكان البلد الحرام يجتمعون في المسجد غداً
ضحوة النهار ، فاجتمعت الناس على صفاتها ، وحضر الشريف عبد المعين ومن
بمكة من الأشراف والقاضي ومفتي مكة الشيخ عبد الله القلعي وبقية المفاقي العلماء ،
وما زالت الناس في اجتماع وائتلاف ، وسعود في المطاف ، ثم أقبل وصعد بأعلى
درج الصفا ، والناس ينظرون له ويسمعون قوله ، فأخذ المفتي عن يمينه ، والقاضي
عن شماله ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :
(الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبده
وأعز جنده ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ،
والحمد لله الذي صدقنا وعده ..

ثم قال :

يا أهل مكة ، أنتم جيران بيته ، آمنون بأمنه وسكن حرمة ، وأنتم في خير

بقعة ، اعلّموا ان مكة حرام ما فيها ، لا يخلّى خلاها ولا ينفر صيدها ولا يعصد شجرها ، وإنما أحلت ساعة من نهار .

ولما كنا من أضعف العرب ، ولما أراد الله ظهور هذا الدين دعونا اليه وكلّ يهزأ بنا ويقاثلنا عليه وينهب مواشينا ونشترها منهم ، ولم نزل ندعو الى الإسلام وجميع من تراه عيونكم ومن تسمعون به من القبائل إنما أسلموا بهذا السيف — ورفع سيفه تجاه البيت الحرام حتى رآه الخاص والعام — وقد كنت في هذا العام غازياً نحو العراق ، فلما سمعت ما وقع من المسلمين بغزوة الطائف ، وأقبلوا عليكم يغزونكم خفت عليكم من العربان والبادية ، فاحمدوا الله الذي هداناكم للإسلام وأنقذكم من الشرك ، وأنا أدعوكم أن تعبدوا الله وحده وتقلعوا عن الشرك الذي كنتم عليه ، وأطلب منكم أن تبايعوني على دين الله ورسوله وتوالون من والاه وتعادون من عاداه في السراء والضراء والسمع والطاعة) .

ثم جلس ، ومدّ يده ، فأول من تقدم لمبايعته الشريف عبد المعين ، ثم المفي فالقاضي فبقية الناس ، فلما تمت المبايعة ركب فرسه وصعد إلى المحسب ، وقال قبل ركوبه :

يا أهل مكة ، انتظروني بعد صلاة العصر بالمسجد الحرام ، بين الركن والمقام ، لأبين لكم الدين وشرائط الإسلام .

فلما كان العصر اجتمعوا ، فجاء وصعد المقام الذي على ظهر زمزم ، والمفاقي معه .. وهنأ يذكر ابن دحلان — وهو خصم — كلاماً غير لائق ، خلاصته ان ما قاله سعود يعرفه حتى جهلاء أهل مكة ، وان سعوداً طلب من أهل مكة في نهاية كلامه أن يطلعوا للقبب ويهدموها ويطرحوا الأصنام ويرموها حتى لا يكون معبود غير الله .

فقالوا : سمعاً وطاعة ، فما أصبح الصباح إلا وهم سارحون بالمساحي لهدم القبب ، فبادر الوهابيون ، ومعهم كثير من الناس ، لهدم القبب .. فهدموا ما في المعلى من القبب ...

وفي اليوم السادس من أيام إقامته نادى مناديه بإبطال تكرار صلاة الجماعة

في المسجد الحرام ، فكان يصلي الصبح الشافعي ، والظهر المالكي ، والعصر الحنبلي ، والمغرب الحنفي .

ثم طلب قبائل العرب التي حول مكة ، فبايعوه وأخذ منهم شيئاً من المال . ووضع في قلعة مكة مائتين من بيضة ، وجعل أميراً عليهم فهدى بن شكبان . ومدة إقامته بمكة أربعة عشر يوماً .

رواية الجبرتي :

في صفر سنة ١٢١٨ هـ . حضر (إلى القاهرة) الشريف عبد الله بن سرور ، وصحبته بعض أقاربه من شرفاء مكة وأتباعهم نحو ستين نفرأ ، وأخبروا أنهم خرجوا من مكة مع الحجاج ، وأن عبد العزيز الوهابي دخل إلى مكة من غير حرب ، وولى الشريف عبد المعين أميراً على مكة والشيخ عقيل قاضياً ، وأنه هدم زمزم والقباب التي حول الكعبة والأبنية التي أعلى من الكعبة ، وذلك بعد أن عقد مجلساً بالحرم وباحثهم على ما الناس عليه من البدع والمحرمات المخالفة للكتاب والسنة ، وأخبروا أن الشريف غالب وشريف باشا ذهبا إلى جدة وتحصنها ، وأنهم فارقوا الحجاج في الجديدة .

... وحضر صحبة الحجاج كثير من أهل مكة هروباً من الوهابي ، ولفظ الناس في خبر الوهابي واختلفوا فيه ، فمنهم من يجعله خارجياً ... وهم المكيون ومن تابعهم وصدق أقوالهم ... ومنهم من يقول بخلاف ذلك ، لخلو غرضه .

وأرسل إلي شيخ الركب المغربي كتاباً ، ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وصورتها ...

الدعوة الإسلامية السلفية :

وقد نقل الجبرتي في تاريخه نص رسالة أمر الإمام سعود بتوزيعها وتعميمها ، وهي واحدة من رسائل كثيرة كتبها الإمام سعود ورؤساء الدعوة وبينوا فيها

العقيدة الإسلامية التي يدينون بها والتي دعا اليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ،
وهذا نص الرسالة كما وردت في تاريخ الجبرتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه نستعين، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله الله فلا هادي له .
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله .
من يُطِيع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ولا يضر إلا
نفسه ولن يضر الله شيئاً ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فقد قال الله تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا
ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم
ذنوبكم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم
الإسلام ديناً ﴾ .

فأخبر سبحانه أنه أكمل الدين وأتمه على لسان رسوله ﷺ ، وأمرنا بلزوم
ما أنزل إلينا من ربنا وترك البدع والتفرق والاختلاف .

وقال تعالى : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ،
قليلاً ما تذكرون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل
فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ .

والرسول ﷺ قد أخبرنا بأن أمته تأخذ مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر
وذراعاً بذراع وثبت في الصحيحين وغيرهما عنه ﷺ أنه قال (لتبعن سنن من

كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه ، قالوا :
يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : هن !
وأخبر في الحديث الآخر أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في
النار إلا واحدة ، قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : من كان على مثل ما أنا
عليه اليوم وأصحابي !

إذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التي أعظمها
الإشراك بالله ، والتوجه إلى الموتى ، وسؤالهم النصر على الأعداء ، وقضاء الحاجات
وتفريج الكربات ، التي لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسموات !

وكذلك التقرب اليهم بالندور ، وذبح القرбан ، والاستغاثة بهم في كشف
الشدائد وجلب الفوائد ، إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح إلا لله .
وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه وتعالى أغنى
الأغنياء عن الشرك ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، كما قال الله تعالى :
﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص . والذين اتخذوا من دونه
أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه
يختلفون . إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ .

فأخبر سبحانه أنه لا يرضى من الدين إلا ما كان خالصاً لوجهه ، وأخبر أن
المشركين يدعون الملائكة والأنبياء الصالحين ليقربوهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم
عنده ، وأخبر أنه لا يهدي من هو كاذب كفار .

وقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون
هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ، ولا في الأرض
سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

فأخبر أنه من جعل بينه وبين الله وسائط يسألهم الشفاعة ، فقد عبدهم
وأشرك بهم ، وذلك أن الشفاعة كلها لله ، كما قال تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع
عنده إلا بإذنه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ ،
وقال تعالى : ﴿ فيومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ ،

وهو سبحانه وتعالى لا يرضى إلا التوحيد ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ فالشفاعة حق ولا تطلب في دار الدنيا إلا من الله ، كما قال تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾ فإن فعلت ذلك فإنك إذن من الظالمين .

فاذا كان الرسول ﷺ ، وهو سيد الشفعاء وصاحب المقام المحمود ، وآدم فمن دونه تحت لوائه ، لا يشفع إلا بإذن الله ، لا يشفع ابتداءً ، بل يأتي فيخبره الله ساجداً فيحمده بحامد يعلمه إياها ، ثم يقال : ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ! ثم يحد له حداً فيدخلهم الجنة ! فكيف بغيره من الأنبياء والأولياء ؟

وهذا الذي ذكرناه لا يخالف فيه أحد من علماء المسلمين بل قد أجمع عليه السلف الصالح من الأصحاب والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم من سلك سبيلهم ودرج على منهاجهم .

وأما ما حدث من سؤال الأنبياء والأولياء من الشفاعة بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها وإسراجها والصلاة عندها واتخاذها أعياداً وجعل السدنة والنذور لها ، فكل ذلك من حوادث الامور ، التي أخبر بها النبي ﷺ أمته وحذر منها ، كما في الحديث عنه ﷺ أنه قال : (لا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أممي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أممي الأوثان) . وهو ﷺ حمى ضباب التوحيد أعظم حماية وسد كل طريق يؤدي الى الشرك ، فنهى أن يخصص القبر وأن يبنى عليه ، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر ، وثبت فيه أيضاً أنه بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه ولا تمثالاً إلا طمسه . ولهذا قال غير واحد من العلماء : يجب هدم القباب المبنية على القبور لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ .

فهذا هو الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس ، حتى آل بهم الأمر الى أن كفرونا وقتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا ، حتى نصرنا الله عليهم وظفرونا

بهم ، وهو الذي ندعو الناس اليه ونقاتلهم عليه ، بعد ما نقيم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع السلف الصالح من الأمة ، ممثلين لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ ، فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان ، كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ .

وندعو الناس إلى إقامة الصلوات في الجماعات على الوجه المشروع وإيتاء الزكاة وصيام شهر رمضان وحج بيت الله الحرام ، ونأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ، كما قال تعالى : ﴿ الذين إن مكثناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ .
فهذا هو الذي نعتقه وندين الله به ، فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم له ما لنا وعليه ما علينا .

ونعتقد أيضاً أن أمة محمد ﷺ المتبعين للسنة لا تجتمع على ضلالة ، وأنه لا تزال طائفة من أمته على الحق منصوره ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . (رأي الجبرتي :

ويقول الجبرتي ، بعد إيراد نص الرسالة ، ما يلي :
أقول : إن كان كذلك ، فهذا ما ندين الله به نحن أيضاً ! وهو خلاصة لباب التوحيد ، وما علينا من المارقين والمتعصبين ؟
وقد بسط الكلام في ذلك ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان) ، والحافظ المقرئ في (تجريد التوحيد) ، والإمام البيهقي في شرح الكبرى ، وشرح الحكم لابن عباد ، وكتاب جمع الفضائل وقمع الرذائل وكتاب مصائد الشيطان ، وغير ذلك .

حصار جدة ، واسترداد مكة

ترك سعود مكة وسار الى جدة ، لئلازتها والاستيلاء عليها ، والخلص من الشريف غالب وخطره ، ولكنه وجد نفسه أمام مدينة محصنة « بسور متين وخذق دونه » - كما يقول ابن بشر - فرجع عنها ، وعاد الى نجد .

لا يذكر ابن بشر المدة التي أقامها سعود في حصار جدة ، ويقول (ده غوري) ان جدة لم يضرها هذا الحصار لأن البحر مفتوح أمامها ، يدّها بما تريد ، فكانت قادرة على الصبر طويلاً .

ويقول الجبرتي إن حصار جدة استمر تسعة أيام وقد قطع سعود عنها الماء .. وان هجانه وردوا (من ناحية ينبع وأخبروا أن الوهابيين جلوا عن جدة ومكة بسبب أنه وصلتهم أخبار بأن المعجم زحفوا على قاعدة بلادهم الدرعية وملكوا بعضها ..) !!

وبما لا شك فيه أن (الحظ) خدم الشريف غالب كثيراً ، فقد حصنت جدة لدفع خطر بونابرت عنها ، فاذا التحصينات تستخدم في دفع هجوم لم يكن منتظراً . فقد نقل ده غوري عن المستشرق « سنوك هورغرونه »^(١) أن الباب العالي أرسل الى مكة في آخر سنة ١٧٩٨ م (١٢١٢ هـ) فرماناً يأمر بإقامة

(١) انظر كتاب غوري .

تحصينات في الديار المقدسة لمواجهة غزو يحتمل أن يقوم به الافرنسيون، وهكذا أصلحت أسوار جدة بسرعة ، ودرب الأهلون كل ليلة على الاعمال الحربية ، واستعد الناس لدفع بونا برت عنهم .

وبهذا يتبين لنا أن قول ابن بشر إن الشريف كان يرسل سعوداً - بعد استيلائه على مكة - (ويخادعه ويطلب الصلح ويبذل المال ، وهو يريد أن يحصن جدة ، ويحمل ما فيها في السفن) ادعاء غير صحيح تماماً ، لأن الشريف ما ذهب الى جدة ليحصنها ، خلال أيام قليلة .. وإنما ذهب اليها لأنها حصنه ، وتستطيع أن تحميه بسهولة، ولكننا لا نستبعد أنه كان يفكر في الهرب بأمواله بالبحر ، متى اضطر الى ذلك ..

بالتقتال رفع الحصار !

ويقول (ابن دحلان) إن جنود سعود أحاطوا بجدة ، فرمى عليهم الشريف غالب بالمدافع والقلل ، فقتل كثيراً منهم ولم يقدرُوا على تملك جدة ، فارتحلوا بعد ثمانية أيام ورجعوا الى بلادهم .

بالمال رفع الحصار !

ويقول (بركات) إن الحصار استمر (١١) يوماً وإن الشريف تهيأ للهرب بطريق البحر ، ففوجيء برحيل سعود ، وقيل أيضاً إنه بذل مالاً لسعود ليقبل ببقائه في جدة (قيل إنه دفع له خمسين ألف ريال) ، وهذا ما ذهب اليه أيضاً مؤلف (التاج المكمل) ، ولعله نقله عن بركات .

بالمريض رفع الحصار !

ويقول كورانسيز : حاصر الوهابيون جدة ، وكانت أسلحتهم بسيطة ، وهي رماح ، وبنادق لا يحسنون كلهم استعمالها ، فلم يستطيعوا اقتحام أسوار المدينة المحصنة المنيعة ، وزاد في صعوبة الأمر أن المرض أخذ يتفشى بين الجنود الوهابيين ، فقرر سعود رفع الحصار والعودة .

ويؤيد المؤرخ الافرنسي (مانجان) ما قاله كورانسيز عن انتشار المرض بين جنود سعود ، وان سعود نفسه أصابه المرض أيضاً ، وهو : الزحار « الديننتاريا » .

وروى بعضهم عن لسان سعود أنه قال :
« إني أدع جدة ، لأنني لا أستطيع الصبر على حرّها أكثر مما صبرت ! »

الشريف غالب يسترد مكة من الموحدين

يقول ابن بشر في أخبار سنة ١٢١٨ هـ . ما يأتي :
(.. وفيها رحل الشريف غالب بعسكره من جدة الى مكة ، ونزل أهل القصور الذين رتبهم سعود فيها ، كما تقدم ، فأخرجهم منها بالأمن واستولى على مكة .)

هذه هي رواية ابن بشر عن استرداد مكة وهي تدهش بإيجازها وغموضها ، مع ان الحادثة جلية الشأن ، وقد كان ابن دحلان أكثر عناية بأخبارها ، فنوّه بخطورتها وسمّاها « غزوة الفتح » ، وهو اسم يبدو لنا مضحكاً حين نعلم ان جنود الترك كانوا وراء هذا الفتح ، ولكنه بيّن لنا ، على كل حال ، ان الحامية السعودية لم تستسلم دون قتال .

يقول ابن دحلان ان الشريف غالب توجه من جدة الى مكة لإخراج من فيها من جماعة سعود وأبي نقطة ، وان والي جدة التركي شريف باشا كان يصحبه ، وكان معهما (كثير من العساكر والجنود وثلاثة مدافع ، منها مدفع كبير أهدها له إمام مسقط) ، فنزل أولاً بالزاهر ، ثم أرسل العساكر والعبيد وأحاطوا بالقلعة التي يجياد ، وفيها من خلفهم سعود ، وترسوا البيوت التي تليها وحصروهم أشد الحصار .

ودخل الشريف مكة بعد الاشراف ولم ينازعه الشريف عبدالمعين في ما يروم . ثم رتب بعض العسكر وأمرهم أن يحيطوا بالبستان الذي فيه من خلفهم أبو نقطة ، وأثار الحرب عليهم وركب عليهم المدفع ، وصنع لغماً تحت الأرض ،

فلما أثاروه رفع البرج الى الجو بمن فيه من الجند، ومع ذلك ما برحوا عن القتال، فطلب مدفعاً كبيراً من جدة ، لا يمكن سيره بدون خمسين بعيراً ، فلما وصل رموا به جدار البستان ، فصار في كل رمية يطرح جانباً من البنيان ، حتى وقع منه شيء كثير ، فطلبوا الأمان فأعطاهم الأمان ، واستأجر لهم جمالاً يتوجهون عليها الى بلادهم (١) .

وأما الذين في القلعة فما فتر العسكر عن قتالهم ، وكان يخرج جماعة منهم بالليل ويحرقون بعض العيش ويعودون الى القلعة ، ونزل جماعة منهم يوماً في ضحوة النهار ونهبوا أغناماً فتفازعت العسكر عليهم فرجعوا الى القلعة ، فوضع الشريف لهم حرساً لئلا يخرج أحد منهم من القلعة .

وبعد ثلاث أو أربع ليال هربوا من القلعة في جنح الليل ، وما طلب الذين كانوا في البستان الأمان إلا بعد علمهم بخروج الذين كانوا في القلعة ، وكانت مدة الحصار للجميع ٢٥ يوماً .

تلك رواية ابن دحلان ، ولم يغفل الجبرتي ، في تاريخه ، قصة عودة الشريف غالب الى مكة ، ولكنه لخص القصة بكلمة غريبة جداً، مع شدة تحريه للحق، وما ندري كيف تورط فيها ، قال :

(.. رجع الشريف غالب الى مكة .. ورجع كل شيء الى حاله الأول ، ورد المكوس والمظالم .)

وهذا الكلام قد يوهم ان المكوس والمظالم جرت في فترة النفوذ السعودي — أيام عبد المعين — مع ان المستشرق بركات ، الذي كان مقيماً في مكة قريباً من هذا الوقت ، شهد شهادة حق، وهي ان الوهابيين أحسنوا الدخول الى مكة ولم يرتكبوا فيها أية مظلمة (٢) .

(١) يقول النعمي في تاريخه ان عدد حامية عسير في مكة كان ٤٠٠ .
(٢) يذكر ابن بشر حادثة استرداد الشريف لمكة بعد غزوة سعود للعراق في ولايته ، مع انها تمت في ولاية عبد العزيز ، وكان يجب تقديمها ..

جبل شمر

في أول القرن الثالث عشر (عام ١٢٠١ هـ . ، أمر عبد العزيز عامله على القصيم ، حجيلان بن حمد ، أن يغزو بأهل القصيم وغيرهم جبل شمر ، فغزاه وقاتل أهله حتى أذعنوا ويايعوا لعبد العزيز ، ودخلوا في طاعته .

كان أمراء حایل ، في تلك الأيام من آل علي ، فلم ينتزع عبد العزيز الإمارة منهم واستبقاها فيهم ، وعند وفاته كان أميره على جبل شمر : محمد بن عبد المحسن ابن فائز بن علي ^(١) .

أما الجوف — وهي اليوم جزء من إمارة حایل — فلم يتم إخضاعها إلا عام

(١) بقي أمير حایل هذا محتفظاً بإمارته طول ولاية عبد العزيز ، ثم سعود الكبير ، ثم خلال ولاية عبد الله بن سعود ، وبقي على رأس إمارته بعد مصرع عبد الله وتدمير الدرعية ، وفي سنة ١٢٣٤ هـ . ، بعد استيلاء المصريين على نجد ، وثب أحد قواد محمد علي ، الذي نزل مع عسكره في حائل ، على الأمير محمد المذكور وقتله .

ولما استعاد تركي البلاد من الترك والمصريين ، اختار أميراً للجبل أخاً لأميرها القليل ، وهو : صالح بن عبد المحسن .

ولما تولى فيصل الإمارة ، عزل صالح عن إمارة حایل واستعمل مكانه : (عبد الله بن علي بن رشيد) ، وبذلك انتقلت إمارة الجبل إلى آل رشيد ، وبقيت فيهم حتى عام التحاقها بالملكة ، في عهد الملك عبد العزيز .

١٢٠٨ هـ . ويذكر ابن بشر في أخبار هذه السنة أن عبد العزيز أمر أهل الوشم والقصيم وجبل شمر أن ينفروا غزاة مع أمراءهم ، وأمرهم أن يسيروا إلى (دومة الجندل) ، المعروفة بحوف آل عمرو في الشمال ، فسار الجميع ونازلوا أهل تلك الناحية وأخذوا منها ثلاث بلدان ، ثم حاصروا الباقين .. فلم يزالوا محاصرين لهم حتى بايعوا على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ،^(١) .

(١) يقول ابن غنم إن قرية بني سراح ، من قرى الجوف بقيت ممتنعة ، فأعطى أمير الغزو محمد بن معقل شيئاً من الأموال التي جمعها إلى (آل درع) وكانوا مقاومين لابن سرح .

الزبارة والبحرين

يقول ابن بشر في أخبار سنة ١٢١٦ هـ . : (في هذه السنة . . سار سلطان ابن أحمد ، صاحب مسقط ، المروقة في عمان ، في كثير من المراكب والسفن ، ونازل أهل البحرين وأخذه من أيدي آل خليفة واستولى عليه . ثم إن آل خليفة ساروا إلى عبد العزيز واستنصروه ، فأمدهم بجيش كثيف من المسلمين ، فساروا إلى البحرين فصار بهم وقاتلهم قتلاً شديداً وأخذوه من يد سلطان المذكور ، وقتل من قومه ما ينيف على ألفي رجل) .

ويعود ابن بشر فيذكر لنا ، في أخبار سنة ١٢١٨ هـ . ، وهي سنة وفاة عبد العزيز : أن أميره على الزبارة والبحرين ، هو : سليمان بن خليفة . فهل دخلت البحرين حقاً تحت سلطان عبد العزيز ، كما يقول ابن بشر ؟ ما نظن ذلك ، وأقرب إلى الحقيقة أن نعتبر أمير البحرين ، حليفاً مالياً للدعية .

يقول حافظ وهبة : (في سنة ١٧٩٩ م . هاجم سلطان مسقط جزيرة البحرين وتمكن من الاستيلاء عليها سنة ١٨٠١ م . = ١٢١٦ هـ . ولم يفد عرب البحرين استنجادهم بفارس أو تركيا ، لأنه كان لدى الدولتين من المشاغل ما حال دون التدخل في حوادث البحرين .

وفي نفس السنة تمكن آل خليفة ، بمعاونة النجديين الذين انتشرت حركتهم وامتد سلطانهم إلى الأحساء ، من التغلب على قوات إمام مسقط واسترداد البحرين .

وفي سنة ١٨١٠ م - ١٢٢٥ هـ. احتل النجديون البحرين والزابرة ، وُعِين
إمام نجد عبد الله بن عفيصان وكيلاً عليها وعلى القطيف وقطر ، ولكن شيوخ
البحرين استمروا على إدارة الأحكام ، واكتفى مندوب نجد باستلام الجزية
وإرسالها الى مولاه في نجد (١١) .

معنى ذلك : أن البحرين لم تدخل تحت سلطان نجد إلا في عهد سعود سنة
١٢٢٥ هـ. ومع ذلك كان ارتباطها بالدرعية قاصراً على دفع مبلغ من المال ،
وفي ذلك معنى من معاني الخضوع أو الموالاة ، ولكنه ليس الارتباط الكامل ،
كارتباط الأحساء مثلاً .

غزو بادية قطر :

في سنة ١٢٠٢ هـ. غزا سليمان بن عفيصان يجمع الموحدين (آل أبي رميح)
في قطر ، فقتل منهم نحو خمسين رجلاً وأخذ ما عندهم من الأسلحة والأمتعة
والركاب والأغنام (١٢) .

وفي سنة ١٢٠٧ هـ. غزا ابراهيم بن عفيصان بأهل الخرج والفرع وجماعة
من البدو أطراف قطر وأخذ أغناماً وركاباً وعاد .
وفي سنة ١٢٠٧ هـ. غزا ابراهيم بن عفيصان بادية قطر وأخذ منهم آباءاً
وأغناماً وأمتعة ، وعاد الى الأحساء فباعها فيها (١٣) .

(١) انظر كتابه : جزيرة العرب في القرن العشرين .

(٢) ابن غنام وابن بشر .

(٣) ابن غنام .

عسير

يذكر ابن بشر ، بين أمراء عبد العزيز ، اسم أميره على تهامة وما يليها من اليمن : عبد الوهاب ، المعروف بكنيته « أبو نقطة » . ولكنك لا تجد في كتابه حتى سنة ١٢١٨ - وهي سنة وفاة عبدالعزيز - أية إشارة الى عبد الوهاب هذا ، ثم تفاجأ بمسيره ، خلال ولاية سعود ، الى جدة لمحاربتها ، ويعرفه لنا ابن بشر حينئذ بأنه (أمير ألمع وعسير ونواحي تهامة .)

فمن هو عبد الوهاب هذا ، ومتى انضمت بلاده الى الدعوة ؟

يقول (بلايفر) في كتابه « العربية السعيدة » : ان جد عبد الوهاب كان يكنى بأبي نقطة ، لنقطة كانت على عينه ، أي أنه كان أعور ، فاشتهر بها هو وذريته .

كان عبد الوهاب في حرب موصولة مع الشريف حمود (أبو مسمار) أمير أبي عريش ، الذي كانت بلاده تمتد ، على ساحل اليمن ، من القنفذة الى بيت الفقيه ، وقد استطاع آخر الأمر أن يتغلب عليه ، فهرب حمود الى صنعاء .

كان إمام اليمن ، يومئذ ، شيخاً ضعيفاً ، وكان له ولد شاب اسمه (أحمد) ، فساعده حمود على إقصاء والده عن الحكم ، والحلول محله ، وصار يحكم اليمن من وراء أحمد هذا ، ثم تحركت فيه شهوة الثأر ، فحارب عبد الوهاب ، بمؤازرة

إمام اليمن الجديد أحمد ، وقام بعمل بطولي خارق ، فاقتحم بنفسه خيمة عبد الوهاب وقتله .

ويقول هاشم النعمي في « تاريخ عسير » : إن إقليم عسير كان يعرف بخلاف جرش ، وكانت عسير ، منذ اعتناقها الدين الإسلامي ، تابعة لمكة ، حتى إذا ضعفت الخلافة في آخر العهد العباسي ، صارت تتبع صاحب النفوذ الأقوى من حكام الأقاليم المجاورة ، كالأيوبيين والماليك في مصر ، والرسوليين في اليمن ، وأمراء مكة من الأشراف فالأتراك العثمانيين ، ولما ظهرت الدعوة السلفية في نجد وشعت أنوارها على جبال السراة ، وفد على الدرعية محمد بن عامر أبو نقطة ^(١) ، عام ١٢١٥ هـ . واعتنق الدعوة لاقتناعه بسلامتها وصحتها ، (وبالتالي طمعاً في نيل السلطة والزعامة بين قبائله عن طريق حمايتها) ، وقد تحققت أمنيته ! ذلك أن عبد العزيز (أسند إليه حماية الدعوة في هذه الربوع ونشرها بين السكان ، واشترط عليه محاربة شريف أبي عريش ، الذي كان مناصباً العداء للدعوة .. وجهز معه جيشاً كثيفاً بقيادة أمير الدواسر) . وقد استطاع محمد ، بمعونة هذا الجيش ، تثبيت إمارته على عسير السراة وعسير تهامة ، ثم مات عام ١٢١٧ هـ . فخلفه أخوه عبد الوهاب .

قاتل عبد الوهاب الأمير حمود وهزمه ، فأعلن حمود دخوله في الدعوة ، فأبقاه عبد الوهاب أميراً على أبي عريش ^(٢) ، ولكنه ما لبث أن نقض العهد وقتل عبد الوهاب ، فقام ابن عم عبد الوهاب وخلفه (طامي بن شعيب) بمحاربة حمود واستعاد منه البلاد وضمها إلى الدولة السعودية .

(١) وهو من فخذ « المتحمي » من قبيلة ربيعة .

(٢) انظر تاريخ عسير ، للنعمي ، وبلايفر .

عمان

يذكر ابن بشر بين امراء عبد العزيز ، عند وفاته ، أميره علي بن عثمان : الشيخ صقر بن راشد رئيس رأس الخيمة .
ومن أعجب الامور أن ابن بشر لم يحدثنا قط ، خلال حويلات عبد العزيز كلها ، عن عمان ولا عن رأس الخيمة ، ولا عن أميرها .. وإنما طلع علينا باسم صقر .. أميراً علي عمان لعبد العزيز ، من دون أن يبين لنا متى كانت هذه الامارة ومتى كانت طاعة عمان للدرعية .
لذلك وجب علينا أن نسدّ هذه الثغرة الواسعة في تاريخ ابن بشر ، ونحب أن نقول منذ الآن أن العشائر التي انضمت الى الدعوة ، في عهد عبد العزيز ، لم تكن تابعة كلها لعمان ، فرأس الخيمة نفسها ، مثلاً ، كانت مشيخة مستقلة ، والشيخ صقر بن راشد ، الذي جعله ابن بشر أميراً علي عمان ، كان رئيساً علي القواسم وحدهم ، دون عمان .

رواية اللع :

ويقول مؤلف لمع الشهاب ان عبد العزيز ، بعد استيلائه علي الأحساء ، أمر ابراهيم بن عفيصان أن يغزو عمان الصير ، فغزاهم وأخذ منهم إبلاً كثيرة ، فلما رأى بنو ياس قوة آل سعود (أرسلوا الى الدرعية رسلاً ليعاهدوا علي تبعية الدين ، وأن يسوقوا الزكاة كل عام ، فعاهدوا وأرسل معهم عبد العزيز عالماً

يعلمهم أمور دينهم .. فسمع نعيم ، أهل البريمي بذلك ، فبعثوا اناساً منهم الى عبد العزيز ، يلتمسون البيعة والطاعة ، فقبل منهم وأرسل معهم من يعلمهم أمر الدين) .

ويقول المؤلف بعد ذلك ، ان عبد العزيز حرّض جماعة نعيم على الشيخ صقر ، فإما أن يدخل في الطاعة وإما أن يحاربوه ، فلما امتنع أمدهم عبد العزيز بطائفة كبيرة من المقاتلة بقيادة مطلق المطيري ، فضيقوا على رأس الخيمة ، حتى اضطر شيخها صقر بن راشد الى إعلان طاعته وولائه لعبد العزيز ، وفعل مثل ذلك كبار أهل القواسم .

وأصبح أهل القواسم من أحسن الناس ديناً وخلقاً ، حتى أن فريقاً منهم كانوا يترددون الى البحرين فأعجب بعض أهلها بدينهم وآدابهم وأصبحوا محبين للدعوة التي شعت أنوارها من الدرعية .

رواية العرض :

وجاء في كتاب (عرض الحكومة السعودية) ان ابراهيم بن عفيصان كان نشطاً في شبه جزيرة قطر خلال العامين ١٢٠٨ و ١٢٠٩ هـ . وان أهل عمارت طلبوا في تلك الفترة من الإمام عبد العزيز (أن يضم بلادهم الى حركة الدعوة الجديدة ، ورداً على ذلك ، أرسلت الحكومة السعودية ابن عفيصان ليكون ممثلاً لها في عمان ومقره في البريمي ، فتسلم مهامه كأول أمير سعودي هناك في سنة ١٢١٠ هـ - ١٧٩٥ م . وقد خلدت رحلته البرية عبر الظفرة الى مقرّ منصبه الجديد باسم جزاير ابن عفيصان ، الذي يطلق على موضع في سبخة مطي على الطريق ، وفي أثناء إقامته في البريمي أنشأ قصراً أسماه : قصر الصبارة ، في منتصف الطريق بين بلدة البريمي وحماسا .

معاهدة مع القواسم :

وفي سنة ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م . عقدت الحكومة السعودية معاهدة مع القواسم ، وهم زعماء كانوا إذ ذاك يتمتعون بأقوى نفوذ على الساحل الجنوبي

الشرقي للخليج الفارسي ، ونتيجة لهذه المعاهدة كسبت الدعوة إلى التوحيد ، كما كسب آل سعود ، أنصاراً جديداً كثيرين على الساحل وفي الداخل .

وفي هذا الوقت بعثت الحكومة السعودية بسالم بن بلال الحرق إلى البريمي أميراً عليها ، فجددت قبائل نعيم والظواهر وبني قتب وبني ياس وغيرها في الظاهرة مبايعتها للدولة السعودية ، وجمع الأمير الجديد الزكاة منها .. ورغب حاكم مسقط في زحزحة السعوديين عن مكانهم في البريمي فعمجز فعقد هدنة معهم وانسحب إلى الجبال ..

وجاء في سجلات الحكومة البريطانية ان النفوذ السعودي في هذه الفترة كان سائداً في جميع ربوع الساحل من نهر البصرة إلى دبا ، وهي الحد الفاصل بين أراضي مسقط وأراضي القواسم .

ألحّ كل من الحكومتين العثمانية والفارسية على حاكم مسقط في مهاجمة السعوديين ، وقبل اتخاذ أي إجراء غادر الحاكم مسقط في سنة ١٢١٧ هـ . أوائل ١٨٠٣ م . ليحج إلى مكة ، وفي ذلك الوقت كان السعوديون يزحفون غرباً عبر جزيرة العرب لقتال شريف مكة غالب بن مساعد ، وكان من أكبر أعداء الدعوة ويبحث حاكم مسقط مع الشريف في إمكان حشد قواهم ضد السعوديين ، غير أنه لم يستطع أن يعرض مساعدة كافية لمنهم من احتلال مكة عقب انتهاء موسم الحج مباشرة ، وقد أدت هذه التجربة بحاكم مسقط إلى تقدير بأس الدولة السعودية فتعهد بعد عودته لبلاده بأن يدفع ائاة سنوية إلى الحكومة السعودية مقابل وقاية أراضيها ، وقد تداعى هذا الترتيب الموقت في وجه الشعور العدائي بين الجناحين المتقابلين ونشبت الحرب بينهما بعد ذلك بوقت قصير .

وزحف سالم الحرق ، أمير البريمي السعودي ، إلى الباطنة ، وكان بلا شك يحتل المنطقة بأسرها ، لو لم تثنه عن ذلك وفاة الإمام عبد العزيز في شهر رجب ١٢١٨ هـ . نوفمبر ١٨٠٣ م .

ويقول هوغارث ان عبد العزيز (حصل بواسطة قوات مسلحة أو مبعوثين على ولاء كل شبه الجزيرة ، باستثناء القسم الجنوبي الغربي) .

رواية المنتخبات :

وقد وجدنا في منتخبات حكومة بومباي ، المنشورة باللغة الانكليزية ، كلاماً عن هذه الفترة التي يشير اليها العرض أكثر وضوحاً ، إذ جاء فيها ان عبد العزيز كان يهدد عام ١٢١٤ - ١٢١٥ هـ . باكتساح عمان ، لتظاهر إمامها بالولاء للشريف غالب ، وقد ذهب إمام مسقط - وهو في نفس الوقت إمام عمان - إلى رأس الخيمة واجتمع بالشيخ صقر وعقد معه معاهدة الغرض منها الوقوف في وجه أي هجوم وهابي .

وفي سنة ١٨٠٢ م . وصل الوهابيون إلى مشارف عمان ، وكانوا يطلبون في طريقهم من البدو الانضمام اليهم فيقبلون على ذلك ، فامتد النفوذ الوهابي ، اسماً على كل الساحل من البصرة إلى دبي ، بين مسقط وأرض القواسم ، ولو استطاع الوهابيون الاستقرار هناك وتقوية مراكزهم لانطلقوا إلى جميع الجهات برأ وبجراً . عجز إمام مسقط عن وقف المد الوهابي ، فعقد مع الدرعية معاهدة لمدة ثلاث سنوات ، ولكن الأمير الوهابي لم يلتزم بهذا الصلح ، وهاجم عمان برا وبحرا واستطاعت فرقة وهابية أن تصل إلى مقربة من مقر إمام مسقط الصيفي . ويقول الكابيتين ستون : إن الوهابيين لو قدر لهم الاستيلاء على عمان لأخضعوا البلاد العربية كلها لسلطانهم ..

الكويت

يذكر ابن بشر غزوتين للكويت وقعتا في عهد عبد العزيز :
 أولاها سنة ١٢٠٨ هـ . حين غزا ابراهيم بن عفيصان أهل الكويت ، وأعدّ لهم كميناً وقتل منهم ثلاثين رجلاً .
 والثانية سنة ١٢١٢ هـ . حين غزا مناع ابارجلين الزعبي بجيش من أهل الأحساء وقصد الكويت وأغار على سوارح البلد فأخذها ، فخرج اليه أهل البلد ووقع بينهم قتال ، سقط فيه من أهل الكويت عشرون قتيلاً^(١) .
 هذا كل ما نجده في ابن بشر ، عن امور الحرب والسلم بين نجد والكويت ، وان الإنسان ليتعجب من بقاء الكويت في تلك الفترة ، على صغر رقعتها وقلة عددها ، خارجة عن سلطان الدرعية ، فما هو السر ؟
 يقول مؤلف التاج المكلل ان أهل الكويت ، بعد غارة جنود عبد العزيز على مشهد الحسين ، خافوا سطوة عبد العزيز فبذلوا له الخدم الوافرة والتحف السنية ، فكف عنهم .

(١) في تاريخ الكويت السياسي : (ثم ان الكويتيين جمعوا شملهم وقرروا القيام بحملة تأديبية على أطراف نجد ، فجهزوا سرية كبيرة وأسندوا قيادتها الى مشاري بن عبد الله الحسين . . . إلا أن هذه السرية لم تنجح ، فعادت الى الكويت . .) .

ويقول « دليل الخليج الفارسي » : إن الممثلين البريطانيين في الكويت أرسلوا الهدايا الى عبد العزيز ، وإن عبد العزيز كان يحمي البريد البريطاني في مروره عبر الأراضي النجدية الى البلاد الاوربية ، ولكن هؤلاء الممثلين ساعدوا ، في نفس الوقت ، سكان الكويت على دفع الهجوم على بلادهم .

ونقل مؤلف تاريخ « العربية الشرقية »^(١) عن بريدجس قوله : (ان الوهابيين هاجموا الكويت بخمسة مائة مقاتل ، وإن شيخ الكويت عبد الله الصباح دفعهم عن مدينته بشجاعة وقوة ، وإن طلقة واحدة من مدفع استعمله شيخ الكويت كانت كافية لردّ المهاجمين وإنزال الهزيمة بهم) .

ويعود المؤلف فينقل لنا عن « رينو » ، الضابط في البحرية البريطانية ، أنه أنزل من مدرعة بريطانية مدفعين الى بر الكويت ، وأن جنود المصنع البريطاني في الكويت اشتركوا في دفع المهاجمين أيضاً .

(١) انظر كتاب (History of Eastern Arabia) تأليف أحمد مصطفى أبو حاكمه .

غزوات عبد العزيز ضد العربان

غزا عبد العزيز ، بنفسه او بولده سعود ، البدو غزوات كثيرة ، كما غزاهم باسمه أخوه عبد الله بن محمد بن سعود ، ففي سنة ١١٧٩ هـ . غزا عبدالله (شلية) من (سبيع) ، وهم بالعرمة ، وأخذ إبلهم وخيلهم وغنمهم وأمتعتهم . وفي العام ١١٨١ هـ . غزا رجال الدرعية ، وأميرهم عبد العزيز ، فريقاً من عربان اليمن ، على المربع ، وأخذ إبلهم .

وفي سنة ١١٨٢ سار عبد العزيز الى سبيع ، وكانوا على الحائر ، فقاتلهم فانهزموا الى (قصر الحائر) واحتموا به ، فاكتفى بأخذ ما استطاع أخذه من الإبل والخيل والأمتعة وعاد الى الدرعية .

وفي هذه السنة أيضاً غزا سعود بن عبد العزيز آل مرة ، وكانوا على ماء (قنا) ومعهم غيرهم ، ولم يكد القتال ينشب بين الفريقين حتى تلاحقت الامداد على بني مرة فاضطر سعود الى الانسحاب بعد أن استشهد عشرة من رجاله .

ويقول فيليبي : (في سنة ١٧٦٨ م . عرف سعود لأول مرة في حياته القيادة المستقلة في حملتين ، فسارت الاولى منها سيراً حسناً ضد الزلفى .. وسارت الثانية ضد آل مرة ، وقد كانت في البداية حسنة ، ولكنها انتهت بتقهقر جيش سعود ، عندما تقاطرت النجدات لمساعدة خصومه ، ومُني جيش سعود ببعض

الاصابات ، منها موت ناصر بن عثمان بن معمر ، الذي كان سيصبح زعيماً للعيننة ..) .

وفي سنة ١١٨٤ هـ . غزا عبد العزيز المحرة من آل ظفير وأخذ منهم إبلاً ، ثم غزا سبيع في الحائر ، وشرع في قطع نخيلهم ، فلما طال الحصار عليهم طلبوا الدخول في الدين القويم وأعلنوا طاعتهم وولاءهم وباعوا على الاسلام .
وفي سنة ١١٨٥ غزا سعود آل ظفير ، وكانوا في أرض (غيانة) ، فقتل كثير منهم .

وفي سنة ١١٩٥ غزا سعود قبائل الظفير ومعهم غيرهم من عنزه وكانوا على (مبايض) فهزمهم ولوا هاربين (واستأصل سعود أكثر أموالهم وحازها ، فالأغنام نحو ١٧ ألفاً والإبل خمسة آلاف ، ومن الخيل خمسة عشر فرساً ، وحاز جميع ما في الحلة من الأثاث والأمتعة ، وقتل منهم قتلى كثيرة من الفرسان والرجال ..) (١) .

وفي سنة ١١٩٧ غزا سعود فرقة الصلبة من مطير وقتل عدة من شجعانهم واستولى على أموالهم .

وفي سنة ١١٩٩ غزا سعود سبيع واستخلص منهم إبلاً كانت عندهم لأهل الحريق .. ثم غزا فرقان اليمن النازلين في الروضة ، ولكن السهول أمدوهم فلما رأى سعود كثرتهم رجع عنهم ..

وفي سنة ١٢٠٥ غزا سعود فريقاً من مطير وقتل منهم حوالي خمسين وأخذ إبلهم وأغنامهم .

وفي سنة ١٢٠٦ غزا سعود مطير أيضاً وأخذ منهم ثلاثة آلاف من الإبل وثلاثين من الخيل وقتل عدداً من رجالهم ، ثم غزا هادي بن قرملة مطير كذلك واستولى على ثلاثة آلاف من إبلها .

(١) ابن بشر .

وفي سنة ١٢٠٩ غزا سعود فرقة من آل ظفير تدعى القواسم وغنم منهم ١٥٠٠ من الإبل .

وفي سنة ١٢١٢ غزا سعود عرباناً كانوا مجتمعين على الأبيض، بأعداد كبيرة وخيل كثيرة ، وكان فيهم بدو من شمر ، ورئيسهم مطلق الجربا ، الفارس الشجاع ، ومعه رجال من الظفير والبعيج والزقاريط ، (فحصل بينهم قتال شديد وطرد خيل ، ثم حل عليهم المسلحون فدموهم في منازلهم وبيوتهم فقتل عدة رجال من فرسان شمر والظفير وغيرهم ، وقتل ذلك اليوم مطلق الجربا ، وكان على جواد سابق ، وهو يقلبه بمنة المسلمين ويسرته ففترت به جواده في نعجة وأدركه رئيس السهول فقتله ، وغنم المسلمون أكثر محلتهم وإبلهم وأمتاعهم ، وقتل من المسلمين عدة رجال .. منهم براك بن عبد المحسن (١) .

غزو الشرارات في الشام :

وذكر ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢١٢ ، ما يأتي :
(وفيها غزا حجيلان بن حمد ، أمير ناحية القصيم ، يجيش من أهل القصيم وغيرهم ، وقصدوا أرض الشام ، وأغاروا على بوادي الشرارات ، فانهزموا ، فقتل منهم نحو مائة وعشرين رجلاً ، وأخذ من الإبل نحو خمسة آلاف بعير وأغناماً كثيرة وأكثر حللهم وأمتعتهم وأزوادهم ، وعزلت الأخماس وأخذها عمال عبد العزيز ، وقسم باقيها في ذلك الجيش غنيمة ، للراجل سهم وللفرس سهان .)

(١) ابن بشر .

مصرع عبد العزيز

في أواخر شهر رجب سنة ١٢١٨ هـ ، بينما كان الإمام عبد العزيز يؤدي صلاة العصر في مسجد الطريف بالدرعية ، فاجأه قاتل أثيم بطعنة خنجر ، كانت فيها منيته ، فمات شهيدا .

ويقول ابن بشر ان القاتل وثب على الإمام من الصف الثالث ، وعبد العزيز في السجود (فطعنه في خاصرته ، أسفل البطن بخنجر معه قد أخفاه وأعدده لذلك .. فاضطرب أهل المسجد ، وماج بعضهم في بعض ، ولم يكونوا يدرون ما الأمر ، فمنهم المنهزم ، ومنهم الواقف ، ومنهم الكار إلى جهة العدو العادي . وكان لما طعن عبد العزيز ، أهوى إلى أخيه عبد الله ، وهو إلى جانبه وبرك عليه ليطعنه ، فنهض عليه وتصارعا وجرح عبد الله جرحاً شديداً ، ثم إن عبد الله صرعه وضربه بالسيف ، وتكاثر عليه الناس وقتلوه ، وقد تبين لهم وجه الأمر .

ثم حمل الإمام إلى قصره ، وقد غاب ذهنه وقرب نزعه ، لأن الطعنة قد هوت إلى جوفه ، فلم يلبث أن توفى ، بعد أن صعدوا به إلى القصر ، رحمه الله تعالى وعفا عنه .

واشتد الأمر بالمسلمين وبهتوا .

وكان ابنه سعود في نخله المعروف بمشيرة في الدرعية ، فلما بلغه الخبر أقبل

مسرعا ، واجتمع الناس عنده ، وقام فيهم ووعظهم موعظة بليغة ، وعزاهم
فقام الناس وبأيعوه ، خاصتهم وعامتهم ، وعزوه بأبيه) .
من هو القاتل :

يقول ابن بشر ان القاتل .. درويش جاء إلى الدرعية (وادعى أنه مهاجر
وأظهر التنسك والطاعة ، وتعلم شيئا من القرآن ، فأكرمه عبد العزيز وأعطاه
وكساه) .

ويقول مؤلف المم إن هذا الرجل جاء من بغداد مع ركب من أهل الدرعية
فقدم على عبد العزيز ، وقال :

« أنا رجل من بغداد ، سمعت بدينك من عشر سنوات ، ولكن لم أتمكن من
الوصول إليك .. والآن - والحمد لله - قد بلغت مرادي ، فأنا أعاهدك على هذا
الدين ، وليس لي بعد ذلك رجوع إلى أهلي وعيالي ، بل داركم هذه دار هجرة
ومقام المؤمنين ، وأنتم أعز علي من جميع قومي وعشيرتي » .

وكان رجلا فصيحاً ، فقبل ذلك منه عبد العزيز ، وقرّبه إليه ، حيث أنه
رأى منه الملازمة على صلاة الجماعة والتجنب عن بعض الأمور .. المراد أن
عبد العزيز أحبه أتم محبة ، وكان إذا دخل المسجد للصلاة يجعله إلى جنبه ويقول :
هذا من الطائعين المخلصين » ..

اسم القاتل ، وبلده ، ومحرضه :

يبدأ ابن بشر بالقول ان القاتل كردي (من أهل العمادية ، بلد الأكراد
المعروف عند الموصل ، اسمه « عثمان » ، أقبل من موطنه لهذا المقصد محتسباً) .
ثم يعود فيتشكك في صحة روايته الأولى ، فيقول : (وقيل ان هذا
الدرويش ، الذي قتل عبد العزيز ، من أهل بلد الحسين ، رافضي خبيث ، خرج
من وطنه لهذا القصد ، بعد ما قتلهم سعود فيها ، وأخذ أموالهم ، فخرج ليثأر ،
وكان قصده قتل سعود ، فلم يقدر عليه ، فقتل عبد العزيز .

وهذا ، والله أعلم ، أخرى بالصواب ، لأن الأكراد ليسوا بأهل رفض ، ولا
في قلوبهم غل على المسلمين .)

والواقع ان المؤرخين اختلفوا في اسم القاتل وفي بلده وفي دافعه الى القتل!..
ولعل القاتل تسمى، في الدرعية، باسم «عثمان»، ليبعد الشبهة عن شيعيته،
ولذلك جاء في (دوحة الوزراء) ان هذا الرجل «يقال له»: «ملا عثمان»..
وفي (المع) ان اسمه الحقيقي: «علي»، وفي رواية (التاج المكلل) ان
اسمه: «عبد القادر».

جنسيته:

يقول ابن بشر في روايته ان القاتل عراقي.
وفي دوحة الوزراء أنه أفغاني الأصل كان يقيم في بغداد.
وفي التاج المكلل أنه فارسي الأصل من جيلان.
وفي لمع الشهاب أنه عربي من بغداد، واسمه الكامل: الحاج علي البغدادي.
المحرّض:

في التاج المكلل ان الذي حرّض على القتل ودفع القاتل اليه هو ملك العجم،
لأن ابن سعود انتزع القطيف والبحرين من ملكه، ثم خرب مشهد الحسين،
(ولما لم يكن له طاقة في محاربتة والتوصل اليه، عمد الى الإيقاع به بالحيلة،
فأنفذ اليه عبد القادر المذكور، فأتى الى الدرعية وتظاهر بالدين والعبادة).
قد تبدو هذه الرواية ضعيفة، ولكننا وجدنا في تاريخ مانجان - وهو مؤرخ
موثوق - قصة تؤيدها، قال: (قتل عبد العزيز في ١٨ رجب سنة ١٢١٨ هـ.
وقد وجدوا في عمامة قاتله ورقة مغفلة من الخاتم، كتب عليها بالفارسية هذه
الكلمات:

إن ربك ودينك يوجبان عليك قتل عبد العزيز،

فإذا استطعت الهرب نلت مكافأة عظيمة،

وإذا وقعت، فاعلم أن الجنة قد فتحت لك أبوابها)

وهذه القصة - إذا صحّت - قد تدلّ على اشتراك بعض الفرس، سواء من
فارس أم من العراق، في المؤامرة، وان المباشر للقتل فارسي، بدليل مخاطبتهم
له بلغته، والله أعلم.

ويقول مؤلف (لمع الشهاب) ان والي بغداد علي باشا ، هو الذي دبّر المؤامرة ، ويعطينا التفاصيل الآتية :

(إن علي باشا - الذي تولى وزارة بغداد بعد سليمان باشا - كان دائم الحقد على آل سعود ، وعلى كل من هو متمسك بدعوة محمد بن عبد الوهاب . وكانت له همم عليّة وقدره جليّة في إرسال العساكر عليهم ، لكن شغله عنهم نخاصته مع العجم ، حيث ألقى حرباً على الشاه « زاده محمد علي ميرزا » ، والي كرمنشاه .

والحاصل : ان علي باشا مرّ يوماً على جسر بغداد ، فقال لبعض ندمائه : (لو يحصل عندي من يبذل نفسه ويسير الى الدرعية ، فيقتل عبد العزيز غيلة ، لأعطيته الآن ألف ، وإذا بلغني فعله بموجب ما أريد منه ، قررت لعياله وعيال عياله وظائف من الديوان لا تنقطع أصلاً ، وكتبت كتاباً تذكر فيه اللعنة على من يخالف ذلك من وزراء بغداد بعدي .)

قال الراوي : فلما كان الغد ، أتى رجل بيده رقعة ، فوقف مقابل طارمة الباشا ، على ما يقف أهل الشكوى ، فالتفت « علي باشا » وقال : إيتوني بما في يد هذا الرجل .

فأتوه بالرقعة ، وإذا مكتوب فيها :

(من الفقير الحقيّر علي ، الى جناب ولي نعمته الوزير المعظم علي باشا . أما بعد .. فقد سمعت انك تريد من يكفيك شر عبد العزيز النجدي بقتله ، فهذا أنا أفعل ذلك ، بحول الله تعالى .)

فأمر علي باشا بإحضاره لديه ، وقال له : أنت علي ؟ قال : نعم .

قال : أتوني بما قلت ؟

قال : نعم .

فأمر له بألف ذهب ، وقال : هذه توضع بيد من تأمنه من الناس المعروفين

في بغداد ، فإذا بلغنا صنعك فهي لك ، تعطى لعيالك ، ولهم أيضاً وظيفة جارية تكفيهم من جميع الوجوه ، الى مدة بقاء الدولة العثمانية !

فسار الرجل إلى بيته وودع عياله ، وأخذ له بعض المتاع فأحسبه على ظهره ، ثم أتى قبيل العصر إلى علي باشا واستأذن الدخول عليه فأذن له فدخل ، وقال : ها أنا سائر على بركات الله تعالى ، وأنت اصنع .. الذي وعدت به !

فنادى الباشا أحد خدامه ليأتيه بحصان أو بغل .. فقال : إني لا أريد شيئاً ، أمشي مع القوافل برسم الحاج الفقير المضطر ، حتى أصل الدرعية ..

.. فأمر علي باشا من ساعته بألف ذهب ، وضعت بيد من هو ائتمنه ، وأمر أيضاً بقدر من الطعام والدرهم سُلمت إلى عياله .. ثم سار .. وكان مسيره يوم الأحد ٧ صفر (١٢١٩) فانحدر إلى البصرة ، حتى وصل إلى الدرعية . (١)

.. وتقرّب من الإمام عبد العزيز وكان يصلي في المسجد قريباً منه ، وبقي كذلك أكثر من عام يتظاهر بالتقوى والانصراف عن الدنيا وأمورها .

(.. وفي يوم الجمعة غرة رجب من العام ١٢٢٠ أخفى الحاج (علي) خنجره تحت ثيابه وصمم على قتل عبد العزيز في وسط الصلاة ، ففعل ذلك ، فخرّ عبد العزيز ميتاً .)

فنهض اليه رجال عبد العزيز وقطعوه إرباً إرباً .

وبعد شهر كامل (بلغ الخبر إلى بغداد وسمع به علي باشا وسرّ به غاية السرور ، ولما تحقق أن القاتل هو الحاج (علي) البغدادي .. أرسل خلف أولاده وأكرمهم ودفع لهم الألف ذهب .. ثم أجرى لهم كل شهر كذا .. من الدراهم) .

(١) توفي الامام عبد العزيز سنة ١٢١٨ مما يدل على ضعف رواية لع الشهاب .. وإن كان الخطأ في التاريخ لا يعني بطلان الرواية كلها .

الملاحى

رسائل عبد العزيز

رسالة عبد العزيز الى الفرس والترك

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى من يراه من أهل بلدان المعجم والروم .
أما بعد ، فإننا نحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، ونسأله
أن يصلي ويسلم على حبيبه من خلقه وخليفه من عبيده وخيرته من بريته محمد عليه
من الله أفضل الصلاة وأزكى التحيات وعلى إخوانه من المرسلين وعلى آله
وأصحابه صلاة وسلاماً دائماً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير
الوارثين .

ثم نخبركم أن (محمد خلف النواب) وفد^(١) علينا مع الحاج وأقام عندنا مدة
طويلة وأشرف على ما نحن عليه من الدين وما ندعو اليه الناس ونقاتلهم عليه
وما نأمرهم به وما ننهاهم عنه ، وحقائق ما عندنا يخبركم بها أخونا محمد من
الرأس ..

ونحن نذكر لكم على سبيل الإجمال ..

أما الذي نحن عليه ، وهو الذي ندعو اليه من خالفنا : أننا نعتقد أن العبادة
حق لله على عبيده ، وليس لأحد من عبيده في ذلك شيء ، لا ملك مقرب ولا نبي

(١) في الأصل (ألفا أو ألقى) وهي عامية نجدية معناها جاء أو وفد ، أبدلناها بالكلمة
الفصيحة .

مرسل ، فلا يجوز لأحد أن يدعو غير الله لجلب نفع أو دفع ضرر ، وإن كان نبياً أو رسولاً أو ملكاً أو ولياً ، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ ، وقال على لسان نبيه ﷺ : ﴿ قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً . قل إني لن يحيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ . وقال عز من قائل : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ ، وقال عز من قائل : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، وقال جل ثناؤه وتقدست أسماؤه : ﴿ له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ . وقال : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ، فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون ﴾ .

ولا يجوز لأحد أن يتوكل على غير الله ولا يستعين بغير الله ولا ينذر لغير الله تقرباً إليه بذلك ولا يذبح لغير الله ، كما قال تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ ، وقال : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

فإن قال قائل : أتوسل بالصالحين وأدعوهم أريد شفاعتهم عند الله ، وقد يحتج على ذلك بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ ، قيل له : الوسيلة المأمور بها هي الأعمال الصالحة ، وبذلك فسرها جميع المفسرين من الصحابة فمن بعدهم أو يتوسل إلى الله بعمله الصالح ، كما قال عز وجل إخباراً عن المؤمنين : ﴿ ربنا إننا آمنّا فاعفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ﴾ . وقال عنهم في آخر السورة : ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ، ربنا فاعفر لنا ذنوبنا وكفرّ عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ﴾ ، وكما في حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار فتوسلوا

إلى الله بصالح أعمالهم ففرّج الله عنهم . وأما دعوة غير الله والإلتجاء اليهم والاستغاثة بهم لكشف الشدائد او جلب الفوائد فهو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه وهو الذي أرسل الله رسله وأنزل كتبه بالنبى عنه ، وإن كان الداعي غير الله إنما يريد شفاعتهم عند الله ، وذلك لأن الكفار مشركي العرب وغيرهم ، إنما أرادوا ذلك كما قال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ ولم يقولوا إنها تخلق وترزق وتحيي وتميت وإنما كانوا يعبدون آلهتهم ويعبدون تماثيلهم ليقربوهم إلى الله ويشفعوا لهم عنده فبعث الله رسله وأنزل كتبه ينهى أن يدعى أحد غيره ولا من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة وهذا هو دين جميع الرسل لم يختلفوا فيه كما اختلفت شرائعهم في غيره . قال الله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ ، وهو معنى لا إله إلا الله ، فإن الإله هو المعبود بحق او باطل فمن عبّد الله وحده لا شريك له وأخلص الدعوة كلها لله وأخلص التوكل على الله وأخلص الذبح لله وأخلص النذر لله ، فقد وحّد الله بالعبادة وجعل الله إلهه دون ما سواه ومن أشرك مع الله إلهاً غيره في الدعوة او في الاستغاثة او في التوكل او في الذبح او في النذر فقد اتخذ مع الله إلهاً آخر وعبّد معه غيره وهو أعظم الذنوب إثماً عند الله ، كما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك الحديث ، وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ، وقال : ﴿ ومن يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ ، وهذا هو سبب عداوة الناس لنا وبغضهم إيانا لما أخلصنا العبادة لله وحده ونهينا عن دعوة غير الله ولوازمها من البدع المضلّة والمنكرات المغوية ،

فلأجل ذلك رمونا بالعظائم وحاربونا ونقلونا عند السلاطين والحكام وأجلبوا علينا بجيل الشيطان ورجله فنصرنا الله عليهم وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم وذلك سنة الله وعادته مع المرسلين وأتباعهم إلى يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرَ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، وقال عن موسى صلاة الله وسلامه عليه أنه قال لقومه : ﴿ إِسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ونأمر رعايانا باتباع كتاب الله وسنة رسوله وإقام الصلاة في أوقاتها والمحافظة عليها وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ونأمر بجميع ما أمر الله به ورسوله من العدل وإنصاف الضعيف من القوي ، ووفاء المكاييل والموازين ، وإقامة حدود الله على الشريف والوضيع ، ونهى عن جميع ما نهى عنه الله ورسوله من البدع والمنكرات ، مثل الزنا والسرقة وأكل أموال الناس بالباطل ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، وظلم الناس بعضهم بعضاً ، ونقاتل لقبول فرائض الله التي أجمعت عليها الأمة ، فمن فعل ما فرض الله عليه فهو أخونا المسلم وإن لم يعرفنا ونعرفه . ونحن نعلم أنه يأتيكم أعداء لنا يكذبون علينا عندكم ويرموننا عندكم بالعظائم حتى يقولوا انهم يسبون النبي ﷺ ويكفرون الناس بالعموم ، وإننا نقول ان الناس من نحو ستائة سنة ليسوا على شيء ، وانهم كفار ، وإن من لم يهاجر إلينا فهو كافر وأضعاف أضعاف ذلك من الزور الذي يعلم العاقل أنه من الظلم والعدوان والبهتان ، ولكن لنا في رسول الله أسوة ، فإن أعداءه قالوا انه يشتم عيسى وأمه وسموه بالصابيء والساحر والمجنون . ونحن لا نكفر الا من عرف التوحيد وسبه وسماء دين الخوارج ، وعرف الشرك وأحبه وأحب أهله ودعا إليه وحض الناس عليه بعد ما قامت عليه الحجة وإن لم يفعل الشرك أو فعل الشرك وسماء التوسل بالصالحين بعد ما عرف ان الله حرمه ، أو كره بعض ما أنزل الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ

بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴿١﴾ ، أو استهزأوا بالدين أو القرآن ، كما قال تعالى : ﴿٢﴾ قل أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ، لا تعتذروا ، قد كفرتم بعد إيمانكم ﴿٣﴾ . قال العلماء في هذه الآية : الاستهزاء بالله كفر مستقل بالإجماع ، والاستهزاء بالرسول كفر مستقل بالإجماع .

وهذه الأنواع التي ذكرنا أننا نكفر من فعلها قد أجمع العلماء كلهم من جميع أهل المذاهب على كفر من فعلها ، وهذه كتب أهل العلم من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم موجودة ، والله الحمد والمنة وصلى الله على نبينا محمد وصحبه وسلم) .

رسالة عبد العزيز الى أهل المخلاف السليماني

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى من يراه من أهل المخلاف السليماني، وفقنا الله وإياهم إلى سبيل الحق والهداية، وجنبنا وإياهم طريق الشرك والغواية، وأرشدنا وإياهم إلى اقتفاء آثار أهل العناية.

أما بعد، فالموجب لهذه الرسالة أن (الشريف أحمد) قدم علينا فرأى ما نحن عليه وتحقق صحة ذلك لديه، فبعد ذلك التمس منا أن نكتب ما يزول به الإشتباه لتعرفوا دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه.

فاعلموا، رحمكم الله تعالى، أن الله أرسل محمداً ﷺ على فترة من الرسل، فهدى الله به إلى الدين الكامل والشرع التام، وأعظم ذلك وأكبره وزيدته إخلاص العبادة لله لا شريك له، والنهي عن الشرك، وذلك هو الذي خلق الله الخلق لأجله ودل الكتاب على فضله، كما قال تعالى: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾.

وإخلاص الدين هو صرف جميع أنواع العبادة لله تعالى وحده لا شريك له، وذلك بأن لا يدعى إلا الله ولا يستغاث إلا بالله ولا يذبح إلا لله ولا يخشى ولا يرجى سواه، ولا يرهب ولا يرغب إلا فيما لديه، ولا يتوكل في جميع الأمور إلا

عليه ، وأن كل ما هنالك لله تعالى ، لا يصلح منه شيء لملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهما . وهذا هو بعينه توحيد الألوهية الذي أسس الإسلام عليه ، وانفرد به المسلم عن الكافر ، وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله .

فلما من الله علينا بمعرفة ذلك وعرفنا أنه دين الرسل اتبعناه ودعونا الناس اليه ، وإلا فنحن قبل ذلك على ما عليه غالب الناس من الشرك بالله من عبادة أهل القبور والإستغاثة بهم والتقرب الى الله بالذبح لهم وطلب الحاجات منهم مع ما ينضم الى ذلك من فعل القواحش والمنكرات وارتكاب الأمور المحرمات وترك الصلوات وترك شعائر الإسلام حتى أظهر الله الحق بعد خفافه وأحيا أثره بعد عفائه على يد شيخ الإسلام فهدى الله تعالى به من شاء من الأنام (وهو الشيخ محمد بن عبد الوهاب) أحسن الله له في آخرته المآب ، فأبرز لنا ما هو الحق والصواب من كتاب الله المجيد ، الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) فبين لنا أن الذي نحن عليه ، وهو دين غالب الناس من الاعتقادات في الصالحين وغيرهم ودعوتهم والتقرب بالذبح لهم والنذر لهم والإستغاثة بهم في الشدائد وطلب الحاجات منهم ، انه الشرك الأكبر الذي نهى الله عنه وتهدد بالوعيد الشديد عليه وأخبر في كتابه انه لا يغفره إلا بالتوبة منه قال الله تعالى : ﴿ ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيمة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ ، والآيات في ان دعوة غير الله تعالى الشرك الأكبر كثيرة واضحة شهيرة .

فحين كشف لنا الأمر وعرفنا ما نحن عليه من الشرك والكفر بالنصوص القاطعة والأدلة الساطعة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وكلام الأئمة الأعلام الذين أجمعت الأمة على درايتهم ، عرفنا ان ما نحن عليه وما كنا ندين به أولاً انه الشرك الأكبر الذي نهى الله عنه وحذر ، وان الله إنما أمرنا أن ندعوه وحده لا شريك له ، وذلك كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله

من لا يستجيب له إلى يوم القيمة وهم عن دعائهم غافلون، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴿

إذا عرفتم هذا فاعلموا رحمكم الله تعالى ان الذي ندين الله به هو إخلاص العبادة لله وحده ونفي الشرك وإقام الصلاة في الجماعة وغير ذلك من أركان الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يخفى على ذوي البصائر والافهام والمتدبرين من الأنام إن هذا هو الدين الذي جاءنا به الرسول ﷺ ، قال جل جلاله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ فمن قبل ولزم العمل به فهو حظه في الدنيا والآخرة ونعم الحظ دين الإسلام، ومن أبى واستكبر فلم يقبل هدى الله لما تبين له نوره وسناه نهيناه عن ذلك وقاتلناه ، قال الله تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ وصلى الله على محمد .

رسالة عبد العزيز الى القاسمي

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى جناب أحمد بن علي القاسمي، هداه الله لما يحبه ويرضاه... أما بعد فقد وصل إلينا كتابك وفهمنا ما تضمنته من خطابك وما ذكرت من أنه قد بلغكم ان جماعة من أصحابنا صاروا ينتمون على من هو متمسك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ من مذهبه مذهب أهل البيت الشريف (فليكن) لديك معلوماً أن المتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما عليه أهل البيت الشريف فهو الذي لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، ولكن الشأن في تحقيق الدعوى بالعمل وهذه الأمة افتقرت على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » وجميع أهل البدع والضلال من هذه الأمة يدعون هذه الدعوى كل طائفة تزعم انها هي الناجية ، فالخوارج والرافضة الذين حرقهم علي ابن أبي طالب بالنار ، وكذلك الجهمية والقدرية واضرابهم كل فرقة من هذه الفرق تدعي انها هي الناجية وانهم المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فصار في هذا تصديق لقوله ﷺ : « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » .

وأما ما ذكرت من أن مذهب أهل البيت أقوى المذاهب وأولاها بالاتباع فليس لأهل البيت مذهب إلا اتباع الكتاب والسنة كما صح عن علي بن أبي طالب

رضي الله عنه أنه قيل له : هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء ؟ فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهم يؤتبه الله عبداً في كتابه وما في هذه الصحيفة .

— الحديث وهو مخرج في الصحيحين — وأهل البيت رضي الله عنهم كذبت عليهم الرافضة ونسبت اليهم ما لم يقولوه ، فصارت الروافض ينتسبون اليهم ، وأهل البيت براء منهم ، فأياك أن تكون أنت وأصحابك منهم ، فإن أصل دين رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام هو توحيد الله بجميع أنواع العبادة لا يدعى إلا هو ، ولا ينسدر إلا له ، ولا يذبح إلا له ، ولا يخاف خوف السر إلا منه ، ولا يتوكل إلا عليه ، كما دل على ذلك الكتاب العزيز ، فقال تعالى : ﴿ وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ . فهذا التوحيد هو أصل دين أهل البيت عليهم السلام ، من لم يأت به فالنبي ﷺ وأهل بيته براء منه ، قال الله تعالى : ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾ . ومن مذهب أهل البيت إقامة الفرائض كالصلاة والزكاة والصيام والحج . ومن مذهب أهل البيت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإزالة المحرمات . ومن مذهب أهل البيت محبة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، وأفضل السابقين الأولين الخلفاء الراشدون كما ثبت ذلك عن علي من رواية ابنه محمد بن الحنفية وغيره من الصحابة أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر . والأدلة الدالة على فضيلة الخلفاء الراشدين أكثر من أن تحصر ، فإذا كان مذهب أهل البيت ما أشرنا إليه وأنتم تدعون أنكم متمسكون بما عليه أهل البيت مع كونكم على خلاف ما هم عليه بل أنتم مخالفون لأهل البيت وأهل البيت براء بما أنتم عليه ، فكيف يدعي اتباع أهل البيت من يدعو الموتى ، ويستجير بهم في قضاء حاجاته ، وتقريج كربات ، والشرك ظاهر في بلدهم ، فيبنون القباب على الأضرحة ويدعونهم مع

الله ، والشرك بالله هو أصل دينهم ، مع ما يتبع ذلك من ترك الفرائض واقتراف المحرمات التي نهى الله عنها في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ، وسب أفاضل الصحابة كأبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة .

وأما قولك ان أناساً من أصحابنا ينقمون عليكم في تعظيم النبي المختار ﷺ ، فنقول بل الله سبحانه افترض على الناس محبة النبي ﷺ وتوقيره وأن يكون أحب اليهم من أنفسهم وأولادهم والناس أجمعين ، ولكن لم يأمرنا بالغلو فيه ، وإطرائه ، بل هو ﷺ نهى عن ذلك فيما ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » . وفي الحديث الآخر أنه قال وهو في السياق : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، يحذر ما صنعوا . قالت عائشة رضي الله عنها : ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن خشي أن يتخذ مسجداً ، وفي الحديث الآخر عنه ﷺ أنه قال : « لا تتخذوا قبوري عيداً وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبليغي حيث كنتم » وثبت عن علي بن الحسين أنه رأى رجلاً يأتي الي فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدعو ، فنهاه عن ذلك واحتج عليه بالحديث .

وأما قولك ان المراد بقوله : « لا تتخذوا قبوري عيداً » تكرار الزيارة المرة بعد المرة والفينة بعد الفينة وان الزيارة لا تكون مثل العيد مرتين فقط بل تكون متتابعة ومكررة فلا يكون الاعتقاد منكم غير هذا . فهذا دليل على جهلك بمذهب اهل البيت وبما شرعه الله تعالى ورسوله ﷺ فإت أهل البيت ففسروا الحديث بأن المراد اعتياد اتيانه والدعاء عنده كما تقدم ذلك عن زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنه ، وهذا هو الذي استمر عليه عمل السلف وأهل البيت فإنهم كانوا اذا دخلوا مسجد رسول الله ﷺ سلموا عليه وعلى صاحبيه ولم يقفوا عند النبي ﷺ لأجل الدعاء هناك ولم يتمسحوا به ، بل اذا أراد أحدهم الدعاء هناك انصرف عن القبر واستقبل القبلة ودعا ..

وأما قولك : وأوجب الصلاة عليه وعلى آله في الصلاة ، فالذي عليه أكثر العلماء ان الصلاة عليه ﷺ وعلى آله في الصلاة لا تجب ، وأوجبها بعض العلماء

مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ وليس في الآية دليل على أن الصلاة عليه فرض لا تصح الصلاة إلا بها . وأما الصلاة على آله فلم نعلم أحداً من العلماء أوجبها وقال إن من ترك الصلاة على الآل بطلت صلاته ، بل هذا خلاف ما عليه أهل العلم أو أكثرهم .

وأما قولك ولا يحسن الاعتراض من أحد على أحد في مذهبه وكل مجتهد مصيب على الأصح من الأقوال .. فهذا في الفروع لا في الأصول ، فإن الخوارج والجهمية والقدرية وغيرهم من فرق الضلالة يدعون أنهم مصيبون ، بل المشركون وغيرهم من اليهود والنصارى يدعون ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُهْتَدُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيهم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهم يَحْسَبُونَ أَنَّهم يَحْسَنُونَ صَنعًا ﴾ .

وأما ما ذكرت من كثرة جنودكم وأموالكم فلسنا نقاتل الناس بكثرة ولا قوة ، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ووعد من قام به النصر على من عاداه ، فقال تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، الذين إن مكثناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهم لَهم الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنْ جُنَدُنَا لَهم الْغَالِبُونَ ﴾ وصلى الله على محمد وآله وصحبه .

رسالة عبد العزيز الى ياقوت

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن سعود إلى الأخ ياقوت سلمه الله من الآفات ، واستعمله
بالبقيات الصالحات .

وبعد ، الخط وصل وصلك الله إلى رضوانه وسر الخاطر ما ذكرت من
حالك والله المحمود على ذلك ، فأنت اعزم وتوكل على الله ، فإن النفوس لها إقبال
وإدبار فأنت خذ بإقبالها واستعن بالله ، قال جل جلاله : ﴿ ومن يهجر في سبيل
الله يمجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ ، ويذكر لنا أن أحمد بن الشريف
عباس ، إمام صنعاء ، متوجه لهذا الدين وعارفه ومحبه ، وكذلك يذكر ناساً
من طلبة العلم عرفوا التوحيد وشهدوا به وأنكروا الشرك بالله ، فالأموال فيك
تلطف للناس ، وتدعوهم إلى الله ، وتذكر قوله سبحانه : ﴿ قل هذه سبيلي
أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ ، وفي الحديث عن الصادق الصدوق
عليه السلام حين أعطى علياً رضي الله عنه الراية يوم فتح خيبر قال : « انفذ على رسلك
حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله
تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » ،
وأساس الإسلام ورأسه توحيد الله بالعبادة ، والعبادة فعل العبد وإلا أفعاله تعالى
كل معترف له بها : الخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير ، حتى إن الكفار
الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يخلصون لله الدين في حال الشدائد ، مثل ما قال

سبحانه وتعالى : ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ ، والشرك اليوم تغلب على غالب الناس وصار الدعوة والذبح والنذر لغير الله ، وغير ذلك من العبادات والتوكل والخوف والرجاء صرف لغير الله ، فلما أنكر عليهم الشيخ عفا الله عنه الشرك بدّعه وخبرّجوه ورموه بالعظائم ، وهو كما قال محمد بن إسماعيل الصنعاني :

وليس له ذنب سوى أنه أتى بتحكيم قول الله في الحل والعقد وفي البيت الآخر :

وما كل قول بالقبول مقابل وما كل قول واجب الطرد والردّ
سوى ما أتى عن ربنا ورسوله فذلك قول جل إذا عن الردّ
وأما أقاويل الرجال فإنها تدور على حسب الأدلة في النقد

فيكون عندهم معلوماً أن جميع الفرائض وجميع المحرمات ما اختلفنا نحن والناس في شيء من ذلك ! الاختلاف وقع بيننا وبين الناس عند حق الله تعالى : كون العبادة له وحده لا شريك له ، وحق الرسول ﷺ التصديق والطاعة في جميع ما يأمر به وجميع ما ينهى عنه ، ويكفيك ما ذكر الله في آخر سورة الكهف : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما ألهمكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ، وكذلك الآية التي كتب بها ﷺ لعظيم الروم هرقل حيث قال : « أما بعد ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين » ، ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾ إلى قوله : ﴿ فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون ﴾ ، ولكن مثل ما قال الجني ^(١) فيه ﷺ :

وإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في ضحوة اليوم أو غد

(١) هو جني سمع ينشد أبياتاً في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقصته مشهورة في (السير) .

قال ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القعدة بالقعدة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا : اليهود والنصارى يا رسول الله ؟ قال : فمن ؟ وفي الحديث الثاني أخبر ﷺ إن اليهود افترقت على احدى وسبعين فرقة والنصارى افترقت على اثنتين وسبعين فرقة وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » قيل : يا رسول الله من الواحدة ؟ قال : « من كان على مثل ما أنا عليه الآن وأصحابي » وفي الحديث الآخر قال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تمعد فنام من أمتي الأوثان وحتى يلحق حيي من أمتي بالمشركين » والعادة ملاكة تقلب الشين زينا ولم تعاد الرسل بشيء قط أعظم من العبادة قال الله تعالى عن المشركين : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ والآية الأخرى ﴿ وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فهم على آثارهم يعرعون ﴾ وأنا أعزم عليك وألزم عليك أن تتلطف لعلماء أهل صنعاء وتقرأ عليهم هذا الكتاب.

رسالة عبد العزيز الى السيد علي

بسم الله الرحمن الرحيم

التحية والإكرام يهدي إلى سيد الأنام محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام
ثم ينتهي إلى جناب ... اكرمه الله بما أكرم به عباده الصالحين .

أما بعد ، فألقى علينا سعيد بن ثنيان وحكى لنا عنك من حسن السمات
والسيرة ما سر الخاطر ونسأل الله العظيم أن يجعلنا وإياك من أئمة المتقين ويذكر
انك حريص على معرفة حالنا وما نحن عليه ، فنخبرك بصورة الحال : أنا والناس
فيما مضى على دين واحد ندعو الله وندعو غيره وننذر له وننذر لغيره ونذبح له
ونذبح لغيره ونتوكل عليه ونتوكل على غيره ونخاف منه ونخاف غيره ونقر
بالشرائع من صلاة وزكاة وصوم وحج والذي يعمل بهذا عندنا القليل مع الاقرار
ونقر بالمحرمات من أنواع الربا والزنا وشرب الخمر وما يشبه هذا من أنواع
المحرمات ولا ينكرها خاص على عام .

وبيّن الله لنا التوحيد في آخر هذا الزمان على يدي ابن عبد الوهاب وقنا
معه وقام علينا الناس بالعدوان والانكار لما خالف دين الآباء والأجداد وقال
الناس مثل ما قال الذين من قبلهم (إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) وقالوا :
﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ وقام على الناس بالأدلة
من الكتاب والسنة واجماع صالح سلف الأمة الذين قال فيهم صلاة الله وسلامه
عليه «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» عضوا عليها بالنواجذ

ولما تم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» وفي الحديث الثاني قال ﷺ : « تركتم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك » وفي الحديث الثالث : « كل ما ليس عليه أمرنا فهو رد » والأحاديث في هذا النوع ما يمكن حصرها ، ونذكر هذا على سبيل التنبيه .

فنقول الحلال ما حلل ﷺ والحرام ما حرم وقال الله جل جلاله : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ فأول ما دعا إليه الرسول ﷺ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ومعنى لا إله إلا الله نفي الإلهية عما سوى الحق جل جلاله وإثباتها له وحده لا شريك له والإلهية فعل العبد ، وأما أفعاله جل جلاله فلا وقع فيها نزاع عند الكافر ولا عند المسلم ، قال الله لنبيه : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ وبالإجماع ان السؤال للكفار ، وفي الآية الأخرى ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ ، ويكفيك أول الزمر تنزيل بين فيها دين الإسلام من دين الكفار في آيتين ، قال : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا الله الدين الخالص ﴾ هذا دين الإسلام الذي دعت إليه الرسل جميعاً من أولهم نوح إلى آخرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم ، وقال تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ فصرحت الآية أن غاية الكفار ومطلبهم القربة والشفاعة بهذا الدعاء ، فالأموال فيك ما تغتر بأكثر الناس فإن نبيك ﷺ أخبر في الأحاديث الصحاح أن دينه سيتغير وتفعل أمته كما فعل بنو إسرائيل وإنها ستفترق كما افترق من قبلها من الأمم ، قال صلاة الله وسلامه عليه : « لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبراً بشبر أو ذراعاً بذراع ، لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القعدة بالقعدة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ، قالوا : يا رسول الله

اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » ، وقال ﷺ : « لتأخذ أمتي بما أخذت الأمم قبلها شبراً شبراً وذراعاً بذراع ، حتى لو أن منهم من أتى أمه علانية لكان من أمتي من يأتي أمه علانية » ، وقال : « افترقت اليهود عن واحدة وسبعين فرقة ، والنصارى عن اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي عن ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » ، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم أنا وأصحابي » ، والأحاديث في هذا ما تحصى ولكن الغرض التنبيه .

وأما الآيات فقال جلّ جلاله : ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلّوا عن سبيل الله ﴾ ، وقال : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ ، وقال : ﴿ وقليل ما هم ، قليل من عبادي الشكور ﴾ ، وفي الحديث : ان بعث الجنة من الألف واحد . فالأموال فيك تجمع علماء صنعاء وتؤمنهم وتعرض عليهم الكتاب وتسألهم بالذي أنزل الفرقان على محمد عن جميع ما ذكرنا في الورقة ، وأرجو أن الحق يُبين لك من الباطل . والوجه الثاني : إن جاز عندك توجه إلينا اثنين أو ثلاثة من طلبة العلم الذين عليهم الاعتماد عندكم فلا نعاफी منك فلك عندي وقارهم وإكرامهم وتوصيلهم إليك إن شاء الله . ويا (علي) ، يا ولدي ، اذكرك الله والذي بعد الموت من الخير والشر ، فإن الدنيا زائلة وزائل ما فيها من الخير والشر ، والآخرة باقية وباقي ما فيها من الخير والشر ، ودين جدك صلاة الله وسلامه عليه فيه خير الدنيا والآخرة ، قال جلّ جلاله في أهل طاعته : ﴿ فأقام الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ﴾ .

وأنا أصف لك شيئاً من الحال ، فان مبتدأ الأمر رجل « حادقينه » الناس و « معادينه » ، واليوم دولته ما تقصر عن ألف مبندي^(١) وعشرة آلاف فارس ، وكل من تبين على هذا الحق بعداوة كسره الله وأزال دولته وأرى فيه العجائب ، ويكون عندك معلوماً أن الشرائع والمحرمات ما وقع بيننا وبين

(١) أي حامل السلاح .

الناس فيها اختلاف ، الذي عندنا زين عندهم زين والذي عندنا شين عندهم شين ، إلا أننا فضلناهم بفعل الزين وغضب الرعايا عليه وترك الشين وتقويم الحدود والتأديب على من فعله ، وغالب عدواننا ما يفعلون الزين الذي ما ينكر ولا ينكروا الشين الذي ينكر ، فالأصل الذي اختلفنا فيه التوحيد والشرك ، فنقول مثل ما قال جل جلاله : ﴿ وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾ الآية ، وفي الآية الاخرى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ ، فصرحت الآية مثل ما صرحت آية الكرسي أن الشفاعة ما تكون إلا من بعد الإذن . في الحديث ، قيل : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه فتلک الشفاعة لأهل الإخلاص ، وقال جل جلاله : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ فلا تغتر بالناس ، قال جل جلاله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ فهذه حال العلماء والعباد فيما ظنك في غيرهم ؟ والمأمول فيك الجواب ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

رسالة عبد العزيز الى العلماء في المشرق والمغرب

بسم الله الرحمن الرحمن

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وصلى
الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .
من عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى من يراه من العلماء والقضاة في الحرمين
والشام ومصر والعراق وسائر علماء المشرق والمغرب (١) .
سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد ، فإن الله عز وجل شأنه ، وتعالى سلطانه ، لم يخلق الخلق عبثاً ،
ولا تركهم سدى ، وإنما خلقهم لعبادته ، فأمرهم بطاعته ، وحذرهم مخالفته ،
وأخبرهم تعالى أن الجزاء واقع لا محالة ، إما في ناره بعدله ، أو في جنته بفضله
ورحمته ، قد أخبر عز وجل بذلك في كل كتاب أنزله ، وعلى لسان كل رسول
أرسله ، كما نطقت بذلك الآيات القرآنية ، وأخبرتنا به الأحاديث النبوية ، قال
تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وقال : ﴿ واعبدوا الله ولا
تشرکوا به شيئاً ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ فالعبادة

(١) أخذنا هذه الرسالة عن كتاب « الدرر السنية والتحف الوهابية » جمع ابن سحمان .

اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال المختصة بجلالته وعظمته فهي الغاية المحبوبة له تعالى شأنه والمرضية له ، وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوح لقومه (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم من الرسل ، كل قال لقومه (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وذلك أن الإله يطلق على كل معبود بحق أو بباطل والإله الحق هو : (الله) ، قال تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ .

معنى كلمة التوحيد :

فنحن لما علمنا وفهمنا من كلام الله وسنة رسوله ، وكلام الأئمة الأعلام رضي الله عنهم كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة السلف أن (لا إله إلا الله) معناها يخصها ، وهي ترك كل معبود مع الله ، وإخلاص الإلهية له تعالى وحده ، وأن العبادة بأفعالهم بما أمرهم به في كتابه وعلى لسان رسوله إذا جعلت لغيره تعالى صار ذلك الغير لها مع الله وإن لم يعتقد الفاعل ذلك . فالمشرك مشرك شاء أم أبى ، وليست خاصة بالإيمان بأفعاله تعالى وتقدس ، كخلقه السموات والأرض ، والليل والنهار ، ورزق العباد وتدبير أمورهم ، لأن هذا يسمى (توحيد الربوبية) الذي أقر به الكفار الأولون في سورة يونس والزمزم والزخرف وغيرها ، وأن معناها لغة : الذل والخضوع ، وشرعا : ما أمر به من غير اطراد عرفي ، ولا اقتضاء عقلي ، من أفعال العباد وأقوالهم المختصة بجلال الله وعظمته ، كدعائه تعالى بما لا يقدر عليه إلا هو من جلب نفع أو دفع ضرر ، أو رجائه فيه والتوكل عليه ، وذبح النسك والنذر لجلب خير أو دفع ضرر لا يقدر عليه إلا الله ، والإنابة والخضوع ، كل ذلك يختص بجلال الله كالسجود والتسبيح والتهليل ، فكل ذلك مما قدمناه هو معنى قوله (لا إله إلا الله) ، ولا يغني أحد التوحيدين عن الآخر ، بل صحة أحدهما مرتبطة بوجود الآخر ، فلما فهمنا ذلك وعلمنا به قام علينا أهل الأهواء فخرّجونا وبدّعونا ، وجعلوا اليهود

والنصارى أخفّ شراً منا ومن أتباعنا ، ولم ننازع العدو في سائر المعاصي بأنواعها ، ولا المسائل الاجتهادية ، فلم يجر الاختلاف بيننا وبينهم في ذلك ، بل في العبادة بأنواعها والشرك بأنواعه .

الشفاعة والوساطة وحق الله وحق رسوله وأوليائه :

فنحن نقول : ليس للخلق من دون الله من ولي ولا نصير . وسائر الشفعاء محمد ﷺ سيدهم وأفضلهم فمن دونه ، لا يشفعون لأحد إلا بإذنه ﷻ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه . أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء . ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﷻ . وإذا كانت كذلك فحقيقة الشفاعة كلها لله ، فلا تسأل في هذه الدار إلا منه سبحانه وتعالى ، وأن يشفع فيه ^(١) نبيه ﷺ ، فجميع الأنبياء والأولياء لا يعملون وسائل ولا وسائط بين الله وبين الخلق في جلب الخير أو دفع الشر ، ولا يجعل لهم من حقه شيء ، لأن حقه تعالى وتقدس غير جنس حقهم ، فإن حقه عبادته بأنواعها بما شرع في كتابه ، وعلى لسان رسوله . وحق أنبيائه عليهم السلام الإيمان بهم وبما جاؤوا به ، وموالاتهم وتوقيرهم ، واتباع النور الذي أنزل معهم ، ومحبتهم على النفس والمال والبنين والناس أجمعين ، وعلامة الصدق في ذلك اتباع هديهم والإيمان بما جاؤوا به من عند ربهم . قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ والإيمان بمعجزاتهم ، وأنهم بلغوا رسالات ربهم ، وأدّوا الأمانة ، ونصحوا الأمة ، وأن محمداً ﷺ خاتمهم وأفضلهم ، وإثبات شفاعتهم التي أثبتها الله في كتابه ، وهي من بعد إذنه لمن رضي عنه من أهل التوحيد . وأما المقام المحمود الذي ذكره الله في كتابه وعظم شأنه فهو لنبينا محمد ﷺ .

وكذلك حق أوليائه محبتهم والترضي عنهم والإيمان بكراماتهم ، لا دعاؤهم ليجلبوا لمن دعاهم خيراً لا يقدر على جلبه إلا الله تعالى ، أو ليدفعوا عنهم سوءاً لا يقدر على دفعه إلا هو عز وجل ، لأن ذلك عبادة مختصة بجلاله تعالى وتقدس .

(١) أي في السائل .

هذا إذا تحققت الولاية أو رجيت لشخص معين كظهور اتباع سنة وعمل بثقوى في جميع أحواله ، وإلا فقد صار الولي في هذا الزمان من أطال مبعثته ، ووسع كفه ، وأسبل إزاره ، ومد يده للتقبيل ، ولبس شكلاً مخصوصاً ، وجمع الطبول والبيارق ، وأكل أموال عباد الله ظلماً وادعاء ، ورغب عن سنة المصطفى وأحكام شرعه .

خصوم الوهابية بدأوم بالقتال :

فنحن إنما ندعو إلى العمل بالقرآن العظيم ، والذكر الحكيم ، الذي فيه الكفاية لمن اعتبر وتدبر ، وبعين بصيرته نظر وفكر ، فإنه حجة الله وعهده ، ووعدته ووعدته ، وأمانه وقدره ، ومن اتبعه عاملاً بما فيه جدّ جدّه ، وعلا مجده ، وأنا رشده ، وأبان سعده . والتوحيد ليس هو محل الاجتهاد ، فلا تقليد فيه ولا عناد ، ولا نكفر إلا من أنكر أمرنا هذا ونهينا ، فلم يحكم بما أنزل الله في التوحيد ، بل يحكم بضده الذي هو الشرك الأكبر الذي لا يغفر ، كما سنذكر أنواعه ، فجعله ديناً وسماه الوسيلة عناداً وبغياً ، وإلى أهله وظاهرهم علينا ، ولم يقوم أركان الدين متمتعاً أن دعوانه ، وأمرهم أن يبدأوا بقتالنا ليرجعونا عن دين الله الذي وصفنا إلى ما هم فيه وكانوا عليه من الشرك بالله ، والعمل بسائر ما لا يرضي رب العباد ﷺ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون ﴿ وما حجتهم علينا إلا أن المدعو يكون شقيقاً ووسيلة . ونحن نقول : هؤلاء الداعون الهاتفون بذكره ، المعتقدون في الأحياء الغائبين المدعويين والأموات يطلبون كشف شدتهم ، وتفريج كربتهم ، وإبراء مريضهم ، ومعافاة سقيمهم ، وتكثير رزقهم ، وإيجاده من العدم ، ونصرهم على عدوهم براً وبحراً ، لم يكفهم الاقتصار على مسألة الشفاعة والوسيلة ، وهما من أعظم الخاصمة الجارية علينا ممن قاتلنا وبدعنا وجعل اليهود والنصارى أخف شراً منا ومن أتباعنا... وحقيقة قولنا: إن الشفاعة - وإن كانت حقاً في الآخرة - فلها أنواع مذكورة في محلها ، ووجب على كل مسلم الإيمان بشفاعته ﷺ ، بل وغيره من الشفعاء ، فهي ثابتة بالوصف لا بالشخص ، ما عدا الشفاعة العظمى فإنها لأهل الموقف عامة ،

وليس منها ما يقصدون فالوصف من مات لا يشرك بالله شيئاً كما في البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لكل نبي دعوة مستجابة ، وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، وهي نائلة منكم ان شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً »^(١) - وحديث أنس بن مالك الذي في الشفاعة بطوله وحديث الذراع الذي رواه أبو هريرة المتفق عليه - وإذا كانت بالوصف فرجاؤها من الله ودعاؤه أن يشفع فيه نبيه هو المطلوب .

إرادة الله في التكوين وإرادته في التكليف ، والشفاعة لله وبإذنه ومنه تطلب : فالمتعين على كل مسلم صرف همه وعزائم أمره إلى ربه تبارك وتعالى بالإقبال إليه والاتكال عليه والقيام بحق العبودية لله عز وجل ، فإذا مات موحداً تشفع الله فيه نبيه ، بخلاف من أهمل ذلك وتركه ، وارتكب ضده من الإقبال إلى غير الله بالتوكل عليه ورجائه فيما لا يمكن وجوده إلا من عند الله ، والإلتجاء إلى ذلك الغير ، مقبلاً على شفاعته ، متوكلاً عليها طالباً لها من النبي ﷺ أو غيره ، راعياً إليه فيها ، تاركاً ما هو المطلوب المتعين عليه ، المخلوق لأجله ، فإن هذا بعينه فعل المشركين واعتقادهم ، ولا نشأت فتنة في الوجود إلا بهذا الاعتقاد ، فصار شقياً بالإرادة الكونية والعاقبة الغوية ، لأن الإرادة الدينية أصل في إيجاد المخلوقات ، والإرادة الكونية أصل...^(٢) فمن كتبت عليه الشقاوة فلا يسير إلا لها ولا يعمل إلا بها . قال تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ فهذه هي الإرادة الكونية ، وهي لا تعارض الإرادة الدينية التي هي

(١) الحديث متفق عليه رحمة (فهي ذئلة) الخ .. زيادة انفرد بها مسلم .

(٢) في هامش الأصل ما نصه : أقول : في هذا الكلام شيء ساقط وخلل ، والذي يوضح المراد في هذين الأصلين قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال : « الإرادة في كتاب الله نوعان إرادة تتعلق بالأمر وإرادة تتعلق بالخلق فالإرادة المتعلقة بالأمر أن يريد من العبد فعل ما أمره وأما إرادة الخلق فإن يريد ما يفعله هو . فإرادة الأمر هي انتزعة للمحبة والرضا وهي الإرادة الدينية . والإرادة المتعلقة بالخلق هي المشيئة وهي الإرادة الكونية القدرية . ذكره شيخ الإسلام في النهج .

الأصل في إيجاد المخلوقات^(١) مع بقائه مختاراً مدركاً للأشياء . ومن كان هذا وصفه فلا يناها ، لأن الله تعالى ليس له شريك في الملك كما أنه ليس له شريك في استحقاق العبادة ، بل هو المختص بها ، ولا تليق إلا بجلاله وعظمته ، فلا إله إلا هو وحده لا شريك له . ولهذا حسم جل وعلا مادة الشفاعة عن كل أحد بغير إذن الإله وحده ، فلا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، لا ملك ولا نبي ولا غيرهما ، لأن من شفع عند غيره بغير اذنه فهو شريك له في حصول ذلك المطلوب لتأثيره فيه بشفاعته ، ولا سيما إن كانت من غير اذنه . فجعله يفعل ما طلب منه ، والله تعالى لا شريك له بوجه من الوجوه ، وكل من أعان غيره على أمر فقد شفعه فيه ، والله تعالى وتر لا يشفعه أحد بوجه من الوجوه ولهذا قال عز من قائل : ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ وقال : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلاءناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ وطلبها من غير الله في هذه الدار زعم بعدم تعليقها بالإذن من الله والرضا عن المشفوع له . وقال تعالى : ﴿ ما لكم من دونه من وليٍّ ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه وليٍّ ولا شفيع لعلمهم يتقون ﴾ ، والعبرة في القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، مع ملاحظته وعدم الاقتصار عليه .

الدعاء مشروع للموتى والنبي - لا دعاؤهم :

وأما دعاء الله عز وجل للغير فقد مضت السنة أن الحي يطلب منه سائر ما يقدر عليه ، ودعوة المسلمين بعضهم لبعض مستحبة قد وردت بها الآثار الصحيحة : في مسلم وغيره ، فإن كانت للميت فهي آكد . وكان النبي ﷺ يقف على القبر

(١) كرر قوله ان الارادة الدينية هي الأصل في وجود المخلوقات والمتبادر ان الارادة الكونية هي في اليجاد والتكوين . وإنما المراد بالارادة الدينية التكليف . ولعله يقصد العلة الغائية لخلق المكلفين أخذاً من قوله تعالى (وما خلقت الجر والانس إلا ليعبدون) - كتبه مصححه .

بعد الدفن فيقول : « إسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل » فالميت أحوج بعد الدفن إلى الدعاء فإذا قام المسلمون على جنازته دعوا له لا به ، وشفعوا له بالصلاة عليه لا استشفعوا به ، فبدل أهل الشرك والبدع قولاً غير الذي قيل لهم ، بدلوا الدعاء له بدعائه ثانياً عنهم كان أو قريباً ، والاستغاثة به والهتف باسمه عند حلول الشدة . وتركوا من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه . وقصدوها بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ إحساناً إلى الميت وتذكيراً بالآخرة فبدلوا ذلك بسؤال الميت نفسه وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة ، وحضور القلب وخشوعه عندها أعظم منه في الصلاة والمساجد ووقت الإحسان .

وإذا شرع الدعاء لسائر المؤمنين فالنبي ﷺ أحق الناس بأن يصلى ويسلم عليه ويدعى له بالوسيلة كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ مرة واحدة صلى الله عليه بها عشراً » ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة .

واستشفاع العبد في الدنيا إنما هو فعل السبب لحصول شفاعته له يوم القيامة كما وعد فيما جاء به قولاً وعملاً واعتقاداً ^(١) وإنما سئلت له الوسيلة مع تحققها تنوياً بقدره ، ورفعاً لذكره ، ويعود ثواب ذلك إلينا . فهذا هو الدعاء المأثور ، وهو فارق بين الدعاء الذي أحبه والذي نهى عنه ، ولم يذكر أحد من الأئمة الأربعة ولا من غيرهم من أئمة السلف فيما نعلمه أن النبي ﷺ يسأل بعد الموت الاستغفار ولا غيره .

قال الإمام مالك رحمه الله فيما ذكره اسماعيل بن إسحق في المبسوط عنه

(١) المفهوم من العبارة أن سبب حصول الشفاعة في الآخرة هو اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من الأقوال والأفعال والمقائد لا طلبها باللسان منه فإن هذه بدعة غير مشروعة .

والقاضي عياض في الشفاء والمشارك وغيرهما من أصحاب مالك عنه : لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ويدعو له ولكن يسلم ويمضي . وقال أيضاً في المبسوط عن مالك : لا بأس لمن قدم من السفر أو خرج إليه أن يقف عند قبر النبي ﷺ ويصلي ويسلم عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر ، فقليل له : إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه وهم يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر يأتون عند القبر فيسلمون عليه ويدعون ساعة ، فقال : لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه في بلدنا لا من الصحابة ولا غيرهم ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك يكررون المحي ، إلى القبر ، بل كانوا يكرهونه إلا لمن جاء من سفر أو أرادته (١) . انتهى .

ما يفعل عند قبره ﷺ والمأثور منه :

النهى عن اتخاذ قبره ﷺ عيداً ، وحديث شد الرحال : وتلاوة الآية في قوله : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ﴾ الآية ... والاستغفار بحضرة القبر وإن قال به جماعة من متأخري الفقهاء كلهم لم يقولوا يدعى صاحب القبر يدعى الله ، بل المحفوظ عنهم أن الميت والغائب لا يسأل منه شيء لا استغفار ولا غيره . واستغفارهم الله لا الرسول ﷺ ، وحياته في قبره برزخية ولا تقتضي دعاءه ، وأصحابه أعلم بها منا ولم يأت أحدهم إلى القبر فيسأله ويستغيث به ، وقد ثبت النهي عنه عليه الصلاة والسلام أن يتخذ قبره عيداً ، قال أبو يعلى الموصلي في مسنده ، عن علي بن الحسين رضي الله عنهما ، قال : أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « لا تتخذوا قبوري عيداً ولا بيوتكم قبوراً ، وإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم » ، رواه أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي في مختاراته ، وروى سعيد بن منصور في السنن ، عن أبي سعيد مولى المهدي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تتخذوا قبوري عيداً ولا بيوتكم قبوراً وصلوا عليّ حيثما كنتم

(١) روي هذا عن ابن عمر ولم يكن يفعل كثيراً ، كتبه مصححه .

فإن صلاتكم تبلغني « روى هذا الحديث أبو داود عن أبي هريرة ورواه سعيد بن منصور في سننه من حديث أبي سعيد مولى المهدي ورواه أيضاً من حديث الحسن ابن الحسن بن علي رضي الله عنه ، وهذان الحديثان وإن كانا مرسلين فهما يقويهما حديث أبي هريرة المرفوع وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « لا تشدوا الرحال إلى مسجد من المساجد إلا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا » وهو حديث ثابت باتفاق أهل العلم يتلقى بالقبول عنهم ^(١) وهو إن كان معناه لا تشدوا الرحال إلى مسجد من المساجد إلا إلى الثلاثة التي قد ذكرت فالسفر إلى هذه المساجد الثلاثة إنما هو للصلاة فيها والدعاء والذكر ، وقراءة القرآن ، والاعتكاف الذي هو من الأعمال الصالحة .

ما يفعل عند قبره ﷺ والمآثور منه :

وما سوى هذه المساجد لا يشرع السفر إليه بإتفاق أهل العلم حق مسجد (قبا) يستحب قصده من المكان القريب كالمدينة ، ولا يشرع شد الرحل إليه من بعيد ، ولذلك كان النبي ﷺ يأتي إليه كل سبت ماشياً وراكباً ، وكان ابن عمر يفعله كما في الصحيح. فإن كان قبا أسس على التقوى فمسجده ﷺ أعظم في تأسيسه على التقوى ، لذلك قال : « مسجدي هذا ».. فكل المسجدين أسس على التقوى ، ولكن اختص مسجده بأنه أكمل في هذا الوصف من غيره فكان يقوم في مسجده يوم الجمعة ، ويأتي مسجد قبا يوم السبت ، وإذا كان السفر إلى مسجد غير الثلاثة ممتنعاً شرعاً مع أن قصده لأهل مصره يجب تارة ^(٢) ويستحب أخرى ، وكان في قصد المساجد من الفضل ما لا يحصى ، فالسفر إلى مجرد القبور أولى بالمنع. ولا يفتر بكثرة العادات الفاسدة التي أحدثها الملوك وأشباههم والأحاديث التي رواها

(١) رواه الجماعة كلهم ولفظه المشهور « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » وفي لفظ مسلم « لا تشدوا » بالجمع والخطاب .

(٢) كذا بالأصل ولعل في العبارة سقط .

الدارقطني في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام كلها مكذوبة موضوعة باتفاق غالب أهل المعرفة، منهم ابن الصلاح، وابن الجوزي، وابن عبد البر، وأبو القاسم السهيلي، وشيخه ابن العربي المالكي، والشيخ تقي الدين وغيرهم، ولم يجعلها في درجة الضعيف إلا القليل، وكذلك تفرد بها الدارقطني عن بقية أهل السنن، والأئمة كلهم يرون بخلافه. وأجلّ حديث روي في هذا الباب حديث أبي بكر البزاز، ومحمد بن عساكر، حكاه أهل المعرفة بمصطلح الحديث كالقشيري والشيخ تقي الدين وغيرهما، وإنما رخص عليه السلام في زيارة القبور مطلقاً بعد أن نهى عنها كما ثبت في الصحيح، لكن بلا شدّ رحل وسفر إليها للأحاديث الواردة في النهي عن ذلك كما تقدم.

زيارة قبره عليه السلام والنهي عن اتخاذ القبور مساجد :

وإذا جاء السفر ^(١) المشروع لقصد مسجد النبي عليه السلام للصلاة فيه دخلت زيارة القبر تبعاً، لأنها غير مقصودة استقلالاً، وحينئذ فالزيارة مشروعة بجمع على استحبابها بشرط عدم فعل محذور عند القبر كما تقدم عن مالك، وما حكاه الغزالي رحمه الله ومن وافقه من متأخري الفقهاء من زيارة القبر ^(٢) فرادهم السفر المجرد عن فعل العبادة من الصلاة والدعاء عنده، بل يصلي ويسلم عليه ويسأل له الوسيلة، ثم يسلم على أبي بكر، ثم عمر، ولا يقصد الصلاة عند القبر لعنه عليه السلام المتخذين قبور أنبيائهم مساجد، واللعنة في كلام الله وكلام رسوله لا تجامع إلا الحرمة والإثم لا مجرد الكراهة، لقوله: « اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبَد ». اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وقال ابن حجر رحمه الله في (الإمداد الموسوم بشرح الإرشاد): ينوي الزائر المتقرب السفر إلى مسجده عليه السلام وشد الرحل إليه لتكون زيارة القبر تابعة. انتهى.

واتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد هو الموقع لكثير من الأمم إما في

(١) استعمل جاء بمعنى كان أو وجد إن لم يكن محرفاً عن جاز.

(٢) لعل أصله من السفر لأجل زيارة القبر.

الشرك الأكبر ، أو فيما دونه من الشرك ، فإن النفوس قد أشركت بتأثيل القوم الصالحين كودّة وسواع ويعوث وتماثيل طلاس الكواكب ونحو ذلك يزعمون أنها تخاطبهم وتشفع لهم . والشرك بقبر النبي ﷺ أو الرجل المعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر (١) ، ولهذا تجد أهل الشرك كثيراً ما يتضرعون ويخشعون عندها ما لا يخشعون الله في الصلاة ، ويعبدون أصحابها بدعائهم ورجائهم ، والاستغاثة بهم ، وسؤال النصر على الأعداء ، وتكثير الرزق ، وإيجاده ، والعافية ، وقضاء الديون ، وببذلون لهم التذوق لطلب ما أملوه ، أو دفع ما خافوه ، مع اتخاذهم أعياداً ، والطواف بقبورهم ، وتقبيلها واستلامها وتعفير الحدود على تربتها ، وغير ذلك من أنواع العبادات ، والطلبات التي كان عليها عباد الأوثان يسألون أوثانهم ليشفعوا لهم عند مليكهم . فهؤلاء يسأل كل منهم حاجته وتقريج كربته ، ويهتفون عند الشدائد باسمه كما يهتف المضطر بالفرد الصمد ، ويعتقدون أن زيارته موجبة للغفران ، والنجاة من النيران ، وأنها تجب ما قبلها من الآثام ، بل قد وجد هذا الاعتقاد في الأشجار والغيران ، ويهتفون باسمها واسم من ينسبون إليه من المعتقدين بما لا يقدر عليه إلا رب العالمين ، وأكثر ما يكون ذلك عند الشدائد .

عبادة القبور بالدعاء وغيره .

مراتب دعاء غير الله تقرباً إليه وكونها شركاً .

والله تعالى عز شأنه فسر هذا الدعاء في مواضع أخر بأنه عبادة محضة كقوله : ﴿ وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينضرونكم أو ينتصرون ﴾ وقوله : ﴿ انكم تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ والأنبياء والملائكة والصالحون كل معبود من هؤلاء داخل في عموم قوله سبحانه : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ كما هو سبب النزول وقوله

(١) ان أصنام قوم لوح تماثيل لرجال صالحين اتخذوها ذكرى لهم ثم عظموها تعظيم العبادة كما رواه البخاري عن ابن عباس وكتبه مصححه .

عز شأنه : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ فدعائهم آلهتهم هو عبادتهم لها ، ولأنهم كانوا إذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وحده وتركوها ، ومع هذا فهم يسألونها بعض حوائجهم بواسطة قريهم من الله ويطلبونها منهم بشفاعتهم لهم . فأمر الله العباد بإخلاص تلك العبادة له وحده ، فلا يدعونهم ولا يسألونهم الشفاعة ، فإن ذلك دين المشركين . قال الله تعالى فيهم : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ الآية .

ولما ذكر الله تعالى ذلك عنهم لأنهم يدعون الملائكة والأنبياء ويصورون صوراً ليشفعوا لهم فيما دعوهم فيه وذلك بطرق مختلفة ، ففرقة قالت ليس لنا أهلية مباشرة دعاء الله ورجائه بلا واسطة تقربنا اليه وتشفع لنا لعظمته وفرقة قالت الأنبياء والملائكة ذوو وجاهة عند الله ومنزلة عنده ، فاتخذوا صورهم من أجل حبهم لهم ليقربهم إلى الله زلفى وفرقة جعلتهم قبلة في دعائهم وعبادتهم وفرقة اعتقدت أن لكل صورة مصورة على صورة الملائكة والأنبياء وكيلها موكلاً بأمر الله ، فمن أقبل على دعائه ورجائه وتبتل اليه قضى ذلك الوكيل ما طلب منه بأمر الله وإلا أصابته نكبة بأمره تعالى . فالمشرك انما يدعو غير الله بما لا يقدر عليه الا هو تعالى ويلتجئ اليه فيه ويرجوه منه بما يحصل له في زعمه من النفع ، وهو لا يكون إلا فيمن وجدت فيه خصلة من أربع : اما أن يكون مالكاً لما يريد منه داعيه ، فإن لم يكن مالكاً كان معيناً ، فإن لم يكن كان ظهيراً ، فإن لم يكن كان شفيعاً ، فنفى الله سبحانه وتعالى هذه المراتب الأربع عن غيره ، والشركة والمظاهرة والشفاعة التي لأجلها وقعت العداوة والمخاصمة بالآية المتقدمة وبقوله : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ﴾ الآية وقوله : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ﴾ وقوله : ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ وقوله : ﴿ لمن الملك اليوم ؟ الله الواحد القهار ﴾ وقوله : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ وقوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وقوله :

﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾ فأنبت سبحانه ما لا نصيب فيه لمشارك البتة وهي الشفاعة بإذنه لمن رضي عنه وهو سبحانه يعلم السر وأخفى ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولهذا لما قالت الصحابة رضي الله عنهم : أربنا قريب فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ أنزل الله سبحانه ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ﴾ .

حقيقة التوحيد :

الشرك يقتضي الايمان بالله وعبادته :

الموحد من اجتمع قلبه ولسانه على الله تخلصاً له تعالى الالهية المقتضية لعبادته في محبته وخوفه ورجائه ودعائه والاستعانة به والتوكل عليه وحصر الدعاء بما لا يقدر على جلبه أو دفعه الا الله وحده والموالاته في ذلك والمعاداة فيه وأمثال هذا ناظراً الى حق الخالق والمخلوق من الأنبياء والأولياء ميمناً بين الحقيين ، وذلك واجب في علم القلب وشهادته وذكره ومعرفته ومحبته وموالاته وطاعته ، وهذا من تحقيق لا اله الا الله لأن معنى الإله عند الأولين ما تأله القلوب بالمحبة التي كحب الله والتعظيم والإجلال والخضوع فالرجاء بها هو مختص من عند الله (١) وذبح النسك له قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، تالاه ان كنا لفي ضلال مبين ، اذ نسويكم برب العالمين) وهم ما سووهم به لا في الصفات ولا في الذات ولا في الأفعال كما حكى الله عنهم في الآيات ، والشاهد الله بأنه لا إله الا هو ، وقائلها نافية قلبه ولسانه لالهية كل ما سواه من الخلق ، ومثبتاً به الالهية لمستحقها وهو الله المعبود بالحق ، فيكون معرضاً عن ألوهية جميع المخلوقات لا يتألههم بما لا يقدر عليه الا الله ، مقبلاً على عبادة رب الأرض والسموات ، وذلك يتضمن اجتماع القلب في عبادته ومعاملته

(١) كذا في الأصل ولعله سقط منه شيء بل ذلك حتم .

على الله ، ومفارقة في ذلك كل ما سواه ، فيكون مفرقاً في عمله وقصده وشهادته وارادته ومعرفته ومحبه بين الخالق والمخلوق بحيث يكون عالماً بالله ذا كراً له عارفاً به ، وأنه تعالى مبين لخلقه ، منفرد عنهم بعبادته ^(١) وأفعاله وصفاته . فيكون محباً فيه مستعيناً به لا بغيره ، متوكلاً عليه لا على غيره . وهذا المقام هو المعنى في ذلك ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وهي من خصائص الألوهية التي يشهد له بها تعالى عباده المؤمنون كما أن رحمته لعبيده ، وهدايته إياهم وخلقه السموات والأرض وما بينهما وما فيها من خصائص الربوبية التي يشترك في معرفتها المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، حتى إبليس عليه اللعنة معترف بها في قوله تعالى : ﴿ رب انظرني إلى يوم يبعثون ﴾ وقوله : ﴿ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾ وأمثال هذا الخطاب الذي يعرف بأنه ربه وخالقه ومليكه وأن ملكوت كل شيء في يده تعالى وتقدس ، وإنما كفر بعناده وتكبره عن الحق وطعنه فيه وزعمه أنه فيما ادعاه وقاله محق . وكذلك المشركون الأولون يعرفون ربوبيته تعالى وهم له بها يعترفون ، قال تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ﴾ ، سيقولون لله ﴿ وقال : ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ فإذا ركعوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ فمن دعا غيره تعالى لم يكن مخلصاً وقال تعالى : ﴿ من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾ سيقولون الله ﴿ وقال تعالى : ﴿ واقل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ ، قالوا نعبد أصناماً فنظّل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ؟ ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ والآيات في هذا الباب كثيرة جداً .

وروى الإمام أحمد في مسنده والترمذي من حديث حصين بن المنذر أن رسول الله ﷺ قال : « يا حصين كم تعبد ؟ قال : ستة في الأرض وواحد في

(١) أي بكون العبادة تكون له وحده ، ويجوز أن تكون أصل الكلمة بذاته .

السماء ، قال : فمن ذا الذي تعد لرغبتك ؟ قال : الذي في السماء . فقال له رسول الله ﷺ : « أسلم حتى أعلمك كلمات ينفعك الله بهن » ، فأسلم ، فقال : قل : « اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي » فمجرد معرفتهم بربوبيته تعالى واعترافهم بها لم تنفعهم ولم تدخلهم في الإسلام مع جعلهم مع الله آلهة أخرى يدعونها ويرجونها لتقرهم إلى الله زلفى وتشفع لهم عنده ، فبذلك كانوا مشركين في عبادته ومعاملته . ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم : لا شريك لك ، الا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك و « الدعاء مخ العبادة » كما ان الإله اسم المعبود . وروى النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدعاء هو العبادة - وفي رواية - مخ العبادة » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ الآية ، رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح ، ورواه أيضاً النسائي وابن ماجه والحاكم والإمام أحمد وابن أبي شبة بهذا اللفظ ، وهذه الصيغة تفيد قصر الدعاء على العبادة فلا يخرج عنها لأنها من الصفات اللازمة التي ليس لها مفهوم يخالف الظاهر كقوله تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ﴾ إذ كل مدعو فهو آلهة قصد الداعي أن مدعوه إلهاً أم لا ، اتخذته المشركون الأولون أم لا ، وليس ثمة دعاء إله آخر له برهان .

الشرك باتخاذ الأولياء والشفعاء :

وقد وصف الله سبحانه وتعالى دين المشركين بقوله : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ الآية ، فبيّن في هذه الآية انما قصدهم الشفاعة . وفي صحيح البخاري ومسلم ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل مع الله نداً وهو خلقك » ، قال : قلت ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » ، قال : قلت ثم أي ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » فأنزل الله تصديقها : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ الآية ، فبيّن النبي ﷺ أن أعظم الذنب الشرك بالله الذي هو جعل الأنداد واتخاذهم من خلقه ليقرّبوهم إليه . وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن

رسول الله ﷺ قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » (١) ، فدين الله وسط بين الغالي والجافي عنه .
الشرك الأصغر والأكبر :

والشرك : شركان ، أكبر : وله أنواع ومنه الذي تقدم بيانه آنفاً ، وشرك أصغر : كالرياء والسمعة ، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه » ، ومنه الحلف بغير الله لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ : « من حلف بغير الله فقد أشرك » ، أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وصححه ابن حبان . وقال ﷺ : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » أخرجه الشيخان ، وروى الإمام أحمد وأبو داود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال له رجل : ما شاء الله وشئت ، قال : « أجعلتني لله نداً ؟ قل ما شاء الله وحده » ، والشرك الأصغر لا يخرج عن الملة وتجب التوبة منه ومن كل ذنب .

التوسل الصحيح :

فلم يبقَ إلا التوسل بالأعمال الصالحة كتوسل المؤمنين بإيمانهم في قوله : ﴿ ربنا

(١) الذي في صحيح مسلم : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً ، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . قال النووي في شرحه : إن الثلاثة المرضية ، إحداها : أن يعبدوه ، الثانية : أن لا يشركوا به شيئاً ، الثالثة : أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يفرقوا ، اهـ . وأورد الحديث السيوطي في الجامع الصغير وذكر الثلاثة المرضية بلفظ المؤلف فيكون قوله صلى الله عليه وسلم : « أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » هو الاولى ، والثالثة : وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » وعزاه الى الامام أحمد ومسلم ، فالمؤلف اختار لفظ الامام أحمد ، وفاته عزو الحديث اليه او سقط من النسخ .

إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان... ﴿ وكتوسل أصحاب الصخرة المنطبقة عليهم وهم ثلاثة نفر قوسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة - الحديث في صحيح البخاري - لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله، وكسؤال الله بأسمائه الحسنى، قال تعالى : ﴿ والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ وكالادعية الماثورة في السنن : « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الختان المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام » ، وأمثال ذلك وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ لأنها القرب التي يتقرب بها إلى الله وتقرب فاعلها منه ، وهي الأعمال الصالحة ، لما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « قال الله تعالى : من عادي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ، وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » الحديث ، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا أممهم أمر فزع إلى الصلاة فإنها أعظم القرب إلى الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ وليست الوسيلة بمخلوق يبتغي ليحصل واسطة بين الله وبين خلقه ، يشفع لهم ويتقربون إليه ، لأن هذا عين ما نهى الله عنه في الآيات ، وأنزل بقبحه الكتب ، وأرسل الرسل ، وهو ما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ لأن قصدهم أن يتقربوا به .

الاقسام على الله بالمخلوقين :

وأما الإقسام على الله بمخلوق ، فهو منهي عنه باتفاق العلماء ، وهل هو منهي عنه نهى تنزيه أو تحريم ؟ على قولين (أصحابها) أنه كراهة تحريم ، واختاره العز ابن عبد السلام في فتاويه ، قال بشر بن الوليد : سمعت أبا يوسف يقول : قال أبو حنيفة رحمه الله : لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به ، وأكره أن تقول بمعاقد العز من عرشك ، أو بحق خلقك ، وهو قول لأبي يوسف ، قال أبو يوسف :

بمعاد العز من عرشك هو الله فلا أكره هذا، وأكره بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت والمشعر الحرام، قال القدوري رحمه الله: المسألة بحق المخلوق لا تجوز لهذا فلا يقول: أسألك بفلان وملائكتك وأنبيائك ونحو ذلك، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق. انتهى - وأما قوله: «وبحق السائلين عليك» ففيه عطية العوفي^(١) وفيه ضعف، ومع صحته فمعناه بأعمالهم^(٢) لأن حقه تعالى عليهم طاعته، وحقهم عليه الثواب والإجابة، وهو تعالى وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله، وإذا والى العبد ربه وحده أقام الله له ولياً من الشفعاء، وهي الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله بخلاف من اتخذ مخلوقاً من دون الله أو معه، فهذا نوع، وذلك نوع آخر، كما أن الشفاعة الشريكة الباطلة نوع، وشفاعة الحق الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد نوع آخر.

حديث الأعمى بالتوسل بالنبي ﷺ :

ما ورد من التوسل بالنبي ﷺ لا يقاس عليه :

وما استدل علينا الخصم ويزعم أن دعوة غير الله وسيلة قوله: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى، اللهم شفعه في» رواه الترمذي والحاكم وابن ماجه عن عمران بن حصين، فجوابه من وجوه :

الأول: أنه في غير محل النزاع، إذ هو ليس سؤال النبي ﷺ نفسه، وإنما هو سؤال الله وحده أن يشفع فيه نبيه، وعمل الخصم الإختراعي منكراً، ورواية

(١) قوله ففيه الخ: أي في الحديث الذي وردت فيه هذه الجملة من تلقين النبي صلى الله عليه وسلم، والمتبادر من معناها أنها سؤال الله تعالى بوعده للسائلين أن يستجيب دعاءهم بمثل قوله: (ادعوني أستجب لكم) وليست توسلاً بأشخاص السائلين وهم جواهر البشر من جميع الملل والنحل.

(٢) أي ومع تقدير صحة الحديث فمعناه صحة السؤال بأعمالهم، والظاهر المتبادر ما قلناه وهو قوله: وحقهم عليه الثواب والإجابة.

الحديث بجرمته ، فأين هذا من عمارة القبور ، وإلقاء الستور عليها وتسريحها وهذه كلها كبائر ، كما قال أهل العلم ، حتى ابن حجر الهيثمي وغيره : أن حدتها (١) كل ما اتبع بلغنة أو غضب أو نار ، والأحاديث في تحريم عمارة القبور كثيرة في الصحيحين وغيرهما ، ويضاف إلى عمارتها دعاء أصحابها ورجاؤهم ، والإلتجاء اليهم ، والنذر لهم ، وكتب الرقاع لها ، وخطابهم يا سيدي يا مولاي إفعل كذا وكذا ، وبهذا عبدت اللات والعزى ، والويل كل الويل عندهم لمن عاب وأنكر عليهم . ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر ونهى ، وما كان عليه أصحابه ، وبين ما عليه الناس اليوم ، رأى أحدهما مضاداً للآخر مناقضاً له . وإذا كان سبب قول الله عز وجل ﴿ فلا تجمعوا الله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ مجيء خبر من اليهود إلى رسول الله ﷺ والمسلمين ، وقوله : نعم القوم أنتم لولا أنكم تعملون الله أنداداً فتقولون : ما شاء الله وشاء فلان ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنه قد قال حقاً » وأنزل الله : ﴿ فلا تجمعوا الله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ . ومن أخرج الحديث جلال الدين السيوطي في الدر المنثور في تفسيره (٢) هؤلاء يحب أحدهم معتقده أكثر من حب الله ، وإن زعم أنه لا يحب كعبه ، فشواهد الحال تشهد عليه بذلك ، فإنه يعظم القبر أعظم من بيت الله ، ويحلف بالله كاذباً ، ولا يحلف بمعتقده . فلا جامع بين ما استولوا به علينا وبين ما نهيناهم عنه .

الثاني : أن الحديث دليل لنا أنه لا يدعى غير الله عز وجل ، فإن مسألة « اللهم إني أتوجه إليك » فسأل الله عز وجل أن يشفعه فيه واسطة (؟) « يا حبيبنا يا محمد إنا نتوسل بك إلى ربك فاشفع لنا » (؟) فهذا خطاب الحاضر كقولنا في صلاتنا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وكاستحضار الإنسان محبه أو مبغضه في قلبه فيخاطبه بما يهواه لسانه ، ومعناه : أتوجه إليك

(١) أي الكبيرة .

(٢) كذا . ولعل الأصل : في تفسيره لهذه الآية ، وهو قد ذكره بالمعنى .

بدعاء نبيك وشفاعته التي معناها في هذه الدار الدعاء، ولهذا قال في تمام الحديث : « اللهم شفعه في » أي استجب دعاءه ، وهذا متفق على جوازه ، إذ الحي يطلب منه سائر ما يقدر عليه ، وأما الغائب والميت فلا يستغاث به ، ولا يطلب منه ما لا يقدر عليه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَمَرَ كُلُّهُ ﴾ إنما غايته طلب الدعاء من الحي ، وقبول شفاعته عند الله عز وجل ، وهو ﷺ انتقل من هذه الدار إلى دار القرار بنص الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة ، ولهذا استسقى أصحابه بعمه العباس بن عبد المطلب ، وأن يدعو لهم في الاستسقاء عام القحط ، أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، ولم يأتوا إلى قبره ولا وقفوا عنده مع أنه ﷺ حياته في قبره برزخية . والدعاء عبادة مبناه على التوقيف والإتباع . ولو كان هذا من العبادات لسنة الرسول ، لكان أصحابه أعلم بذلك وأتبع ، ولهذا لم يفعله أحد من الصحابة ولا التابعين مع شدة احتياجهم ، وكثرة مدلماتهم ، وهم أعلم بمعاني كتاب الله وسنة رسوله وأحرص اتباعاً لملته من غيرهم ، بل كانوا ينيهون عنه وعن الوقوف عند القبر للدعاء عنده ، وهم من خير القرون التي قد نص عليها النبي ﷺ في قوله : « خيركم قرني » ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، قال عمران : لا أدري أذكر اثنتين أو ثلاثاً بعد قرنه ، أخرجه البخاري في صحيحه .

الثالث : أنهم زعموا أنه دليل للوسيلة إلى الله بغير محمد ﷺ وخرجوا عن محل النزاع إلى شيء آخر ، وهو التوسل بغير رسول الله ﷺ فلا دليل فيه أصلاً ، لأنهم صرحوا بأنه لا يقاس مع فارق . فلا يجوز لنا أن نقول : اللهم إنا نسألك ونتوجه اليك برسولك نوح ، يا رسول الله يا نوح ، ولا لنا أن نقول : إنا نسألك ونتوجه اليك بخليلك إبراهيم ، ولا بكليمك موسى ، ولا بروحك عيسى ، مع أن الجامع في نوح عليه السلام الرسالة ، وفي إبراهيم عليه السلام الخلة مع الرسالة ، وفي موسى عليه السلام الكلام مع الرسالة ، وفي عيسى روح الله وكلمته مع الرسالة ، فليس لنا أن نقول هذا لأنه لم يرد ولا حاجة لنا إلى فعل شيء لم يرد . والقياس إنما يباح عند من يقول به للحاجة في حكم لا يوجد فيه نص ، فإذا وجد النص

فلا يحل القياس عند من يقول به ، ولا حاجة لنا إلى قول مخترع يجرُّ إلى الشرك ، خصوصاً مع ما ورد فيه ، وأنه في هذه الأمة أخفى من ديب النمل ، وأن هذه الأمة افترقت على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، فالناجية من اتبع ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه .

الرابع : إن الوسيلة ليست هي أن ينادي العبد غير الله ، ويطلب حاجته التي لا يقدر على وجودها إلا الرب تبارك وتعالى ممن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، كذلك من سرق التابوت والمعلق عليه من بيض النعام أو غيره .

حديث نداء من انفلتت دابته يحبسها من سمعه :

ادعاء الاجماع على بدع القبوريين :

التوصل الى الله بشيء من مخلوقاته :

وبما استدللّ به علينا في جواز دعوة غير الله في المهمات قوله ﷺ في الحديث الذي رواه ابن مسعود : « إذا انفلتت دابة أحدكم في أرض فلاة فليناد : يا عباد الله احبسوها » وفي رواية « إذا أعيت فليناد : يا عباد الله أعينوا » وهذا من جملة الجهل والضلال ، وإخراج المعاني عن مقاصدها من وجوه :

الأول : أن هذه ليست بوسيلة أصلا إذ معنى الوسيلة ما يتقرب به من الأعمال إلى الله عز وجل وهذا ليس بقربة .

الثاني : أن الحديثين غير صحيحين ، أما الأول فرواه الطبراني في الكبير بسند منقطع عن عقبة رضي الله عنه ، وحديث انفلات الدابة عزاه النووي رحمه الله لابن السني ، وفي اسناده معروف بن حسان قال ابن عدي : هو منكر الحديث ولا دليل في هذين الحديثين مع ضعفهما ولا في الحديث المتقدم قبلهما على دعاء أصحاب القبور كعبد القادر الجيلاني من قطر شاسع ، بل ولا من عند قبره ، ولا ينادى غيره ، لا الأنبياء ، ولا الأولياء ، إنما غايته أن الله عز وجل

جعل من عباده من لا يعلمهم إلا هو سبحانه^(١) ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ وإذا نادى شخصاً باسمه معيماً فقد كذب على رسول الله ﷺ ونادى من لا يؤمر بنداؤه ، وليس معنى الحديث في كل حركة وسكون وقيام وقعود ، وإنما أبيع له ذلك إن أراد عوناً على حمل متاعه أو انفلتت دابته ، وهذا مع تقدير صحة الحديث .

الثالث : أن الله تعالى قال : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ بعد أن أكمله بفضله ورحمته ، فلا يحل أن تخرع فيه ما ليس منه ، ونقيس ما لا يقاس عليه .

الرابع : أن الحديث الصحيح إذا شذ عن قواعد الشرع لا يعمل به ، فإنهم قالوا : إن الحديث الصحيح الذي يعمل به إذا رواه العدل الضابط عن مثله من غير شذوذ ولا علة ، فكيف العمل بالحديث المتكلم فيه بما لا يدل عليه دلالة مطابقة ولا تضمن ولا التزام ؟ فهذا هو البهتان .

الخامس : أنهم زعموا موافقتهم بذكر من يمتقدونه ونسبوا الأفعال اليهم وكل أحد يذكر ما وقع له من الاستغاثة بفلان أو إنجاده ، وكشف شدته ، فإذا قال أحد سبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، قاموا عليه وخرجوه وبدعوه وقالوا معلوم أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فإذا قال نعم ، ولكن ليس لأحد منهم ملكوت خردلة والله يقول : ﴿ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ فإن منهم من يدعي العلم والإنصاف وهو واسع الصدر يقول : هذه الآية نزلت في عبادة الأصنام فإذا قيل له الأصنام ود وسواع ويغوث ويعوق أسماء رجال صالحين ، وهذه الخرق على التواييت ودعوة الأموات هي فعل عباد الأصنام ، وقد قرر أهل العلم أن العام لا يقصر على السبب مثلاً أن نستحل أن لا

(١) كذا . والمتبادر أن النداء لمن عساه يوجد من الناس في الغلاة ولم يره وهو معتاد .

نؤدي الأمانة ، فإذا قيل أن أدوا الأمانة فإن الله يقول : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ فلا يقال هذه نزلت في مفتاح باب الكعبة فلا يحتج بها عامة . كذلك لا يقال هذه نزلت في عباد الأصنام ، ونفعل فعلهم ونقول : لسنا مشركين . وفي الأحاديث القدسية عن خير البرية ﷺ قال الله عز وجل : ﴿ أنا والجن والإنس في نبي عظيم : أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري ﴾ أخرجه الحاكم والترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء رضي الله عنه — أجاب بأن الأمة مطبقة على هذا ، والامة لا تجتمع على ضلالة ، فيلزمه تضليل الامة وتسفيه الآباء ، جوابه أما إن الامة مطبقة على هذا فكذب عليها ، هذه كتب الحديث والتفسير ، فيها : لا يجوز أن يدعى غير الله عز وجل بما لا يقدر عليه إلا هو تعالى ولا يباح ، بل الآيات البينات والأحاديث ، وأقوال العلماء ، ترشد أن هذا شرك محقق والله تعالى يقول لرسوله ﷺ : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً ﴾ ويقول : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ والأحاديث ونصوص العلماء لا تخالف الكتاب .

السادس : أنه قد اختلفوا في التوسل اليه بشيء من مخلوقاته تعالى وتقدس هل هو مكروه أو حرام ، والأشهر : الحرمة ، كما قال به أبو محمد العزبن عبد السلام في فتاويه أنه لا يجوز التوسل اليه بشيء من مخلوقاته لا الأنبياء ولا غيرهم ، وتوقف في حق نبينا محمد ﷺ هل فيه الحرمة أو الكراهة ، وتقدم قول أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله .

السابع : أنهم يشتركون أولادهم ممن يعتقدونه ، ويجعلون زوايا لمن يعتقدونه ويجعلون فيها الطبول والبيارق والمزاهر ومطارق الحديد يضربون بها أنفسهم ، وفيها جماعة ينسبون إلى ذلك المعتقد كالعوانية ، والقادرية ، والرفاعية ، وهي أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، ويعبدون أنفسهم لهم كعبد فلان وفلان والله قد سمنا المسلمين قال الله تعالى : ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ في الكتب المنزلة كالنوراة والإنجيل ، وفي هذا القرآن ، فاستبدلوا الذي أدنى بالذي هو خير . وإذا مرض هذا المشتري من المعتقد نذر أهله له النذور ، ولم يزل يستغيث بأن

يشفى سقمه ، ويكشف شدته ، وهذا الأمر سرى في العلماء والجهال ، وفي مكة أكثر منهم ، قد غلبت عليهم العوائد ، وسلبت عقولهم عن تفهم المراد والمقاصد من الكتاب والسنة ، وكلام الأئمة ، لم يجدوا هذا في كتاب فروع أحد منهم ولا أصوله ، صانهم الله عن هذه الوصمة ، فما استدلووا به مما تقدم لا يكون دليلاً على التوسل بالأموات المعلوم حالهم أنهم في أعلى الجنان ، فكيف غيرهم ممن لا يعلم حاله في الآخرة ، ولا يدري أين مآله ، كيف يكون دليلاً على دعوة غير الله في المهات ، ويقال : الوسيلة ، ويستدل لها بهذا ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ وتحريف للكلم عن مواضعه .

معاداة القبوريين لمن ينكر بدعهم :

أحاديث الأمر بتسوية القبور :

فهذا يتبين أن الشيطان اللعين نصب لأهل الشرك قبوراً يعظمونها ويعبدونها أوثاناً من دون الله ، ثم يوحى إلى أوليائه أن من نهى عن عبادتها واتخاذها أعياداً وجعلها والحالة هذه أوثاناً فقد انتقصها وغمصها حقها ، فيسعى الجاهلون المشركون في قتالهم وعقوبتهم ، وما ذنبهم عند هؤلاء المشركين إلا أنهم أمرهم بإخلاص التوحيد ، ونهوههم عن الشرك بأنواعه وقالوا بتبطليله ، فعند ذلك غضب المشركون واشمأزت قلوبهم فهم لا يؤمنون . وقالوا قد انتقصوا أهل المقامات والرتب ، فاستحقوا الويل والتعب ، وفي زعمهم أنهم لا حرمة لهم لدنيا ولا قدر ، حتى سرى ذلك في نفوس الجاهل والطفام ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حباً للأولياء أتباع المرسلين ، وبسبب ذلك عادوا ورموا بالعظائم والجرائم ، ونسبوا كل قبيح البنا ونفروا الناس عنا وعما ندعو إليه ، ووالوا أهل الشرك وظاهروهم علينا ، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله وكتابه ، ويأبى الله ذلك فما كانوا أولياءه ، إن أوليائه إلا المتقون له ، الموافقون له العارفون به ، وبما جاء به ، والعاملون به والداعون إليه ، لا المتشبعون بما لم يعطوا اللابسون ثياب الزور الذين يصدون الناس عن دين نبيهم وهدى وسنته ويغونها عوجاً وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً باتباعه واحترامه والعمل به ، وتعظيم الأنبياء والأولياء

واحترامهم متابعتهم لهم فيما يحبونه ، وتجنب ما هم يكرهونه ، وهم أعصى الناس لهم ، وأبعدهم منهم ومن هديهم ومتابعتهم ، : كالنصارى مع المسيح ، وكاليهود مع موسى ، والرافضة مع علي . وأهل النوحيد أين كانوا أولى بهم وبمحبتهم ونصرة طريقتهم وسنتهم وهديهم ومنهاجم ، وأولى بالحق قولاً وعملاً من أهل الباطل . فالؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . والمنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات بعضهم أولياء بعض ، ومن أصغى إلى كلام الله بكليته قلبه ، وتدبره وتفهمه أغناه عن اتباع الشياطين وشركهم الذي يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، وينبت النفاق في القلب ، وكذلك من أصغى إليه وإلى حديث رسول الله بكليته وحدث نفسه بها وعمل باقتباس الهدى والعلم منها لا من غيرهما أغنيه ^(١) عن البدع والشرك والآراء والتخرصات والشطحات والخيالات التي هي وساوس الشيطان والنفوس ، وتخيلات الهوى والبؤس ، ومن تعود ذلك ^(٢) فلا بد أن يتعود ما لا ينفعه بل يكون مضرّة عليه ^(٣) كما أن من عمر قلبه بحبة الله وخشيته والتوكل عليه ^(٤) أغناه أيضاً عن عشق الصور ، وإذا خلا عن ذلك صار عبد هواه ، أي شيء استحسّنه ملكه واستعبده ، فالمعرض عن التوحيد عابد للشيطان مشرك شاء أم أبى ، كما في صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي واسمه حيان بن حصين ، قال : قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ، أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته . وفي الصحيح أيضاً عن عنامة بن شفي الهمداني قال : كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبْره فسوي ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها . وقد أمر به فعليه الصحابة

(١) في الأصل : من غيري أغناه وهو تحريف ظاهر من النامخ ومثله فيه كثير نسبنا على بعضه .

(٢) لعل الأصل : ومن تعود ذلك .

(٣) لعل الأصل : بل ما هو مضرّة ، وكان الأولى أن يقال بل ما يضره .

(٤) يظهر أنه سقط من هنا شيء عطف عليه ما بعده .

والتابعون والأئمة المجتهدون، قال الشافعي في (الأم) ورأيت الأئمة بمكة يأمرون بهدم ما يبنون على القبور . ويؤيد الهدم قوله : « ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » وحديث جابر الذي في صحيح مسلم نهى ﷺ عن البناء على القبور، ولأنها أسست على معصية الرسول لنهي عن البناء عليها وأمره بتسويتها ، فبناء أسس على معصيته ومخالفته ﷺ بناء غير محترم وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعاً ، وأولى من هدم مسجد الضرار المأمور بهدمه شرعاً ، إذ إزالة المفسدة أعظم حماية للتوحيد ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على أفضل الخلق أجمعين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين.

رسالة عبد العزيز الى الحفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن محمد الى الأخ في الله محمد بن أحمد الحفظي سلمه الله تعالى من الآفات واستعمله بالباقيات الصالحات ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فإننا نحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو وهو للحمد أهل وهو على كل شيء قدير ، وأسأله أن يصلي على حبيبه من خلقه وخيرته من بريته محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام والتحيات .. وصل الخط ، وأوصلك الله الى رضوانه ، وما أشرت اليه من النصيحة صار عندنا معلوماً جزاك الله عنا خيراً ونسأله المعونة والتوفيق والتسديد في جميع الأحوال الظاهرة والخفية ، وما أشرت اليه في كتابك من أن بعض القادمين علينا يأخذون منا أوراقاً يريدون بها الجاه والترفع على من بينه وبينهم ضغائن جاهلية فأنت تفهم أن المملوك ليس له اطلاع على السرائر وإنما عليه الأخذ بالظواهر والله يتولى السرائر ومن خدعنا بالله انخدعنا له ، فإذا جاءنا من يقول أنا أريد أن أبايعكم على دين الله ورسوله وافقناه وبايعناه ، وبيننا له الدين الذي بعث الله به رسوله ﷺ ونأمره بذلك ونحضه على القيام به في بلده ، ودعوة الناس اليه وجهاد من خالفه ، فإذا خالف ذلك وغدر فالله حسبه . وأما الطائفة الثانية وهم الجنود المنتشرة للجهاد فكثير منهم لا نشعر بهم ولا نعرفهم ، بل إذا دخل أهل بلد في الاسلام وعاهدوا ساروا الى من حولهم من غير تحقيق ومعرفة بما يقاتل الكفار عليه ، وأما الجيوش والأجناد

الذين نجحهم من الوادي وأتباعهم فنأمرهم بقتال كل من بلغته الدعوة وأبى عن الدخول في الاسلام والانقياد لتوحيد الله وأوامره وفرائضه واستمسك بما هو عليه من الشرك بالله وترك الفرائض والأحكام الجاهلية المخالفة لحكم الله ورسوله ، ومثل هؤلاء لا يحتاجون الى الدعوة اذا كانت الدعوة قد بلغتهم قبل ذلك بسنين وأبوا وأعرضوا عن دين الإسلام وإخلاص العبادة لله ، وقد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم ترعى فسبى رسول الله ﷺ النساء والذرية والنعم والشاء مع أن الدعوة قبل القتال مستحبة ، ولو كانت الدعوة قد بلغتهم لأن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب حين بعثه لقتال أهل خيبر : « فادعهم الى الاسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » .

وأجاب بعضهم : شرع الله الجهاد وأمر بالقتال وبين لنا الحكمة في ذلك وموجبه وما يحصل به الكف ، قال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ ﴾ . قال المفسرون : الفتنة الشرك ، والدين اسم عام لكل ما بعث الله به محمداً ﷺ . وقال ﷺ : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله لا يشرك به شيء » . وقال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » . وقد عمل بهذا أبو بكر ووافق الصحابة رضي الله عنهم في قتال مانعي الزكاة ، فدل الحديث وعمل الصحابة على أن من ترك شيئاً من شرائع الدين الظاهرة وكانوا طائفة مجتمعة على ذلك انهم يقاتلون ، قال شيخ الاسلام رحمه الله : كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الاسلام الظاهرة المعلومة فإنه يجب قتالها ، فلو قالوا نشهد ولا نصلي قوتلوا حتى يصلوا ولو قالوا نصلي ولا نزكي قوتلوا حتى يزكوا ، ولو قالوا نزكي ولا نصوم ولا نحج البيت ، قوتلوا حتى يصوموا ويحجوا البيت ، فلو قالوا نفعل هذا كله لكن لا ندع الربا ولا شرب الخمر ولا الفواحش ولا نجاهد في سبيل الله ولا نضرب الجزية على اليهود والنصارى ونحو ذلك قوتلوا حتى يفعلوا ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ ۚ ﴾

حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴿ انتهى . فاعلم أن المقاتلين أنواع منهم من يقاتل على الدخول في الاسلام وهو الإقرار لله بالوحدانية والاعتراف له بذلك والعمل به والشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة ، فهذا إذا التزم بذلك التزاماً ظاهراً كف عن قتاله على ذلك ووكلت سريرته الى الله إلا أن قام به ناقض ينقض ما التزمه وأظهر الناقض وترك شريعة من شرائعه كالصلاة والزكاة وغيرهما من الشرائع فيجب على ولي الأمر أن يقاتل هذا وأن يبعث عماله على هذا المنوال وما كان من نقص فهو نقص في الراعي والرعية ، نعم النبي ﷺ أمر معاذاً أن يدعو الى ثلاثة أركان: الشهادتين والصلاة والزكاة ، وأخذ بهذا خلفاؤه رضي الله عنهم لأن غالب عامة الناس إنما خوطبوا بذلك فالحاضرة المظهرة للاسلام في الظاهر وكذا البادية وإن صدر من آحادهم ما هو ناقض كحال آحاد المنافقين زمن النبي ﷺ فقد يصدر من الحاضرة نوع استهزاء وغير ذلك وقد يصدر من آحاد البادية نوع استهزاء ونوع تحاكم الى غير ما أنزل الله لا سيما بادية الجنوب ، وهؤلاء الآحاد اذا أقروا بصدور ما هو ناقض أمروا بالتوبة منه وخوطبوا بالشرائع الظاهرة فان امتنعوا التزام ذلك قوتلوا عليه حتى يلتزموه ويؤدوه وحسابهم على الله .

وأما البلد التي يحكم عليها بأنها بلد كفر فقال ابن مفلح : وكل دار غلب عليها أحكام المسلمين فدار إسلام وان غلب عليها أحكام الكفر فدار كفر ولا دار غيرهما . وقال الشيخ تقي الدين وسئل عن (ماردین) هل هي دار حرب أو دار إسلام؟ قال: هي مركبة ، فيها المعنيان ، ليست بمنزلة دار الاسلام التي تجري فيها أحكام الاسلام لكون جنودها مسلمين ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار بل هي قسم ثالث يعامل المسلم فيها بما يستحقه ويعامل الخارج عن شريعة الاسلام بما يستحقه . والأولى هو الذي ذكره القاضي والأصحاب .

أمراء عبد العزيز

- أميره على تهامة وما يليها من اليمن : عبد الوها - المعروف بكنتيه (أبونقطة)
- » على الحجاز وما يليه من النواحي : عثمان بن عبد الرحمن المضايقي
- » على عمان : صقر بن راشد ، رئيس رأس الخيمة
- » على الأحساء ونواحيه : سليمان بن محمد بن ماجد
- » على القطيف ونواحيه : أحمد بن غانم
- » على الزبارة والبحرين : سليمان بن خليفة
- » على وادي الدواسر : ربيع بن زيد الدوسري
- » على ناحية الخرج : إبراهيم بن سليمان بن عقيصان
- » على الحمل : ساري بن يحيى بن سويلم
- » على ناحية الوشم (في بلد شقراء) : عبد الله بن حمد بن غيب
- » على ناحية سدير : عبد الله بن جلاجل
- » على ناحية القصيم (في بريدة) : حجيلان بن حمد
- » على جبل شمر (في حائل) : محمد بن عبد المحسن بن فايز بن علي

(عن ابن بشر)

قضاة عبد العزيز

قاضيه في الدرعية : بعد الشيخ : ابنه : حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب
وابنه : عبدالله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب .
امام قصره في الدرعية: عبد الرحمن بن خميس .
قاضيه على ناحية الوشم : عبد العزيز بن عبد الله الحصين .
.. على ناحية سدير : حمد بن راشد العريني .
على منيخ وما يليه : محمد بن عثمان بن شبانة .
على ناحية القصيم : عبد العزيز بن سويلم ، من أهل الدرعية
على ناحية الخرج (في الدلم) : محمد بن سويلم ، من أهل الدرعية
على ناحية الجنوب (في حوطة بني تميم) : سعيد بن حجي
وأما غير ذلك من النواحي فلا يحضرني الآن عد قضاتها ، إلا أنه كان يبعث
اليها قضاة نحو سنة ثم يبعث غيرهم .

— ابن بشر —

على حرعلا : حسن بن عبد الله بن عبدان
على الدرعية : عبد الرحمن بن خميس
(تذكرة أولى النهي والعرفان) — إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن

وصف عبد العزيز

خوفه من الله . عدله . بساطته . حبه للرعية
عطفه على الضعفاء ورعايته للعلماء والطلاب
كان عبد العزيز « مهدي زمانه »

قال ابن بشر :

(كان عبد العزيز كثير الخوف من الله ، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر .
لا تأخذه في الله لومة لائم ، ينفذ الحق ولو في أهل بيته وعشيرته ، لا يتعاضم
عظيماً إذا ظلم فيقمعه عن الظلم وينفذ الحق فيه ، ولا يتصاغر حقيراً ظليماً فيأخذ
له الحق ولو كان بعيد الوطن .

وكان لا يكثر في لباسه ولا سلاحه ، بحيث أن بنيته وبني محلاة
سيوفهم بالذهب والفضة ، ولم يكن في سيفه شيء من ذلك إلا قليل .
وكان لا يخرج من المسجد بعد صلاة الصبح حتى ترتفع الشمس ويصلي فيه
صلاة الضحى .

وكان كثير الرأفة والرحمة بالرعية ، وخصوصاً أهل البلدان ، بإعطائهم
الأموال وبت الصدقة لفقرائهم والتفحص عن أحوالهم ، وقد ذكر لي بعض من
أثق به أنه يكثر الدعاء لهم في ورده ، قال وسمعتة يقول :
« اللهم أبقي فيهم كلمة لا إله إلا الله ، حتى يستقيموا عليها ولا يحيدوا
عنها . »

شيوخ الأمن والطمانينة :

وكانت الأقطار والرعية في زمنه آمنة مطمئنة في عيشة هنيئة ، وهو حقيق بأن يلقب : مهدي زمانه ، لأن الشخص الواحد يسافر بالأموال العظيمة أي وقت ، شتاءً وصيفاً ، يمتأ وشاماً ، شرقاً وغرباً ، في نجد والحجاز واليمن وتهامة وغير ذلك ، لا يخشى أحداً إلا الله لا سارقاً ولا مكابراً ، وكانت جميع بلدان نجد من العارض والخرج والقصيم والوشم والجنوب وغير ذلك من النواحي في أيام الربيع يسبون جميع مواشيهم في البراري والمقالي من الإبل والحيل والجياد والبقر والأغنام وغير ذلك ، ليس لها راعٍ ولا مراعى بل إذا عطشت وردت على البلدان ثم تصدر إلى مقاليها حتى ينقضي الربيع أو يحتاج لها أهلها لسقي زروعهم ونخيلهم ، وربما تلقح وتلد ولا يدري أهلها إلا إذا جاءت وولدها معها ، إلا الحيل الجياد فمن لها من يتعاهدها في مقاليها لسقيها وحدوها بالحديد ، وكانت إبل أهل سدير ونجائبهم وخيلهم مسيات أيام الربيع في الحمادة وفي اراط والعبلة ، ومعها رجل واحد يتعاهدها ويسقيها ويزور أهلها ويرجع إليها وهي في مواضعها فيصلح ربطها وقيودها ثم يغيب عنها . وكذلك خيل أهل الوشم ونجائبهم في الحمادة وفي روضة محرقه وغيرها وهكذا يفعلون بها . وكذلك خيل عبد العزيز وبنيه وعشيرته في النقعة - الموضع المعروف قرب بلد ضرمة - وفي الشميب ، المعروف بمقرى عبيد من وادي حنيفة ، وليس عندها إلا من يتعاهدها لمثل ما ذكرناه ، وكذلك جميع النواحي تفعل ذلك .

شدته على الجناة :

وكان رحمه الله تعالى ، مع رأفته بالرعية ، شديداً على من جنى جنسية من الأعراب أو قطع سبلاً أو سرق شيئاً من مسافر ، بحيث من فعل شيئاً من ذلك أخذ ماله نكالا أو بعض ماله أو شيئاً منه على حسب جنايته ، وأدبه غير ذلك أدباً بليغاً . وحكي أنه أتى حاج من العجم ونزل قرب بوادي سبيع فسرقت من الحاج غرارة فيها من الخوائج ما يساوي عشرة قروش ، فكتب صاحب الغرارة

إلى عبد العزيز يخبره بذلك ، فأرسل إلى رؤساء تلك القبيلة فلما حضروا عنده قال لهم : إن لم تخبروني بالفرارة ، جعلت في أرجلكم الحديد وأدخلتكم السجن وأخذت نكالا من أموالكم . فقالوا : نفرمها بأضعاف ثمنها ، فقال : كلا ، حتى أعرف السارق . فقالوا : ذرنا نصل إلى أهلنا ونسأل عنه ونخبرك . ولم يكن بد من إخباره . فلما أخبروه به أرسل إلى ماله ، وكان سبعين ناقة ، فباعها وأدخل ثمنها بيت المال ، وجيء بالفرارة لم تتغير .. وكان صاحبها قد وصل إلى وطنه ، فأرسلها عبد العزيز إلى أمير الزبير وأمره أن يرسلها إلى صاحبها في ناحية العجم .

وذكر لي شيخنا القاضي عثمان بن منصور أن رجالاً من سراق الأعراب وجدوا عنزاً ضالة في رمال نفود السر ، المعروف في نجد ، وهم جياح ، وأخبرني أنهم أقاموا يومين أو ثلاثة مقوين ، فقال بعضهم لبعض : لينزل أحدكم على هذه العنز فيذبحها لنا كلها . فكل منهم قال لصاحبه : إنزل إليها ، فلم يستطع أحد منهم النزول خوفاً من العقاب على الفاعل ، فألحوا على رجل منهم ، فقال : والله لا أنزل إليها ، ودعوها فإن عبد العزيز يرعاها . فتركوها وهم في أشد الحاجة إليها .

الأمن في البوادي والطرق :

وكانت الحجاج والقوافل وجباسة الفنائم والزكاة والأخماس وجميع أهل الأسفار يأتون من البصرة وعمان وبلاد العجم والعراق وغير ذلك إلى الدرعية ويحجون منها ويرجعون إلى أوطانهم ، لا يخشون أحداً من جميع البوادي مما احتوت عليه هذه المملكة لا بحرب ولا سرق ، وليس يؤخذ منهم شيء من الإخاوات والقوانين التي تؤخذ على الحجاج ، وبطل جميع الإخاوات والجوائز على الدروب التي للأعراب التي أحيوا بها سنن الجاهلية .

يخرج الراكب وحده من اليمن وتهامة والحجاز والبصرة والبحرين وعمان ونقرة الشام لا يحمل سلاحاً بل سلاحه عصاه ، لا يخشى كيد عدو ولا أحد يريده بسوء .

وأخبرني أنه ظهر مع عمال من حلب الشام قاصدين الدرعية ، وهم أهل ست

نحائب محملات ريال زكوات بوادي أهل الشام ، فإذا جنّهم الليل وأرادوا النوم نبدوا أرحلهم ودرامهم يميناً وشمالاً ، إلا ما يجعلونه وسائد تحت رؤوسهم . وكان بعض العمال إذا جاؤوا بالأخماس والزكاة من أقاصي البلاد يجعلون مزاد الدرام أطناباً لحيمهم وربطاً لحيلهم بالليل لا يخشون من سارق ولا غيره .

العناية بالابل الضالة :

وكان في الدرعية رعية إبل كثيرة ، وهي ضوال الإبل التي توجد ضائعة في البر والمفازات جمعاً أو فرادى ، فمن وجدها من باد أو حاضر في جميع أقطار الجزيرة أتى بها الى الدرعية خوفاً أن تعرف عندهم ، ثم تجعل من تلك الإبل . وجعل عبد العزيز عليها رجلاً ، يقال له « عبيد بن يعيش » يحفظها ، وجعل فيها رعاة ، ويتعاهدها بالسقي والقيام بما ينوبها ، فكانت تلك الإبل تتوالد وتتناسل وهي محفوظة ، فكل من ضاع له شيء من الإبل من جميع البادية والحاضرة أتى الى تلك الإبل فإذا عرف ماله أتى بشاهدين ، أو شاهد ويمينه ، ثم يأخذه ، وربما وجد الواحدة اثنتين .

كثرة موارد الزكاة :

وكان ما يحمل إلى الدرعية في زمنه وزمن ابنه سعود من الأموال والزكاة والأخماس ، وغير ذلك من السلاح والحيل العتاق والإبل وغير ذلك مما يفرق على النواحي والبلدان وضعفائهم وضعفاء البوادي ، لا يحصيه العدد .

زكاة مطير :

وأخبرني أحمد بن محمد المدلجي ، قال : كنت كاتباً لعمال علوي من مطير مرة في زمن عبد العزيز ، فكان ما حصل منهم من الزكاة في سنة واحدة : احد عشر ألف ريال . وكان عمال برية من مطير ، رئيسهم عبد الرحمن بن مشاري بن سعود فكان ما جبي منهم اثني عشر ألف ريال ، ومن هيثم سبعة آلاف ريال ، وكانت

زكاة مطير في تلك السنة : ثلاثين ألف ريال .
زكاة عنزة وبوادي الشام :

وكان عنزة أهل الشام وبوادي خيبر وبوادي الحويطات المعروفات ومن في نجد من عنزة ، يبعث اليهم عوامل كثيرة ويأتون منهم بأموال عظيمة .
وأخبرني من أثق به قال : أناخ في يوم واحد تحت الطلحة المعروفة عند باب بلد شقرا أربع عوامل من عمال بوادي الشام ، كل عاملة معها عشرة آلاف ريال .
زكاة شمر والظفير وغيرهما :

قلت : ويأتي غير ذلك من زكاة بوادي شمر وبوادي الظفير قريب ما يأتي من عنزة ، ومن قحطان وبوادي حرب وعتيبة وجهينة وبوادي اليمن وعمان وآل مرة والمعجان وسبيع والسهول وغيرهم ما يعجز عنه الحصر .
الزكاة الشرعية فقط :

وتؤخذ منهم الزكاة على الأمر الشرعي ولا يؤخذ فيها كرائم الأموال ولا دونها إلا من غيب من إبله أو غنمه شيئاً عن الزكاة فيؤخذ منه الزكاة والنكال ، وكان يوصي عماله بتقوى الله وأخذ الزكاة على الوجه المشروع ، وإعطاء الضعفاء والمساكين ، ويزجرهم عن الظلم وأخذ كرائم الأموال .

صدقات عبد العزيز للعلماء والطلاب والضعفاء .. والأرامل :

وكان رحمه الله تعالى مع ذلك كثير العطاء والصدقات للريعية من الوفود والأمراء والقضاة وأهل العلم وطلبته ومعلمة القرآن والمؤذنين وأئمة المساجد ، حتى أئمة مساجد نخيل البلدان ومؤذنيهم ، ويرسل قهوة لأهل القيام في رمضان . وكان الصبيان من أهل الدرعية إذا خرجوا من عند المعلم يصعدون إليه بألواحهم ويعرضون عليه خطوطهم فمن تحاسن خطه منهم أعطاه عطاء جزيلاً وأعطى الباقيين دونه .

وكان عطاؤه للضعفاء والمساكين من الغاية ، فكان منهم من يكتب اليه منه

ومن أمه وزوجته وابنه وابنته من كل واحد كتاباً وحده ، فيوقع لكل كتاب منهم عطاءه فكان الرجل يأتيه بهذا السبب عشرون ريالاً وأقل وأكثر .

وكان إذا مات الرجل من جميع نواحي نجد يأتي أولاده إلى عبد العزيز وابنه يستخلفونه فيعطيه عطاء جزيلاً ، وربما كتب لهم راتباً في الدايون .

وكان كثيراً ما يفرق على أهل النواحي والبلدان كثيراً من الصدقات في كل وقت ، وكل سنة يعطي كل أهل بلد وكل أهل ناحية ألف ريال وأقل وأكثر . ويسأل عن الضعفاء والأيتام في الدرعية وغيرها ويأمر باعطائهم ، وكثيراً ما يفرق على بيوت الدرعية وضعفاً .

وكان كثيراً ما يكتب لأهل النواحي بالخص على تعليم القراءة وتعلم العلم وتعليمه ، ويجعل لهم راتباً في الديوان ، ومن كان منهم ضعيفاً يأمره أن يأتي إلى الدرعية ويقوم بجميع أنوابه .

وأخبرني كاتبه قال : إن عبد العزيز أخذه يوماً صدام ، فدعاني وقال : اكتب صدقة لأهل النواحي . فأملني عليّ لأهل منفوحة خمسمائة ريال وأهل المينة مثل ذلك وأهل حريملاء سبعمائة ريال وأهل المحمل ألف ومائة ريال ، ولجميع نواحي نجد على هذا المنوال .. قال : قيمتها تسعون ألف ريال .

وأتى إليه يوماً خمسة وعشرون حملاً من الريالات ، فمرّ عليها وهي مطروحة فنخسها بسيفه ، وقال : اللهم سلطني عليها ولا تسلطها عليّ ، ثم بدأ في تفريقها .

غزواته :

وإذا أراد الغزو ، معه أو مع ابنه سعود ، بعث رسلاً إلى رؤساء القبائل من العربان ، وواعد جميعهم يوماً معلوماً على ماء معلوم ، فلا يتخلف أحد عن ذلك الموعد ، لا حقيز ولا جليل ، لا من بوادي الحجاز ولا العراق ولا الجنوب ولا غير ذلك ، فمن ذكر متخلفاً ممن تعين عليه الأمر من رجل أو فارس أدبَ أدباً بليغاً وأخذ من ماله نكالا ، والرجل الواحد أو الإنسان إذا أرسلهم عبد العزيز وابنه سعود إلى البوادي من جميع أقطار جزيرة نجد أخذوا منها النكال من

الأموال والخيول والإبل وغير ذلك ويضربون الرجال ويعذبون المجرم بأنواع العذاب ولا يتجاسر أحد أن يقول لهم شيئاً أو يشفع فيه بل كلهم طائعون مدعنون .

وهذا الذي ذكرت من جهة الأمن وطاعة الحاضر والباد وغير ذلك اتفق في زمنه وزمن ابنه سعود وصدر من ولاية عبد الله ، قبل أن تسلط الدولة المصرية على المسلمين بسبب الذنوب .

محاسن وفضائل لا تحصر :

وبالجملة فمحاسنهم وفضائلهم أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر ، ولو بسطت القول في وقائهم وغزواتهم وما مدحوا به من الأشعار وما قصد باهم من الرؤساء والعظماء من أقاصي الأقطار ، وما حمل اليهم من الأموال والسلاح والخيول ، التي لا يدركها العد والتذكر ، لجمعت فيها عدة أسفار ، ولكنني قصدت الإيجاز والاختصار ..) .

عبد العزيز كما يصفه الريحاني :

يقول أمين الريحاني ، في كتابه « نجد وملحقاته » :
(.. بعد محمد بن سعود وإخوانه الأنصار ، ظهر عبد العزيز بن محمد ، الذي شرع في عهد أبيه يشن الغارات ، فحمل رايات التوحيد الى أقصى الأقطار العربية وبسط نفوذ السيادة السعودية في البوادي والحضر . ولكنه على تعدد غزواته واتساع مجال جولاته ، لم يكن غير مهبط السبيل لابنه سعود ، الفاتح الأول الأكبر .)

ويقول الريحاني في مكان آخر من كتابه :

(.. اعتزل عبد العزيز العمل في شيخوخته ، وهو الذي قضى أكثر من أربعين سنة من حياته في الغزو والحروب فلا كَلَّ ولا مَلَّ ، ولا قعد بعد هزيمة ، ولا لها بعد انتصار ، فقد كان يزحف برجاله من أقصى البلاد إلى أقصاها في يومي البؤس والنعم ، فيهب يوماً على الربع الخالي ويوماً في القصيم ويوماً في

الساوة بالعراق وآخر في وادي الدواسر ، كأنه من العناصر كالمطر أو السَّعوم ،
وقد كان مطراً للموحدين وسموماً لأعدائهم ، يغزو في بعض السنين ست غزوات
ويعود بالغنائم الى الدرعية فيقسمها بين رجاله على السواء .) .

رأينا :

القول بأن عبد العزيز لم يكن إلا مهداً لابنه سعود الفاتح الأكبر .. قول
ينطوي على كثير من الظلم لعبد العزيز ، الذي يعود اليه الفضل الأكبر ، بعد
المحمدين - محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود - في تركيز دعائم الدولة السعودية
وتقويتها وتوسيع آفاقها ونشر التوحيد وتعميم التعليم وإشاعة الأمن .. وسعود
لم يزد في حجم الدولة السعودية بعد أبيه إلا فتحه الحرمين وغزوه أطراف الشام
 وإرساله الجيوش الى بعض بلدان الخليج ، وقد كان هذا كله ، أو بعضه ، سبباً
من أسباب انهيار الملك ، والله أعلم .

نحن لا نسكر فضل سعود ومزاياه الكثيرة وجهاده الموصول ، ولكن نعمته
بالكبير ، وما رافق اسمه من دوي ، بسبب حروبه ، لا يجنب عنا فضل
عبد العزيز ، وهو عندنا أعظم من ابنه سعود .

عبد العزيز في شعر سلامة :

وقال الشاعر الكبير « بولس سلامة » في ملحمة الكبرى التي لخص فيها
التاريخ السعودي ، يصف عبد العزيز بن محمد :

(يا سيوف الوغى دروع سعودٍ	الوفيون منكم والكرام
قد نصرتم « عبد العزيز » أميراً	فبكم عزّ رحمة والحسام
صائن الدين من خطوب عوادٍ	ولمّام الزهادة الصوام
الوديع المهيب خلّقاً وخلّقاً	المصلي والمابد القوام
بسط الأمن في مباسط نجدٍ	فتأخت صقوره والحمام
الجبّارى في ظله آمناً	ومع النمر تسرح الأندام

مصرعه :

حائط الأمن غاله سيف وغد	حينما كان في السجود الإمام
عبد الله منذ ما أذن الداعي	وأذكى عقل الصبي احتلام
فتلقى النعم روح تقي	خشية الله بدؤه والختام
شرف اثنان من دم وائلي	باتر غادر وموت زؤام
ومضى الخلد بالوسام دميًا	إنما مصرع الشهيد وسام
سيفل الحصون سيف سعود	ومن الضرب تستجير الأكام
للجبان الغدار لعنة أجيا	لـ وحرب مبيدة وانتقام
للموالين عزة وصفاء	للعداة الإرمال والإيتام

حوليات المعارك والحوادث

في عهد عبد العزيز

السنة	المعارك والحوادث
١١٧٩	غزا عبد العزيز الرياض مرتين
١١٨٠	غزا عبد العزيز الرياض ، وغزا ثرمداء (وقعة الصحن)
١١٨١	غزا عبد العزيز الرياض مرتين : وقعة (المشيقيق) ووقعة (باب الثميري)
	غزا هذلول بن فيصل (العودة) واستولى عليها بايع أهل الوشم وأهل سدير أول القحط المشهور باسم (سوقه)
١١٨٢	غزا سعود بن عبد العزيز (الزلفي) و (حائر سبيع) و (عنيزة) وأعراباً من آل مرة
١١٨٣	غزا عبد العزيز (الجمعة) ، واستولى على (الهلالية) ، ودخلها وتلقى فيها بيعة كثير من أهل القصيم

السنة	المعارك والحوادث
١١٨٤	غزا عبد العزيز حائر سبيع ، وبايع له أهل الحائر . وغزا المحمرة (من بوادي الظفير)
١١٨٥	غزا عبد العزيز الرياض مرتين ، وقتل ولدين لدهام بن دواس . أرسل عبد العزيز والشيخ مندوباً عنها إلى شريف مكة للمناظرة .
١١٨٦	غزا عبد العزيز الرياض مرتين
١١٨٧	غزا عبد العزيز الرياض هرب دهام بن دواس من الرياض فتح الرياض
١١٨٨	استولى عريعر بن دجين على (بريدة) وسار إلى الخابية ، فمات فجأة .. وتقهر جيشه وعاد إلى الأحساء غزا سعود الدلم والزلفي بيعة أهل منيخ وحريق نعام
١١٨٩	غزا عبد العزيز ضبيعة (الخرج) استدعى زيد بن زامل وصاحب وادي الدواسر وبعض رؤساء الجنوب رئيس نجران وساروا معه لقتال الدرعية ، فأغاروا أولاً على (حائر سبيع) وقتلوا أهله ثم صالحوم وساروا إلى (ضرمى) فحاصروها ولكنهم عجزوا عنها فنفروا ورجعوا إلى بلدانهم .. غزا سعود (بريدة) ، واستسلمت (بريدة) لرجال عبد العزيز .
١١٩٠	نقض ابن زامل بيعته . غزا عبد العزيز الدلم واستولى عليها وسمى ابن عفيصان أميراً فيها .

السنة	المعارك والحوادث
	بايعت (اليامة) ، ثم نكثت العهد . استرجع ابن زامل بلدة الدلم وهرب ابن عفيصان . غزا عبد العزيز آل مرة ..
١١٩١	استولى عبد الله بن محمد بن سعود على (حرمة) فتنة حرمة والمجعة . مسير سعود إلى حرمة وحصاره لها واستسلامها . استعمال ابن جلاجل أميراً على سدير ومنيح .
١١٩٢	نزل سعدون بن عريعر الحرج وصالح عبد العزيز ثم نقض الصلح .
١١٩٣	فتنة جديدة في حرمة ، واستيلاء سعود عليها وتدميرها ..
١١٩٤	غزوة سعود وعمه عبد الله للزلفي . بيعة الزلفي
١١٩٥	غزا سعود الدلم وأمر ببناء قصر (البدع) .. غزا عبد العزيز الدلم ونعجان وحوطة الجنوب واليامة . غزا سعود الظفير .
١١٩٦	فتنة القصيم (ما عدا بريدة والرس والتنومة) وحصار سعدون بن عريعر وأنصاره من أهل القصيم لبريدة ، ثم عجزهم عنها ، ومسيرهم إلى (الروضة) - في سدير - واستيلائهم عليها . سعود يحاصر الروضة ويستولي عليها .
١١٩٧	سعود يغزو (مطير) .
١١٩٨	سعود يغزو (العيون) في الأحساء ، ويغير على أهل اليامة ، ويغزو (عنيزة) .
١١٩٩	بيعة رؤساء الدواسر . سعود يستولي على الدلم ويعيد سليمان بن عفيصان أميراً عليها .

السنة	المعارك والحوادث
١٢٠٠	غزا سعود بوادي قحطان .
١٢٠١	مسير (ثويني) إلى التنومة فبريدة ، ثم رجوعه إلى بلاده .. حجيلان يغزو جبل شمر ، فيبايع أهله .
١٢٠٢	سعود يستولي على (عنيزة) البيعة لسعود بولاية العهد ابن عفيصان يغزو العقير و (الجشة) في الأحساء . كما يغزو (قطر) . بيعة أهل وادي الدواسر .
١٢٠٣	سعود يغزو بني خالد ، ثم المنتفق . ثم أهل المبرز وقرية الفضول (في الأحساء)
١٢٠٤	سعود يغزو بني خالد ويستعمل زيد بن عريعر أميراً عليهم
١٢٠٥	مسير شريف مكة غالب بن مساعد وجنوده إلى نجد ، وحصارهم لقصر بسمام في السر ، ثم مسيرهم عنه إلى (الشعراء) وحصارهم لها وهزيمتهم عنها ورجوعهم إلى أوطانهم .. غزو سعود للبوادي التي ساعدت شريف مكة وأخذة أموالهم ..
١٢٠٦	سعود يحاصر (سيهات) و (عنك) في الأحساء ويأخذها عنوة . سعود يغزو البوادي من مطير وحرب وغيرهم قرب جبل شمر ويأخذ منهم غنائم كبيرة . وفاة الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب
١٢٠٧	سعود يغزو بني خالد ويقتل منهم مقتلة عظيمة ويأخذ غنائم هائلة . أهل الأحساء يبايعون لسعود أهل الأحساء ينقضون البيعة .

السنة	المعارك والحوادث
١٢٠٨	سعود يسير إلى الأحساء ، فيستولي على (الشقيف) ويحاصر أهل (المطيرفي) ويصالحهم . براك يبايع باسم أهل الأحساء على السمع والطاعة ويصبح نائباً لعبد العزيز في الأحساء وتزول ولاية آل حميد عن الأحساء . بيعة جوف آل عمرو لعبد العزيز ، بعد قتال . ابن عفيصان يستولي على (الحويلة) في قطر ويغزو الكويت . مسير سعود إلى (تربة) ومحاصرة لها .
١٢٠٩	شريف مكة غالب بن مساعد يغير على هادي بن قرملة . سعود يغير على عربان من عتيبة ومطير في الحجاز معركة الجمانية بين شريف مكة ورجال عبد العزيز فتنة في الأحساء . مسير سعود إلى الأحساء وتأديبه الشديد للمتمردين .
١٢١١	حملة ثويني الكبرى على نجد .. ومقتله وهزيمة جيوشه
١٢١٢	رؤساء عتيبة والبقوم يبايعون عبد العزيز سعود يغزو (سوق الشيوخ) في العراق وبوادي من شمر هادي بن قرملة وأنصاره يتغلبون على جيوش الشريف
١٢١٣	زحف علي كبيخا نائب والي العراق إلى نجد على رأس جيش كبير ، ونزوله في الأحساء ، وحصاره لقصر المبرز وقصر الهفوف وعجزه عنها ، وعودته إلى بلاده بعد مصالحته لسعود .. حج ركب من أهل نجد (بعد مصالحة شريف مكة للإمام عبد العزيز ، بعد وقعة الخرمة)
١٢١٤	حج سعود بن عبد العزيز ومعه كثير من أهل نجد ..

<u>المعارك والحوادث</u>	<u>المسنة</u>
حج سعود بالمسامين (وكان مع والده ، ولكن والده اضطر لمرضه إلى العودة من منتصف الطريق)	١٢١٥
غزا سعود بلدة (كربلاء) في العراق	١٢١٦
عبدالعزیز بمد آل خليفة بجيش لتخليص البحرين من سلطان مسقط	
نقض الصلح مع شريف مكة ، واستيلاء المضايقي على (الطائف)	١٢١٧
مسير سعود إلى الحجاز .	
استيلاء سعود على مكة ، بعد هرب الشريف إلى جدة .	
مصرع الإمام عبد العزيز .	١٢١٨

استدراك

حول كلمة الوهابية

استعمل المؤرخان النجديان ابن غنام وابن بشر كلمة « المسلمين » في تسمية أتباع الدولة السعودية الاولى عامةً ، ومقاتلتها خاصةً ، وربما أطلقا عليهم اسم « الموحدين » أيضاً ، وكلا التسميتين تبدو اليوم غريبة .. وكأنت فيها لوناً من ألوان التحدي للآخرين والشك في صحة معتقداتهم ..

كانوا يطلقون على أنفسهم اسم « المسلمين » - أو « الموحدين » - يختصون به قومهم دون غيرهم ، حتى أزالوا معالم الشرك والشركيات ، وقضوا على الجهل والخرافات ، وبذلك تحققت مقاصد الدعوة ، ولم تبقَ اليوم حاجة - في اعتقادنا - إلى هذا التخصيص الذي كان يقترن بمرحلة معينة من التاريخ !

إن العالم الإسلامي ، في هذا الزمن ، مدعو إلى توحيد صفوفه لمواجهة الغزوات الإلحادية والتحديات المختلفة ، تصدر عن بلاد شرقية وغربية ، تريد القضاء على الديانات والقيم الروحية كلها ، لا تفرق بين دين ودين ، ومذهب ومذهب !

وها نحن نرى ورثة الدعوة السلفية الإصلاحية ، في المملكة ، أكثر الناس وعياً لهذه الحقيقة ، وهذا الفيصل العظيم يحمل بأمانة وقوة لواء التضامن

الإسلامي، يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وينفق في الدفاع عن الإسلام والتأليف بين قلوب المسلمين على اختلاف أقطارهم وتباين اجتهاداتهم أكرم جهده وأثمن وقته ، ولسنا الآن في تبيان خدماته الجليلة الموصولة للإسلام ، فلذلك موضع آخر ، ولكننا نحب أن ننبه إلى أن الذين كافحوا الشرك ، من قبل ، في جزيرة العرب ، لو عاشوا إلى اليوم ، لما فعلوا إلا ما يفعله أحفادهم ، من « تعميم » كلمة المسلمين ، وتوحيد كلمتهم ، ليقفوا كالبنين المرصوص أمام أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر ليفرقوهم ثم ليسلبوهم ديانتهم وأصالتهم !

كتبنا هذا التمهيد ، لنصل منه إلى تقرير موقفنا من « مصطلح » تاريخي استعمله ابن غنام وابن بشر - وهو تسمية أهل نجد وحلفائهم باسم « المسلمين » - هل نتابعها عليه أم نفارقها فيه لتغير الزمن ؟

لقد حافظنا على النصوص كما أوردتها أصحابها .. ولكننا استعملنا في كتابنا تعابير أخرى ، ومنها : « الوهابية » ، وهي في طليعة التسميات المشهورة التي سُمّي بها المؤرخون العرب والأجانب أتباع الدولة السعودية الأولى - قبل أن تعرف بهذا الاسم - ولذلك لم ننكرها واستعملناها في مواضع من كتابنا .

وقد طلب منا معالي الشيخ حسن عبدالله آل الشيخ أن نبدل كلمة « الوهابيين » بالسعوديين أو أهل نجد أو رجال الدرعية ، أو نحو ذلك .. لأن أعداء الدعوة السلفية الإصلاحية ، التي نهض بها الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، أرادوا تشويه حركته وإيهام الناس أنه جاء بمذهب خامس جديد غير المذاهب السنية الأربعة المعروفة فأطلقوا عليه اسم المذهب الوهابي وسمّوا أنصاره « الوهابيين » حقداً وكيداً .

والواقع أننا أخذنا بنصيحة معاليه الرشيدة ما استطعنا ، وإن كنا نرى أن كلمة « الوهابية » هزمت خصومها هزيمة كاملة ، فلم تعد تحمل المعنى الذي أرادوا إلصاقه بها ، وإنما أصبحت تعني الحركة الإصلاحية السلفية ليس غير ، وذلك بعد أن عرف الناس حقيقتها واكتشفوا دسائس خصومها ، وأدركوا أن الشيخ كان

سلفياً حنبلياً ، دعا إلى الإسلام الصحيح ، وشدد على الدعوة إلى التحرر من الشرك والجهل والسيطرة الأجنبية .. وبذلك قامت في جزيرة العرب أول دولة عربية حرة عزيزة قوية ، يظل لها لواء الإسلام ، بعد أن طوّت السلطنة العثمانية مجد العرب واسمهم عن عيون العالم زمناً طويلاً .

ولعلنا نستطيع أن نحتج لاستعمال كلمة الوهابية ، فوق ذلك ، بأن بعض أعلام نجد الكبار ، استعملوا هذه الكلمة أيضاً ، فالشيخ سليمان بن سحمان جعل عنوان كتاب له :

« الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية »

وقال في مقدمة كتابه :

(أهل الاسلام الموحدين من أهل نجد ، المشهورين بالوهابية) .

ووردت الكلمة أيضاً في كتابات أعلام نجديين غير متهمين .

جدول الخطأ والصواب

وقعت في الكتاب أخطاء يسيرة أشرنا إلى بعضها في هذا الجدول ، وربما وقعت أخطاء أخرى في « النصوص » التي اقتبسنا شيئاً منها في كتابنا . فهناك كلمات وأسماء نقلناها كما جاءت في مصادرها ، مع شكنا في صحتها ، ونرجو أن يتسع وقتنا لتحقيقها ، مثلاً . . نقلنا عن ابن غنام في الصفحة ٢٠ من كتابنا — السطر ١١ — قوله : (غزا ركب لأهل بريدة ظهرة مع النفيثي) ، فكتابة النفيثي بالثاء جائزة في اللغة ، نسبة إلى « النفيث » ، ولكن وجود أسرة مشهورة في المملكة باسم النفيسي أو النفيسة ترجح وقوع تصحيف « أو خطأ مطبعي » في تاريخ ابن غنام ، والله أعلم .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٦	٩	فيها	فبها
٨٤	٢٠	ولي بعده	ولي بعده
٨٧	٧	والفضول	الفضول
٩٢	١٢	فقاتلهم	فقاتلهم
١٠٣	١٩	كلها	كلهم
١٠٦	٤	والقطر	والنصر

<u>الصفحة</u>	<u>السطر</u>	<u>الخطأ</u>	<u>الصواب</u>
١٣٠	٢٣	التقنوا	التقوا
١٣١	١	شفائي	شفائي أو شفائه .
١٣٣	١٢	الدعوة	الدعوى
١٣٤	٦	للحج	بالحج
١٣٦	٢١	وجدد	وجددة
١٣٧	١٩	الشوكتاني	الشوكتاني
١٣٨	١٠	سل	بسل
١٤٠	١٩	خاف منها من	خاف منها على
١٤٣	١٢	سار اليم	سار اليهم
١٤٣	١٩	يهم (العدو)	يهم في (العدو)
١٤٤	٥	الملقت	الملقب
١٥٤	٢٣	تحت إمرته كان	تحت إمرته ، وكان ..

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
المؤسس الثاني للدولة السعودية الاولى	١٧
عبد العزيز الإنسان	٢٠
وثيقة تاريخية : أول غربي زار الدرعية	٢٣
المفاضلة بين عبد العزيز وسعود	٣١
ولاية عبد العزيز	٣٣
معارك الرياض	٣٩
فتح الرياض	٤٦
بيعة الوشم	٥٢
معارك الخرج	٥٣
بلاد القصيم	٦٥
سدير وحرمة ومنيع	٧١

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٨٢	الأحساء
٩٨	الحملة العراقية ضد نجد
١٢٥	واقعة كربلاء
١٣٣	بين عبد العزيز وأشراف مكة
١٣٣	عهد الشريف أحمد بن سعيد
١٣٦	عهد الشريف سرور بن مساعد
١٣٨	عهد الشريف غالب بن مساعد
١٥٩	الاستيلاء على الطائف
١٦٣	الاستيلاء على مكة
١٦٥	فتح مكة في روايات الغربيين
١٧٣	دخول مكة ، كما يصفه الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب
١٧٦	رواية ابن دحلان
١٨٠	رواية الجبرتي
١٨٥	حصار جدة واسترداد الشريف لمكة
١٩٠	جبل شمر
١٩٢	الزيارة والبحرين
١٩٤	عسير
١٩٦	عمان
٢٠٠	الكويت
٢٠٢	غارات عبد العزيز على العربان
٢٠٥	مصرع عبد العزيز

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
الملحق : رسائل عبد العزيز	٢١١
رسالة عبد العزيز إلى الفرس والترك	٢١٣
رسالة عبد العزيز إلى أهل الخلاف السلياني	٢١٨
رسالة عبد العزيز إلى القاسمي	٢٢١
رسالة عبد العزيز إلى ياقوت	٢٢٥
رسالة عبد العزيز إلى السيد علي	٢٢٨
رسالة عبد العزيز إلى العلماء في المشرق والمغرب	٢٣٢
رسالة عبد العزيز إلى الحفظي	٢٥٨
أمراء عبد العزيز	٢٦١
قضاة عبد العزيز	٢٦٢
وصف عبد العزيز	٢٦٣
حوليات المعارك والحوادث في عهد عبد العزيز	٢٧٣
استدراك حول كلمة « الوهابية »	٢٧٩
جدول الخطأ والصواب	٢٨٣

طبع بمطبع دار الشبيل للنشر والتوزيع والطباعة
ص ب ٢١٢٩١ الرياض - ١١٤٧٥ - تليفون + فاكس ٤٨٨٠٠٤٧

كتب المؤلف

- | | |
|-------------------------------|-----------------------------------|
| كتب معدة للطبع أو قيد الإعداد | الدستور السوري ، باللغة الفرنسية |
| - أوراق الذهب | عبقرية الإسلام في أصول الحكم |
| - معاوية | الحقوق الدستورية |
| - الأسطول الإسلامي | الحقوق الرومانية |
| - ابن خلدون | الحقوق المدنية الفرنسية |
| - خالد بن صفوان | الحقوق الجزائية الخاصة |
| ديوان شعر | أوراق |
| الصلوات الدولية في الإسلام | تاريخ البلاد العربية السعودية : |
| أيوب | ١ - عهد التأسيس |
| الخ . . | ٢ - عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد |
| مسرقيات : | ٣ - عهد الإمام سعود |
| - زنوبيا | ٤ - عهد الإمام عبدالله بن سعود |
| - كليوباترة | - فيصل ، تاريخ مملكة في سيرة زعيم |
| - بلقيس - ملكة سبأ | - الإمام تركي بن عبدالله |
| - المطلقات | - رجل في جلد آخر ، وقصص صغيرة |

المؤلف

- ولد في دمشق، ونال الشهادة الثانوية في سن مبكرة جداً، وتكاد لا تصدق.
- نال شهادة الحقوق في دمشق، وشهادة الحقوق من كلية الحقوق في باريس، ودكتوراة الدولة في الحقوق العامة والخاصة من جامعة باريس، وشهادة في فقه اللغة، وشهادة في الأخلاق وعلم الاجتماع من السوربون، وشهادة في الصحافة من معهد العلوم الاجتماعية العليا بباريس.

مناصبه السابقة:

- نائب دمشق مراراً.
- وزير الشباب والدعاية (الإعلام)، ووزير العدل ووزير المعارف مراراً.
- استاذ ذو كرسي في كلية الحقوق بدمشق، ورئيس الجامعة بالوكالة مراراً.
- عضو المجمع العلمي العربي بدمشق.
- كبير المستشارين في وزارة المعارف، بالملكة العربية السعودية، ومستشار في دارة الملك عبدالعزيز.
- رئيس تحرير المجلة العربية.
- وقد أصدر في دمشق مجلة «الحياة الأدبية»، ثم جريدة «النضال»، وترأس تحرير جريدة «الجزيرة»، وكتب مقالات وبحوثاً أدبية في مجلات وصحف كثيرة في سوريا ولبنان ومصر.

